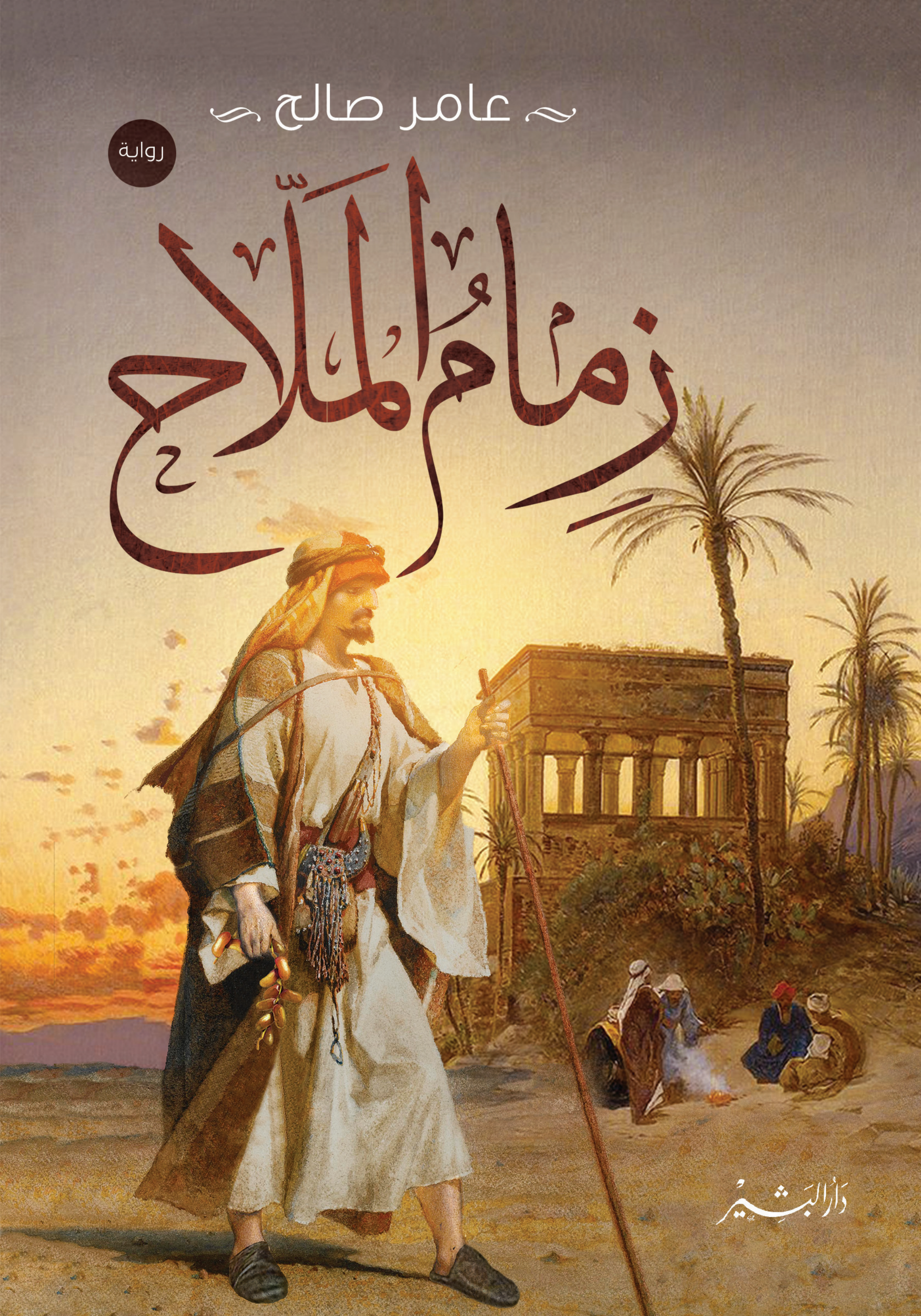
عامر صالح
رواية
زِمامُ المَلّاح
دار البشير

زمـــامُ المــــــلاح

الطبعة الأولى
1440 هـ
2018 م

اسم الكتاب: زمـــامُ المـــــلّاح
التأليف: عامر صالح
مراجعة تاريخية: ا.د/ عماد هلال شمس الدين
أشعار الرواية : نشوى الحسنين
موضوع الكتاب: رواية
عدد الصفحات: 296 صفحات
عدد الملازم: 18.5 ملزمة
مقاس الكتاب: 14x20
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 2018/20801
الترقيم الدولي: 978 - 977 - 278 - 715 - 9

جميع الحقوق محفوظة

دار البشير للثقافة والعلوم

elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

زمامُ الملاح

تأليف

عامر صالح

دار البشير للثقافة والعلوم

إهداء

إلى..

أمّي: تلكَ التي، وإنْ تخلّى عنّي العالمُ بأسره؛ ستظلّ هي جداري المنيع الذي لا ينهارُ أبدًا.

أبي: ماضيكَ يرسمُ مستقبلَنا، ومِن نبع حنانِك تسْقينا دونَ أن تبخلَ أو تملّ.

لأصْدقاء العمل: أحمد إبراهيم، صاحب ومدير كرياتيف بوك ستور، القائد والأخ الأكبر وائل جلال، وزمرة مِن خِيرة مَن عملتُ معهم؛ إيناس رجب، سلوى زكي، عبد العال سنهابي، عيد فيّاض، ملكة حسن.

لأصدقائي: أحمد أكرم، محمد عزّ الدين صاحب ومدير بيوند للنّشر، الأخ الأكبر زكي محمد.. والبقيّة لا تغيب أبدًا.

وأخيرًا: إهداءٌ لها؛ بحبرِ مشاعر صادقة، رسمتُك بين طيّات أوراقي، أحزنُ على ما ضاعَ من أيّامي دونَ أن أراك، أهدي لكِ زمامَ الملّاح.. يا مَن ملكْتِ زمامَ فؤادي.

المغرب، فاس، الخميس ٢٢ سبتمبر سنة ١٦٧٣م

مالت شمسُ الغروب مودّعة نهارًا تلاحمت فيه سحبُ أولى أيّام الرّبيع، الرعد يدوّي صوته من حينٍ لآخر لينذر بصيبٍ على وشك أنْ يغسل الأرض، أرخت الأشجار أغصانها، فاحتمت بها الطيور قبل أن يسود السكون أنحاءَ الكون، وما بين لحظة وأخرى يترنّم طائرٌ شريد بتراتيل تخطف الأنفاس لروعتها.

باحثة عن طعام يئدُ الجوع النابش في أعماقها، تمشي على مهلٍ بترقّب حذر، فتستنشق هواءًا صار مختلطًا بالبرودة رافعة أذنيها إلى أعلى في محاولةٍ منها لالتقاط أيّ صوت قد يشكّل لها تهديدًا، فتلك كانت حيلتها الأولى والأقوى للهرب من سهم صيّاد يبحث عن إطعام عائلته، أو خرج لمجرّد أن يشبع رغبة غريزية بداخله للقنص، لحظات حتى التقطت أنفها رائحةً ذكية فمالت لتلتقط بلسانها بضعَ حبّات عنب سقطت على الأرض، بعيونٍ مكتحلة رفعت وجهها حين تناهى إلى مسامعها ذلك الصّوتُ القادم من بين الأشجار لتجد عيونًا تحدق بها، همَّت بالفرار لكن السّهم كان أسرع منها فنشب في الجانب الأيمن من ضلوعها، انتفضت حتى سقطت على الأرض مُضرجةً بالدماء.

هُرع الملّاح إليها، أخرج سكينه، كانت روحُها تنازع للبقاء على قيد الحياة، تمتم ببضع كلمات قبل أن يذبحها، فصَلَ الرأس عن الجسد، وحملها على كتفه، نظرَ تجاه السّماء ليجد أنّ السحب قد تشكّلت بصورة أسرع من المتوقّع، الأمطار ستعود غزيرة بلا شكّ، الصيد سيكون كفيلًا لإقامة مأدبة طعامٍ بمجرد أن يعود أخوه، هكذا وعده بأنْ يفعل، فتسارعت خطاه ليصل إلى منزله الواقع خلف جبل «زلاغ» في مواجهة البحر ممتدًّا بجزءٍ كبير منه داخلَ الماء محاطًا بانبعاجات تتّخذ من الدوائر شكلًا لها لترتطم بها الأمواج ناثرةً رذاذها الذي ينعشُ مَن تتناثر عليه، بضع طرقات على الباب كانت كافيةً ليفتح له أيوب، عبدٌ أسود اشتروه صغيرًا، ذا قامة متوسّطة، عينان بهما بعض الاحمرار من أثرِ الملح، هكذا كان يخبرهم عندما كان يُسأل عن السبب، ألقى إليه بصيده، قبل أن يمسح عن وجهه قطراتِ دماء تناثرت عليه، استفسر منه قائلًا:

– أين سيدك؟

– كعادته في الداخل، ينتظر عودة سيدي يونس.

– لن يكتفي إلى أنْ تأتي السفينة.

قالها ملّاح قبل أن يردف قائلًا:

– حسنًا، اذهبْ يا أيوب وجهّز لنا بعضًا من الطعام.

– أمرك يا سيدي.

لم يشأ الملّاح أن يقطع خلوةَ أبيه فاقترب منه في هدوء كي لا يزعج العجوز الذي جلس أمام بحرٍ لجي عميق، يحوي أسماكًا تسبح، لا ترى طُعمًا قد ألقاه إليها صيّاد وحيد على فلوكة صغيرة يقتات منها، بينما تلتقط أذناه أصوات طيور النورس ترشد البحّارة إلى الطريق، وبعينين كلَّتا وصارتا ذاتَ ضعف راقبَ الفنار العتيق بأضوائه التي مازالت تلمع رغم موت حارسه لكنْ يقال إنّ روحه تعهّدت أن ترشد القادمين كي لا يتوهوا، تلك ليلة ارتبطت بموعدِ قدوم سفينة نابولى، هكذا أطلق عليها يونُس قبل أن يخبرهم بأنه راحلٌ على متْنها، فتزامن دخول الملّاح مع صوت تناهى إلى سمعه جعله ينهض مفزوعًا من فوق مقعده، وجد الملّاح واقفًا أمامه في هدوءٍ لا يرغب في إزعاجه، ابتسم له قبل أن يهرع وهو يقول:

«هلمّ لنلقى أخاك»

قالها دون أن ينتظر.

– كيف يعرف أبي بقدوم السفينة دون أن يراها؟!!

تساءل الملّاح في دهشة قبل أن ينادي على أبيه:

«انتظرني،فأنا قادم معك يا أبتِ»

المسافة إلى الميناء لم تكنْ طويلة، وبمجرد أن وصلوا كان صوتُ البحارة ينادي بأنْ يفرغ العمال بضائع المسافرين، سارت الأمورُ على خير ما يُرام، أو هكذا خيّل للجميع، هُرع الملّاح يعاون والدَه على السّير كي يلتقي الأخ الغائب منذ عام مضى، وصلوا لمهبط السّفينة، حينها انقلبت الأمورُ رأسًا

على عقب، وصل جنود السلطان إسماعيل، التمعت قلنسواتهم فضّيّة اللون، بملابسهم المزخرفة، وتلك السيوف المنقوشة عليها ألفاظٌ وآيات قرآنية، يدكّون الأرض بأقدام مدرعة بالحديد لتحدث صوتًا يوقظ الميتَ من نومه الأبدي، وقف الملّاحٍ مشدوهًا، بينما بدأ والده في ذكر الله مستنجدًا بأوليائه الصالحين وكلماته الحسنى، اعتلى الخوف وجوهَ الجميع،من بين صفوف الجند تقدّم شخصٌ متوسّط الطول، ذو وجهٍ بملامحَ غليظة، يميل إلى السّمرة، ولحية اختلطتْ فيها خصَلُ الشّعر الأبيض بالأسود منها فصارتْ رمادية، متقلّدًا غمدَ سيفه خلفَ ظهره، على عكس جنوده الذين وسّطوا أجسادَهم بأغمادِ سيوفهم، سار مختالًا بنفسه واثقًا من قوّته، سرتْ بين الجميع همهماتٌ كارهة إلّا أنّها مكتومة؛ لم تخرجْ عن وصفٍ واحد انْصبّ حول خيانته "زيان الخائن، زيان العامري أتى ليكمل خيانة أهله"، لم يلتفتْ لهم، فتح كتابًا قرأ منه قائلًا:

بأمر مولاي إسماعيل،

تقرّر رفع الضرائب على البضائع والمسافرين

بمقدار الضعف..

ثمّ نظر إلى جميع مَن التفّوا حوله منصتين له، وقال بنبرة تحذيرية:

العصا لَمن عصا والأمان لَمن نفّذ،

وتلك رسالة لا يقبل سلطاننا سوى أن تطاع»

سرتْ همهماتٌ بين الجميع، فتأهّب الجند واتخذوا حذرهم ملوّحين

بسيوفهم، احتقن وجه يونُس، لم يكنْ حاملًا لسلاح كي يُخرجه من غمده، تمنّى أنْ ينقضّ عليهم حتى لو بيديه عاريتين لينتزع حناجرهم، إلّا أنّ واحدًا آخرَ تكفّل بالأمر، وفي خفّة اندفع نحو أحدِ الحرّاس، دفعه بقدمه ملقيًا إيّاه في الماء، تشجّع الحاضرون، رفع المسلّحون منهم خناجرهم، بينما تسلح الباقون بما وجدوه متاحًا لهم، أحاطوا بجنود المولاي مقتربين منهم رويدًا رويدًا، مذبحةٌ على وشك أنْ تحدث، كادوا يفتكون بهم إلّا أنّ صوتًا صارخًا خرج من وسط الزحام «سيدي عبد الكريم، سيدي عبد الكريم».. عمّ الصمت، نظر الجميع نحو فارس ملثمٍ، اقترب بهدوء، كان أحدُ المقرّبين من قائدهم زيان فكانت له هيبة جعلتهم يفسحون له ليترجّل عن فرسه، توجّه نحو رجال إسماعيل، نظر بسخرية لذلك الرّجل الذى خرج مبتلًا من الماء، في غلظةٍ انترع رسالتهم، أعاد قراءتها بصوتٍ عالٍ، ثمّ نظرَ للرسول قائلًا:

- وهذا ردّ فاس عليكم.

مزّقها واضعًا إيّاها في فمِ كبيرهم بعد أن جذبَ عنه قلنسوته ليعرّي رأسه، في إشارةٍ رمزية لإلحاقه العار به وبسيّده، شعر الملّاح بالسعادة، وكذا كان أخوه يونس يشعُر، بينما خوف اعترى أباهما ليظهر مليًّا على وجهه في الطريق إلى دارهم.

إحدى واحات مصر الغربيّة، أربعينيّات القرن العشرين

انقلب المناخ كما لم يكنْ متوقعًا، تلك أيام الصيف الجافة القاحلة، لم يعتادوا على المطر إلّا في أضيق الأحوال، هُرع «صبّاغ» نحو حقله، إن لم يكنْ يريد للماء أن يجرف محصوله فعليه أن يفتح قناةً له يصرفها عبره، منذ أن رأى تلك الرؤيا ونهضَ مفزوعًا ليغتسل متوجّهًا إلى المسجد، صلّى الفجر ثمّ اقترب من الإمام، قصّ له ما رآه من سيلٍ سوف يكون شديدًا..

تلك أحلامٌ لا تفسير لها يا صبّاغ، اذهب فالمطر لا يأتي في تلك الأيام، وإنْ أتى فبضع زخّات لا تسقي أرضًا.

عاد صبّاغ، لكنّه لم يكن قد اقتنع، فلم تكن تمرّ السّاعة وتشرق الشمس حتّى رآه الناس يقيم جسرًا وكأنّه يحاول أنْ يحمي أرضه من شيء لا يدرون عنه شيئًا، اندهشوا وضحكوا وتندّروا، ثمّ استهزءوا لكنّه ظلّ مقتنعًا بأنّ المطر سيأتي مغيرًا حال المكان، أيّام قليلة لم تتعدّ أصابع اليدِ الواحدة حتّى أرعدت السّماء وأبرقت لتشقّ بأمطارها أرضًا قد خلتْ منها منذ فترة طويلة، أخرج فأسَه، شمّر عن ساعديه، ظلّ محاولًا وأد أيّ جزء يتهدّم، حتّى اصطدم رأس الفأس بتلك القطعة من الأرض، لم تكنْ تتعدّى حجارة قد دُفنت، هكذا ظنّ إلّا أن فضولًا تسرّب إلى نفسه، نحّى فأسه عن الضرب، وبدأ في الحفر

مستخدمًا يديه، ساعة من المجهود الشّاق، حتّى أخرج جرّة كانت مدفونة، تهلّل حين رآها فمازالت كلمات جدّه عن تلك الجرار المملوءة بالذّهب ترنّ في أذنيه، هُرع بها غير مبالٍ بالمطر، دخل إلى منزله وقدْ غطّاه الطين فلم يهتمّ بأن ينظّف نفسه، أشعل شمعة ليستعين بضوئها فالنّهار السّاطع من برق السماء ينير المكان فقط لثوانٍ معدودة، ثمّ يغادرها لتكتحل مجددًا بسواد عتمة الليل، أزال ذلك الخيش المغطّي لفوهتها، مدّ يده في قلق وتوتّر، تحسّس الموجود فيها، لفائف ورقية التصقت في جدار الجرّة، حاول أن يزيلها بهدوء كي لا تتمزّق، حتمًا هناك ما هو أثمن، ظلّت يده تعبث لكنّها لم تصل إلى أكثر من ذلك، أصيب بالإحباط، تذكّر أرضه الواقعة تحت رحمة المطر، هُرع إليها، ستغرقها الماء حتمًا، وسيكون أضحوكةً لأهل الواحة، فقد عرف أنّ هناك سيلًا ومطرًا، لكنّ أرضه لم تنجُ، أي مخبول أسوأ من ذلك.

القاهرة، ١٩٤٧

قطيراتٌ من الندي تحاول جاهدةً أن تشكّل ستارة رمادية من المطر، وغمام بدأت تزداد حدّة اشتباكه تدريجيًّا، وقف الرّجل ينظر نحو السماء، يستطلع تلك الأجواء، بينما كان فمُه يلوك بضع لقيمات ناظرًا تجاه تلك الفرشة الخاصة به، والتي تحوي الكثيرَ من الكتب والمجلّات القديمة، لم يكنْ قد أمضى أكثر من ثلاث ساعات منذ أنْ حضر، الحركة قليلة والناس يتأهّبون للجوّ المتقلب باستمرار؛ لذا كان الرزقُ شحيحًا إلى درجةٍ جعلته يفكّر في أن يعود إلى منزله مبكّرًا، إلّا أنّ الظروف قد أرغمته على ذلك، فالمطرُ على وشك أنْ يهطل، همّ بجمع بضاعته التي قد تتلفُ إذا طالتها المياه، ألقى بالقطعة الأخيرة من الخبز لتكون طعامًا لقطّ كان يختبئ تحت الشجرة تحسّبًا لما هو قادم، اقترب منها مستكشفًا إيّاها، اشتمّ رائحتها شرع في أن يقضمَ منها، توقّف للحظات ليراقب الطريقَ في حذر، فقد أخافه منظرُ الرجل القادم من بعيدٍ مهرولًا نحو بائع الكتب..

- هل انتهى يومك؟

قالها القادم، ومازالت يداه متشبثتيْن بدفء المعطف، بينما أنفاسُه تتلاحق متسارعةً لتشكّل سحابة صغيرة من بخار ماء جسده، نظرَ له البائع مندهشًا، ثمّ استسلم لابتسامةٍ خرجت من فمه، وقال:

- يبدو أنّ اليوم لم ينتهِ بعد.

ما إنْ قالها حتّى تبادلا ابتسامة بسيطة:

- دبّرت لك تلك النقود، أتكفي؟

ثمّ أخرج بضع ورقِ نقدي، ووضعها أمام البائع، وأردف قائلًا:

- جمعتها بالأمس.

وقال راجيًا:

- صدقًا لا أملك غيرها.

للحظاتٍ نظر البائع تجاه النقود، عاود النّظر عاليًا نحو السّماء التي بدأت تسقط بعضًا من مائها، تذكّر أنّ عليه أنْ يغادر؛ فأومأ برأسه موافقًا، ثمّ قال:

- لا تكفي، لكنْ على بركة الله.

سعادةٌ غمرت وجهَ الرجل، التمعتْ عيناه بمجرّد أن تمّت الصفقة بنجاح، بينما شرع البائع في جمْع بضاعته على عجل خوفًا عليها ليبتعد الشّاري حاملًا صيدَه الثمين؛ كتب مهترئة قديمة، مجلّات تحمل عناوين مختلفة، وقد اصْفرّت بعض الشيء، كاد ينسى نفسَه ليقلب فيها سارحًا بخياله بين كلماتها، لكنّ البائع أشار بيده نحو الأعلى ليفهم الرجل أنّ عليه أنْ يغادر الآن كي

يحافظ على هذا الكنز الذي لا يقدّر بمال، فتح معطفه واحتضنَ غنيمته في حنانٍ مُفرط، ثمّ أغلق المعطف ليحافظ عليها، القاهرة في تلك الفترة من العام كانت تتعرّض للمطر بصورةٍ غزيرة، أربعينيات القرن الفائت جعلت من الصورة رمادية محببة إلى النّفس، وتلك المقاهي التي تنتشر لتأوي بداخلها الباحثين عن الدفء، سار بضعَ خطوات، الماء بدأ ينهال على رأسه، لا يهمّ؛ فالكتب سليمة لم تتأثّر، نظر تجاه أحد المقاهي التي ظهر من خلف زجاجها فتاةٌ تبكي أمام شابّ متأنّق يحاول أن يمسح دموعَها بمنديل أخرجه من جيبه، عبثَ الرجل في جيبه، لم يكنْ معه ما يكفي لاحتساء شيء ساخن يدفئ أوصاله، تردّد قبل أن يهمّ بالمغادرة باحثًا عن ملجأ له، وما أنْ همّ بالتحرّك حتّى شعر بيدٍ تمسك به لتأخذه إلى الداخل، نظر إلى ذلك الشخص الذي ظهر فجأة، عجوز طويل القامة، له بطنٌ مترهّلة بعض الشيء، ذا عينان تحملان زرقة بحر ارْتحل عبر أمواجه للقاهرة، ويدان مليئتان بشعرٍ كثّ أشقر اللون كشاربه، لم يكنْ يرتدي ملابس ثقيلة فالأجواء كانت مثاليةً له ليتريّض قليلًا، محاولًا أن يُخرج نفسَه من الروتين اليومي المعتاد للعمل في النظارة، هكذا قال بلغةٍ إنجليزية ذات لكْنَةٍ بريطانية قوية في مخارج حروفها عندما سأله أبو الحسن عن سببِ خروجه في مثل هذا الطقس السيئ ليعاجله أبو الحسن مجددًا:

- أليس مِن المفاجئ أن ألتقي بك هنا؟!

ابتسم الرجل، ظهرت في عينيه ملامح المكرِ جليّة واضحة، وحاول أن يدير دفّة الحوار فأشار للنادل بالحضور قبل أن ينظر مجدّدًا نحو أبي الحسن قائلًا:

- تفضّل أن تشرب الشاي طبعًا؟

فردّ عليه مبتسمًا، وقد فهم ما يرنو إليه:

- مشروبُ الإنجليز المفضّل صار مشروبي أيضًا، علاوة على أنه يناسب هذه الأجواء الباردة.

قشتالة ١٦٧٢:

اخترق بجسده الضئيل زحامًا قد تجمّع أفرادُه ليروا بأعينهم ما يحدث، اعتلى الدخان سماءَ المكان، صوت الصرخات قد بدأت في الظّهور، واللحم المحترق أزكمت رائحتُه الأنوف، ساد الهرج والمرجُ حتّى اكتمل اشتعالُ الجسد واحتراقه ليترك جثمانًا لرجل قد مات متفحّماً، حينها صرخ الصبي بأعلى صوته، لا يدري ما انتابه، لقد حذّرته أمّه أن يصرخ، لكنه فعل، لم يحتمل أن يرى جارَهم وقد اسودّ وجهه وتآكل اللحمُ عن جسده، التفّ حوله بعض العامّة من أراذل القوم ومتعصّبيهم لتلك الديانة التي لم يرى منها شيئًا مميزًا سوى تلك العلامات الأربع الملتحمة ببعضها البعض، حملوه إلى منزله مغشيًّا عليه، كان هو دليلَهم المرتعد، بمجرّد أن وصل حتّى طرق بضعَ طرقات، فتحت له أمّه فتطفّل أحدُ الرّعاع ممّن أوصلوه وقد ملأ الشك قلبه حول فزع الصبي، أزاح البابَ بقدمه وبسلطةِ صليبه دفع المرأة إلى الخلف ليبدأ بنفسه التفتيش عن شيء شكّ في وجوده، لحظات من الألم و الارتعاد حتّى كانت تلك الطامّة الكبرى؛ فقد عثر الباحثُ عن حاجته، مسواكًا أهمل أهلُ البيت إخفاءه، رفعه إلى أعلى كدليلٍ على ارتكاب خيانة عظمى في زمنٍ لا تراجع فيه عن الحرق، حاولت المرأة أن تنقضّ عليه لتكتم أنفاسه عن

نداء الواقفين بالخارج، لكنّه كان أقوى وأضخم منها، أزاحها مناديًا رعاعَه، ليكون الانتقام بشعًا كما كانت عادتهم.

رقدَ مختبئًا في حفرةٍ قد ملئت بالغائط، ازدادَ سواد جسده بها، لكنّ حياته تستحقّ منه أن يفعل أكثر من ذلك، وصلت إليه أصوات تلك الصرخات المستغيثة المتألمة، رفع رأسه قليلاً، حاول أن يرى المشهد أكثر، امرأة يتقاذفها الناس فيما بينهم، مزّقوا ملابسها وسط محاولاتٍ مستميتة منها لتستر عورتها، نتفوا لها شعر رأسِها فنزف الدمُ منها، أمسكها ثلاثة منها، ثبّتوها على الأرض، بال أحدُهم على وجهها، وتناوب الباقون اغتصابها، لم تعدْ تشعر بالألم فحملقت في الفراغ تناجي ربّها، بينما الطفل بين أيديهم يبكي، لم يرحموا صغرَه، كان جزاؤه كجزاء أمّه أو أشدّ قسوة فقد داسوا رأسه، لفّوا حبلاً حول عنقه، جرّوه جرًّا وجعلوه ينبح ككلب، وهروات تحطّم عظام جسده، ارتجف المختبئ لذلك المنظر، كتم أنفاسه خشية أن يصلوا إليه، أن تكون ذا بشرة سوداء في مجتمعٍ يقتل الغريب تعذيبًا، سيكون لك مصيرٌ واحد لن يختلف، شاهدهم وقد تناثروا حولهم كما الضّباع على الضحية، مارسوا أشدّ أنوع الإذلال والعنف، وبعد أن فرغوا كانت قد تحوّلت لامرأة ميّتة حيّة، وطفل قد فقد بصرَه، بل وروحَه، وحُطّمت عظام جسده، حُملوا على حمير منتوفة الشعر في اتّجاه الساحة، انتهز الرجل فرصة انشغالهم، نهضَ من تلك

الوساخات التي كان يحتمي بها، لم يكنْ هناك وقتٌ لأنْ ينظف نفسه، هُرع تجاه الميناء سيحاول أن يصل لكي يصعدَ خُفية على متن أي سفينة راحلة، وإنْ لم يستطع فالقفزُ في الماء والسباحة حتّى الغرق لتكون تلك هي أهونَ الطرق للوصول إلى موتٍ لا تعذيب فيه، ورغم رعبه لكنّه لم يقوَ أن يقاوم رغبته في أنْ يشاهدهم وقد وصلوا بهم إلى الساحة، جثمان جارهم وسيده مازال بعْدُ لم يتمّ نزعه، أُلصقوا به، قُيّدوا وتمّ الإحراق، كان الموت أهون لهم، حدّث نفسه بأنّ هناك جنة ربما تكون في انتظارهم.

صعيد مصر - فرشوط - ١٦٧٠

مختار السّويلم، ينتمي لقبيلة لم يكنْ لها من شأنٍ كي تجبر أحدًا على احترامهم، أو أن يتقلدوا حكم زمام أو حتّى نجع، سكنوا الجبل، ينتهي نسبهم لجدّ يدعى الأشعث، كان ابنًا لسليم، والذي كان أكبر رأس في القبيلة، حين تولّاها رتّب لنقل أهله من البداوة ليستقرّوا بعد أن كانوا ضحيةَ تيهٍ لا ينتهي، تقرّب لوالي القلعة، أدّى له بضعَ خدمات وعددًا من الرشاوي كانت أشهرها بضعَ جاريات حبشيّات، ذلك النوع الذي علم أنّ الوالي يعشقهن، أوصاهنّ بأن يستوصوا به خيرًا حتّى لو وصل الأمرُ إلى جلده كما أشيعَ عنه، فكُتب له ورُسم بأنْ يكون أميرًا على بعض النّجوع والقرى في فرشوط، السببُ واضح وبسيط، تلك النواحي تسبّب الكثير من القلق والاضطراب للولاة في مقرّ الحكم بالقاهرة حتّى إنّها أحيانًا تكون سببًا في منع وصول محاصيل الصعيد لمخازن القلعة.

عشرُ سنين مرّت، الخير يعمّ على الجميع، اعتادَ الفلّاحون على طاعة سليم، تقرّب لهم وتزوّج منهم، دولة على وشك أنْ تنشأ، قد يفكّر في الاسْتقلال إذا شعرَ برغبة في أنْ ينادي بلفظ ملك، كثيرون مِن قبله فعلوا ذلك، ورغم أنّ النهاية لا تكون في صالحهم، لكنّ الأمر يستحقّ المغامرة، متى سيفعل؟ لا يعلم. لكنّه سوف يقوم بذلك حتّى لو ليومٍ واحد قبل وفاته، وإلى أنْ

يحين ذلك فعليه أنْ يتقن- وبشدّة- دورَ الخادم المطيع، فأنشأ قوةً عسكرية وجعلها في خدمة الوالي دائماً وفي أيّ وقت، وحيد لا يملك من الأبناء حتّى واحدًا، ماؤه يأتي متأخّرًا عن ماء أيّ امرأة عاشرها فينجب الإناث دائماً، بلغ السّتين من العمر، وبفضل تلك العزوة التي التفتَ حوله دائماً، وكانت سندًا له لم يفقدْ أبدًا هيبته، ولم يجرؤ أحدٌ على أن يخرج عليه، وأيضًا بسبب تلك الخدمات المختلفة التي كان يؤدّيها لولاة القلعة المتعاقبين.

أحداثُ الزمن تغير على الساكنين في أمنٍ وهدوء، فيحلّ القدر عليهم ضيفًا ليغيّر حياة البعض ممّن قد استكانوا للحياة، جارية رومية أهداها تاجرُ جِمال سوداني لسليم الذي أنقذه مرارًا وأمدّ له يدَ الأمن في دروب الصحراء الموحشة، نظر لها العجوز، سهم غرسَ نصلَه في قلبه فشعر تجاهها بالحبّ، آوى إليها، عاشرها، النتيجة كانت حملاً من الليلة الأولى، العجوز مازال يتمتع بالقوّة، هكذا تندّر البعض سرًّا عليه، سبعة شهور كانت كافية لأنْ تنجب ولدًا، أطلّ عليهم بوجهٍ قريب الشّبه من أبيه، بشرة حنطية، أمّا عيناه فزرقاوان كأمّه، وبكاء حارّ جعل أباه يبكي فرحًا، هدية من السّماء لصبر طال أمده، لازم سليم جاريته التي أتتْ له بالولد، ومع مرورِ الزمن وكلّما توالت الخطوب كان يهرع إليها، ليجدَ سلواه بصحبتها مع ولده الذي كان يكبر يومًا بعد يوم.

هل كان البحرُ دائمًا بهذا الهدوء، أمْ أنّ عاصفة قادمة في الطريق لتغير الحال فتضلّ سفن البحارة عن الوصول إلى الميناء، «الأزدية» بعض مِن البدو المرتحلين، وكبيرهم حكيم، الطّريق إلى الجبل أصبح قابَ قوسين أو أدنى من الخروج عن السّيطرة، فقد أغار حكيم الأزدي على القوافل، أراد أن يبعثَ برسالة أنّه قادر على أن يحلّ محلّ السّوالم، الشبل على وشك أنْ يمتطي ظهر أسدٍ عجوز، الحرب على وشكِ أن تشتعل، ذلك الطفلُ الصّغير مختار صار شابًّا فتيًّا قاربت سنين عمره من السابعة عشرة وقتَ طويل منذ أنْ رآه والده طفلًا، تغيّرت نبرة صوته ومالت إلى الخشونة، ورثَ عن أبيه تلك الحكمة في إدارة الأمور، لكنّ أمّه كانت سببًا أساسيًّا في ميْله أحيانًا نحو التّهور، تريده ملكًا، بل تريده أنْ يذهب بها ملكة على القاهرة، أبدًا لم تشعرْ بأمان حتّى وقت السّلم، جارية مرّت بها مصايب الدّهر كسهام تمزق فيها لكنّها تأبى أن تستلم، الطّامعون في الحكم وخلافة سليم كُثر، على الولدِ الصغير أن يثبت نفسَه بسرعة وإلّا داسته سنابك الخيل وطواه الزمن، تخشى عليه أن يكون عبدًا، أشرفت بنفسِها خلسةً على حمله للسيف، زرعت بداخله شهوةَ الحكم، إذا اشتهيت شيئًا يجب أن تصل إليه، حتّى صار ذا مِراس وقوّة وبأس فحلّ دومًا في مقدّمة أي قوة تخرج حتّى لو كانت لمجرد تأديب قاطع طريق صغير، لكنّ حكيمًا لم يرغبْ سوى أن يعيدَ الكرَّة ثانية، فكّر في أن ينحتَ نفسه تمثالًا كما فعلها سليم قديمًا فغزا القلعة بالرّشاوي، وأصبح

أكبر المناوئين لسليم، فترك الوالي ذلك الأمر معلقًا، على الأقوى أنْ يثبت أنه أجدر بالبقاء في مكانته إنْ مات كبيرُ السوالم دون أن يثبت المختارُ أنه قادرٌ على أن يفعل ما كان يقوم به أبوه، فقد يؤول الملك إلى الفناء بل وستكون حياةُ القبيلة في خطرٍ محتدم وأسْرٍ قدْ يدهمها بين لحظة وأخرى.

مدينة فاس ٢٧ سبتمبر سنة ١٦٧٣م

بشرةٌ حنطية، وجهٌ مستدير بعينين قدْ مالتا للّون الأسود الفاحم، طول متوسط ذا بنيان متين زيّنته ملابسُ الحرب، فأضافت له هيبةً وقوّة لم تكنْ تنقصه، واقفًا وسط رجاله، يهابون جانبه، يخشون عقابَه، صغير في السّن فلم يكنْ يتعدّى عامَه الثامن والعشرين، الأوضاع السياسية لم تستقرّ بعدُ للأمير الصغير، هكذا كان لقبُه قبل أن يظفر بكرسي السلطان فيصبح هو المولاي الجديد، فتخرج الحركاتُ المناوئة له، لن يقف أحدٌ في وجهه، هكذا أقسم وتوعّد، حتّى كانت فاس أولى أمنياته ليقفز فوق جواده ممتطيًا ظهره، اهتزّت الأرض من تحت أقدام جنوده، تبعَه خاصّته من رجاله المقربين له، ارتقى ربوة مرتفعة ليرى جانبًا مِن أسوارها على مرمى البصر يتوسّطها أحدُ أبوابها وهو باب الكيسة، أيقن أنّ إحكام السيطرة على المغرب بأكلمه لن يأتي قبل أن يُخضع فاس العنيدة بموقعها الاستراتيجي الذى جعلها تصمد أمام الحصارات المتتالية عبر التاريخ فاشتهرت بروح مُقاوِمة عنيفة، وساعدها على ذلك التلال والربْوات، التي أحاطت بها من كلّ الجهات، وماؤها الغزير من عدوات نهر فاس التي حفرها مسيلًا له طريقًا عبْرها، لم يكنْ ينقصه فقط سوى ذريعة ليحشد جيشه الجرّار نحوها، فأتت له على طبق من فضة حين كان مجتمعًا برجاله فى مراكش عاصمته التي انتقاها لحكمه بدلًا من مكناس،

دخل عليه رسوله إلى فاس، برأس عارٍ، وعيناه قد ظهر فيهما مهانة قد تعرّض لها، قصّ له ما حدث ليردّ عليه ساخرًا:

- وما بالهم يسارعون نحو الموت بسيفي؟

التفتَ نحو رجاله، وأردف بذات السخرية:

- الفأر الغضبان من سَعْد القط.

ثمّ أصدر الأمر السلطاني المجيد بأنْ تُحشد آلات الحرب برجالاتها، فدُقّ الناقوس الذي طالما تاقَ إليه، حتّى كان على رأس الجيش موجهًا مساعدَه من فوق تلك الربوة، قائلًا:

- لنْ نهاجمها دفعة واحدة، وإلّا خسرنا أكثر الجند، وربما نُهزم.

أومأ له مؤيّدًا لرأي مولاه، قبل أنْ يأتي صوت مناديًا في لهفة:

- مولاي إسماعيل، مولاي إسماعيل.

التفت ليرى القادم، كان فارسًا ذا ملابس قد تعفّرت، بوجه مغطّى بالسّواد واضعها فوق خوذته بعضًا من الحشائش للتمويه وقت الاختفاء، بمجرّد أن اقترب حتّى نزل من على فرسه، انحنى تحيةً لمولاه، قال بصوت متقطّع:

- المدينة متحصّنة، يبدو أنّ أخبار الغزو وصلت إليهم.

قطَّب إسماعيل جبينه، نظرَ تجاه المدينة، وقال للفارس:

- حسنًا، ابقوا كما أنتم.

حوَل نظره تجاه رجلٍ آخر من رجاله قائلًا:

- جهّز أدوات الحصار، واحرص على إخفائها.

ونظرَ لآخر قائلًا:

- أمّا أنت، فعليك أنْ تقطع طريق الخروج والدخول.

التفت مجدّدًا إلى الفارس الذي وقف منتظرًا أوامرَ سيّده:

- هاجم مَن تراه خارج السور، حتمًا ستكون هناك دوريّات استطلاع، لا أريد لقدمٍ أن تخطو خارج أبوابهم دون أن تُقطع.

وبشراسةٍ أردف قائلًا:

- أشيعوا الرّعب بينهم.

- أمرك يا سيدي.

قالها الفارس، ثمّ انطلق لينفّذ مهمّته المهمّة التي كلف بها مولاه إسماعيل الذي كان يرنو إلى إحْكام السّيطرة مجددًا على فاس بعد أن قتلت زيان العامري واليه عليها، وبايعت ابنَ أخيه أحمد بن محرز الثّائر في مراكش.

وعلى بُعد ثلاثة أميال أو تزيد قليلًا، انفتح باب «بوجلود» ليخرج يونس منه على فرسةٍ مصطحبًا معه خادمه أيوب، طبول الحرب على وشكِ أن تُقرع، وهناك جيشٌ على مدّ البصر قادم ليغزو المدينة، كلّفه أحمد بن محرز قائد التمرّد الذي أعلنته مدينتهم بأنْ يكون عينًا له تراقب الطريق لاتّقاء شرّ جنود مولاي إسماعيل الذين ذاع صيتهم بالقدرة على التخفّي على أيّ شكلٍ كان حتّى لو كانت أشجارًا لا تتحرّك. توسّطت شمس الظهيرة كبدَ السّماء في يوم ابتعدت فيها السحب دون تشابك لتتيح أمامَ الشمس فرصةً للظهور، انهالَ العرق من أسفل عمامة يونس البيضاء التي التفّت لتحيط بقلنسوة فضيّة اللون يظهر رأسها لامعًا مع انعكاس ضوْء النهار عليها، لاحظ أيوب الإرهاقَ الذي ظهر على سيده فمدّ له بعضًا من الماء:

- اشربْ يا سيدي، فاليوم حارّ على غير المعتاد.

نظر له يونس بعينين لم تفارقا الطريق، رفع الماء على شفتيه، وما كاد يفرغ منه حتّى صهل جوادُه من أثر الخوف، التفت إلى أيوب لتتجمّد عيناه على سهم قد اخترق صدر خادمه، بينما عيناه تغلقان في ألم لا يحتمل، سقط أيوب جثمانًا هامدًا على الأرض لا يتحرّك، علتْ أصوات جلبةٍ قادمة من خلف التلّة، جنود مولاي إسماعيل ظهروا من العدم، برزوا من بين آجام وصخور لم يكن يتصوّر يونس أنّها قد تصلح كمخبأ لهم، صبغوا وجوههم بلون أسود تمازج مع اللّون الأسمر لبشرتهم ليزيد لأشكالهم وحشة، حاول يونس أنْ يلوذ بالفرار لكنّ فرسه تعثرت، وأحجلت، فضغط على لجامها فاعتدلت

ليشقّ بها طريق العودة تلاحقه سهامُ الموت، تحاول أن تخترقَ جسده دون جدوى إلّا من سهم نشب في فخذه الأيمن، تألّم بشدّة لكنّه واصل طريقَ الفرار بدماء تنزف بغزارة.

انفتح البابُ مجدّدًا ليدخل يونس وسط صيحاتٍ من الجند بأن يتأهّبوا؛ فالهجوم أصبح وشيكًا، حاولوا أن يحملوه تخفيفًا من ألمه، وقف الملّاح في صفوف المدافعين، وما إنْ رآه حتّى هُرع له، حمله على كتفه وتوجّه به إلى خيمة التطبيب، لم يكونوا ذوي مهارة لمداواته، لعنهم ثمّ سار به تجاه المنزل حاملًا إيّاه، صعق أبوه من المنظر لقد غطّت دماء فخذه كاملَ جسده، أسرع الملّاح ليحضر طبيبًا، تساءل عن أيوب لماذا لم يحضر، لكنّ تساؤله لم يدمْ طويلًا، فقد كان أبوه قد سأل يونس عنه فأخبره بأنّه قد مات، حضر الطبيب حاملًا أدواته، دقائق أمضاها في فحصِ الجرح ليقول بعدها:

اخترق السّهمُ اللّحم، توغّل حتّى وصل إلى عظام الفخذ، أخاف أن يكون قد طالَ النخاع، وقد يسبّب ذلك له نزفًا وحمّى.

- والعلاج؟

تساءل والده في هلعٍ، فردّ عليه الطبيب، وقد ظهرت على وجهه علامات القلق:

- ليس أمامنا سوى أنْ نلجأ إلى الكي، فتلك الحالات من الجروح للأسف لا يعيش صاحبُها طويلًا دون أن تبتر ساقه.

ما إنْ قالها الطبيب حتّى طلب منه الوالد أن يفعل ذلك سريعًا فقد يكون في الأمر شفاء مؤقت.

بكى والدهم، كاد يسقط، شعر بدُوار، عادَ للتماسك، أسنده الملّاح، سار به إلى مهْجعه، أمرَ الخادمة أن تظلّ بجواره بينما يساعد الطبيب في كيّ الجرح.

ويظلّ الانتظار باقيًا كطقسٍ أرهق الواقعين تحت رحمته، لكنْ لا مفرّ منه أبدًا، سبعة أيام مرّت على عودة يونس مجروحًا، كواهُ الطبيب وأصابته الحمى، فكان يهلوس أحيانًا بكلماتٍ لا ترابط بينها، أمّا المدينة فصارت على شفا حفرةٍ من الجنون، طوّقها مولاي إسماعيل بجنوده، فرض عليها حصارًا وسط غاراتٍ متفرقة.

بلغت القلوب الحناجر، لم يعد أمامهم سوى أنْ يستسلموا، ثلاثة أيّام كانت كفيلةً لتوقع معاهدة بين الطرفين، لكنّ العقاب الرّادع رآه إسماعيل أمرًا ضروريًّا؛ فعيّن على فاس أحدَ القادة الذي أساء معاملة أهلها ونهبهم واضطهدّ كلّ مَن شارك في التمرّد خاصّة مَن كان به أثرُ جرح، سرتِ الأخبار بأنّ جنودَ إسماعيل يبحثون عن كلّ مصابٍ ليقتلوه، ليكون عبرةً لَمن يفكّر في الثورة مجدّدًا، دخل الملّاح وقد أغلق من خلفِه بابَ الدار، بحثَ عن والده،

وجدَه يخفّف عن أخيه الذي أصيب بغمّة حين لم يكنْ في مقدوره أن يقاومَ مع الثائرين.

- يجب أن تترك المدينة.

قالها الملّاح بمجرّد أن دخل فنظر له والده وأخيه متسائلين عن السبب:

- جنود إسماعيل يبحثون عن أي جريح.

حاول أن يلتقط أنفاسَه قبل أن يكمل قائلًا:

- الموت أصبح محدقًا بنا من كلّ جانب، ولو علموا بوجودك هنا سيقتصّون منّا جميعًا.

خيبةُ أمل بدتْ على وجْه يونس فأصيب بالفالج من الألم، حتّى حاول أبوه أن يخفّف عنه ليقول بعدها متصنعًا الهدوء:

- إذًا، لتخرج مع أخيك، الطريق نحو الجنوب لن يستغرقَ طويلًا قبل أن تجدوا إحدى تلك القوافل المتّجهة إلى الشرق، تذهبون إلى مصر.

سعَلَ قليلًا قبل أن يتماسك مكملًا حديثَه:

- تحصلون على بعض البضائع كالتوابل وغيرها، تتّجهون بها نحو الحجاز، تحجّون بيت الله الحرام، وتبيعونها لتعودوا بربح يساعدكم على الاستقرار في مصر حتى تخالطوا أهلها، وتذوبون فيهم.

صاح يونس معترضًا وهمّ أن يتحدّث إلّا أنّ أباه أكمل قائلًا:

- ذلك أمرٌ لا يقبل النقاش، أمّا أنا فسوف ألحق بكم لكنْ ليس الآن، سأحاول أنْ أجمع بعضًا من أموالنا لن نتركها بالكامل هنا.

غادرهم عائدًا إلى غرفته، بينما كانوا على ثقةٍ بأنّ العجوز لا يبحث عن المال وجمعه، بل لا يستطيع أن يترك المنزل أبدًا فقد يموتُ قهرًا، قضى حياته في فاس، تزوّج وعاش وتاجرَ بها، وآخر أمانيه أنْ يدفن في قبره بجوار زوجته وتحت قدمي أبيه وأمّه.

لم يعدْ لنا بقاء هنا يا يونس، الأمر خرج عن السيطرة، يجب أن نغادر.

لنْ يفلح الهروب ولن يفيد، أيّام صعبة وتمرّ، يجب عينا أن نتحملها.

لم ترَ ما فعله الجند بمَن وجدوه.

ثمّ في أسى قال:

- كنت ستشعر بالقهر وهُم يلقون القبض على بعض الثائرين مكبّلين بالحديد من أقدامهم.

- أعلم أنك لست بجبان، وأنك تبحث عن النّجاة لنا جميعًا، لكنّني باقٍ هنا، لن أترك المدينة، أفضّل الموت فيها على أنْ أدفن في أرض غريبة عني.

انفعل الملّاح، تبدّلت ملامحه وهو يقول في غضب:

- يبحثون عنك وعن أمثالك، إنِ اكتشفوا جرحك سوف يدقّون أعناقنا جميعًا، يجب عليك أن تفهم.

وبانفعال تزايد فتطاير اللعاب على إثره، أردف قائلًا:

- لم أُخلق لأكون مأمورًا، أو أموت أو حتى أدجن، إنْ أردت أن تهلك فابقَ.

صمت يونس، وقد أصابته كلمات أخيه بالخوف، شعرَ بالاقتناع لكنّ شيئًا في قلبه يخبره بأن يبقى متمسكًا بهذا المنزل وتلك الأرض التي نبت عليها.

- سيدي، سيدي........

جاء الصوت ملتاعًا، الخادمة تهرع في هلع، قالت وهي تذرف بالدمع:

- سيدي لا يتحرك.

هُرع الملّاح نحو أبيه، وجدَه ساقطًا على وجهه وقد تمزّق الخيط الذي يخيط روحه بجسده بالسّماء فانفرطا، تناسى يونس أوجاعه وتحامل على ألمه، وما إنْ وصل حتّى وجد أخاه منكفئًا على جسد والده، يحاول أن يوقظه، لم يكنْ أبدًا قد بلغ به اليقين أنّ أباه قد مات، تماسك يونس قليلًا، حاول أن يبعد الملّاح عن الجثمان، حين يأتي الموت على غفلةٍ يجب أن يجدَ أمامه بعضًا

من العقل كي لا يكتسحَ الأخضر واليابس، وقد كان يونس هو ذلك العقل الذي تصدّى.

لم يعدْ أمامنا سوى أن نرحل.

قالها الملّاح بحزنٍ بعد أن واروا جسد أبيهم الثرى.

مجدّدًا قاوم يونس رغبةَ أخيه وقرار أبيه المتوفّى:

لكنّنا لم نعرف طوال حياتنا مكانًا آخر نذهب إليه، كيف سنذهب إلى أرض لم نرها من قبل؟

أرضُ الله واسعة، وكما قال والدك نذهبُ إلى مصر، نمكث قليلًا ثمّ نحوّل الدفّة إلى الحجاز، ونحاول أن نبدأ من جديد.

لكنك ترى بنفسك أنّ ألم قدمي يشتدّ ولا ينفد، اذهب وحدك يا ملّاح، سأكون عائقًا أمامك.

لا سفر بدونك، تلك وصية أبيك إنْ كنت تتذكّر.

طأطأ يونس رأسه، صمتَ وهو يعلم أنّ بقاءه موتٌ له ولأخيه، اتّجه إلى كرسي أبيه المواجه للبحر، جلس عليه وهو ينظر نحو الملّاح، وعيناه ممتلئتان بالدّموع، فيحاول أن يتذكّر أيامه التي مضت، وكيف كانت تجارتهم مستقرّة، حين سافر قاصدًا نابولي لأوّل مرّة، والصّفقات التجارية التي عقدها هناك،

أحوال التجارة متبدّلة كالدنيا، وألعاب السّياسة تعصف بالجميع في طريقها، لم يتمالك نفسَه من البكاء حتّى ظهر الإعياء على وجهه، حاول الملّاح أن يخفّف عنه، مرغبًا إيّاه في السّفر..

قد يروق لنا الوضع في الحجاز.

ثمّ قال محاولًا أن يمزح معه:

- وعندما تموت ستُدفن هناك ليكون طريقك مختصرًا إلى الجنة.

ابتسم يونس، وهزّ رأسه قائلًا:

- حسنًا.

لم يكنْ يقوى على السّير، فساعده الملّاح على أنْ يدلف نحو غرفته كي يستريح قليلًا، يعرف في قرارة نفسه أنّ الرحلة تصعبُ على أخيه المريض، لكنّه شيء لا بدّ منه؛ فقد استشرى الظلم، ولم يكد ينتهي اليوم حتّى كان القبض مجددًا على بعض قادة زيان وقتلهم، بل وصدر مرسومٌ بزيادة الضرائب المفروضة على المدينة.

شرق البحر المتوسط، على متن سفينة تجارية ١٦٧٣ م

رفع خطمه نحو الأعلى، ذلك الشقّ الذي اخترق الجدار، سمح بأنْ يتسلل سرسوبُ ضوء القمر عبره ليشكّل خطًّا ظاهرًا رغم الظلام، يعوي الذّئب ألحانه التي قدرت حاسّته أنّ القمر قد اكتمل، والقطيع في حاجة ماسّة إليه، لكنه قد أسر ولم يعد له من غابته سوى ذلك الشّعاع الذي انعكس على فرائه، حركة غير عادية شعر بها، اقترب من تلك الصفوف المتراصة طولًا والتي تحيط به مانعةً إيّاه من الخروج، اشتمّ الهواء الذي كانت رائحته كريهة، رأى جسدًا قد تقوّس محاولًا أن يختبئ بين أقفاصٍ قد عجّت بالعديد من الحيوانات المأسورة على ظهرِ سفينة تتقاذفها الأمواج، دفعه الفضول ليحاول أن يقترب منه كي يعرف ماهيته، قبل أن يفتحَ حارس الحيوانات البابَ عليهم، رجلٌ ضخم يحمل على يده بضعَ أوانٍ حديدية بها طعام لحيواناته، مرّ على كلّ قفص ليطمئنّ على صحة بضائعه قبل أن يضعَ لكلّ واحد منهم طبقه، حتّى تعثرت قدماه في ذلك الشخص، الذي نظر له خوفًا، الضوءُ الخافت جدًّا قد جعل مِن بشرته السوداء أشدّ سوادًا، ففزع الحارس وأخرج خنجره ملوّحًا به، وسأله في قوة:

– مَن أنت يا أسود؟

كان الرجل ينتفض من البرد، فزاده الفزع انتفاضًا، حاول أنْ يتملص ويهرب إلى لا مكان أمامه، فليس هناك ملجأ يهرع إليه، وفي سرعة ومهارةٍ ألقى الحارس على رقبته قبضةً حديدية ذات شكلٍ نصف دائري تتّصل بقضيب طويل في نهايته مقبض يستطيع من خلالها التّحكم به مخضعًا إيّاه، وقال له في حدّة:

– مَن أنت؟ أجب وإلّا خنقتك ومزّقت جسدك بخنجري.

– أنا سِنار.

– مَن سِنار؟

في عنفٍ سأله الحارس وقد زاد ضغطه عليه، فأصيب سِنار باختناق إلّا أنّه حاول أن يجيب رغم ضعفه:

– سنار..

وقبل أن يكملها كان الحارس قد بادره بالقول:

– عبدٌ آبق.

– لا.. لا.. لا، لستُ آبقًا، لكنّ سيدي قد قُتل.

تحشرجتْ أنفاسه، وشعر بأنّ غيومًا تلقي بظلالها على عينه، فقال متوسلًا:

– خفّف عني أرجوك، سأموت.

أيقن الحارسُ أنه ذا ضعف، لا قوّة في جسده؛ فخفّف عنه قليلًا، فأمسك سنار برقبته محاولًا أن يدخل الهواء الذي قد نفذ من رئيته إليهما، وقبل أنْ ينتبه كان الحارسُ الذي كان متمرسًا على ذلك قد ألقى على عنق سِنار حبلًا وشدّه بإحكام، ثمّ أمره أنْ يسير خلفه وإلّا أصبح طعامًا لحيواناته التي تتوقُ إلى لحمٍ طازج تمزقه وتشرب دماءه مِن طول بقائها في الأسر دون أن تمارسَ حياة القنص.

***

نجع السّوالم

رأى المختار تلك القافلة تقتربُ من مدخل النّجع، هجّانة ملثّمون بأقمشةٍ ذات لون أزرق تغطي معظم وجوههم، هُرع نازلًا عبْر طرقات التلّة المرتفعة الواقعة خلف منزلهم وفي مواجهة النيل، وما أنْ هبط حتّى وجد أباه قد وقف بنفسه مرحّبًا بهم، احتضنَ كبيرهم، وسار به بمحاذاته، فكّر المختار قليلًا، شخصٌ واحد بتلك المواصفات سيحظى بتلك المكانة لدى أبيه، «برهام النّوقي»، تاجر جِمال سوداني يحمل أبوه له الكثيرَ من الودّ، ولم يكن قد رآه منذ مدّةٍ طويلة حتّى شعر بأنه قد هلك في إحدى سفراته، أمّه كانت إحدى هداياه لأبيه؛ لذا كان السبب في أنْ ينجب سليم وليًّا للعهد بعد طول انتظار ويأس، لم يكنِ المختار قد رآه مِن قبل إلّا أنّ والده كثيرًا ما حدّثه عنه، بل إنّ اسمه دومًا ما يتردّد بين كلمات تلك الأحاديث التي تدور في منزلهم، وما أنْ خلع عمامته حتّى تذكّر مختار تلك الملامح التي رُسمت في مخيّلته، ولم تكنْ تختلف كثيرًا عمّا رآه، بشّرته سمراء اللّون، داكنة كتلك الخادمة الحبشية التي كان لا يظهر منها سوى بياض عينيها عندما كان يضاجعها ليلًا، طويل بعض الشيء، وإن كان قد تصوّر أنه أطول، ذا رأسٍ خالية تمامًا من الشعر، أمّا عن نظرته فهي ماكرة ذاتُ دهاء، لم يخطئ المختار

تقديرهما حين نظر إليهما خلسة، لملابسه لونٌ مميز، وهو لونُ السماء الذي استغربه المختار بمجرّد أن رآه، إلّا أنّ استغرابه قد زال حين سأل أباه فأجابه بأنّ هذا اللون من الملابس يساعد على تجنّب حرارة الصحراء التي قضى فيها برهام معظم حياته متنقّلًا عبْر دروبها وطرقاتها الوَعرة سعيًا خلف تجارته من الجِمال وغيرها، فتحت أمامه أبوابُ المندرة الشرقية، لا تفتح إلّا للعزيز مِن القوم، ذات هواءٍ بحري وتطلّ على بستانٍ يقع النيل من خلفه، فيتمازجان في منظرٍ طبيعي خلّاب يكفي فقط مجرّد النّظر إليه لبثّ راحةٍ في البدن والنفس، دخل برهام وأتباعه كي يرتاحوا، وخلفهم خدم يحملون له طعامًا وشرابًا، وظلّوا على هذا الحال حتّى ارتقى القمر عاليًا فخرجوا ينضمّون إلى سليم في مجلسه بعد أن أرسل في طلبهم.

بمجرد أنْ وصلوا حتّى جذب نظرهم ذلك الفارسُ ممتطيًا فرسًا ذا سواد ككحلِ الليل، يلاعب لجامه ويتراقص به في براعة تظهر قوّة سيطرته عليه، حتّى حادثهم سليم قائلًا:

- هذا ولدي.

بإعجاب قالوا:

- فارس مثل والده، لكنّ ملامحه بعيدة بعض الشيء عنك.

ضحكَ ثلاثتهم، وقد فهموا مغزى الحديث قبل أن يسألهم سليم:

- مِن أي مكان أتيتم؟ وإلى أين الرحيل؟

- من الحجاز.

ثمّ سحب نفسًا من أنبوبه قبل أن يقول:

- سنتجه غربًا، نحو بلاد الشناقطة.

- مباشرة؟

مرّر برهام أنبوب الدخان لأحد رجاله، وقال وهو يسعل:

- قبل أنْ أسلك الطريق سأمرّ على وادٍ للجِمال، سمعت أنّ البيع هناك وفير، والأسعار مناسبة، سأبتاع ألف رأس من النوق، أبيعها في شنقيط، وأحضر معي بضائع العاج والذهب والملح لأعود إلى القاهرة.

- الطريق وعرة.

في استخفاف ردّ برهام:

- أعلم...

سحب نفسًا آخرًا، ثمّ أردف:

- ولكنّ المكاسب تستحق المغامرة.

بإشارةٍ من والده انضمّ المختار لهم بعد أن انتهى، لم يكن من عادته أن يتحدّث فى وجود أبيه دون أن يأذن له، إلّا أنّ انتصاره الأخير وإحضاره لرأس حكيمٍ أشعرته بالرغبة في أنْ يستعرض بعضًا من السيطرة، وبفوران شباب لا يتمتع بخبرة كافية قال على غير العادة:

- إذا كنّا سنصحبك لنحميك؛ فالطريق وعرة والثمن زهيد لتحمّل مشاق تلك المخاطرة؟

نظرَ له برهام في دهشة من السؤال، وفي هدوء مصطنع ردّ عليه قائلًا:

- الحماية لها ثمن، والثمن يُدفع بانتظام.. وتمّ الاتفاق عليه منذ زمن.

قالها قبل أن ينظرَ بعتاب تجاه سليم الذي نظر إلى ابنه ليصمت ففعل، أراد أن يهدئ الأمور:

- سنصحبك يا برهام، سيكون ابنُ أخي على رأس رجالي، والكلمة لك كالمعتاد.

ثمّ حاول أن يهدئ الأجواء قليلًا بأنْ قال مازحًا:

- الفتي مازال يافعًا، لم يركب بعد!

تبادل الجميع الضحك وسط سعلات تغلّفها روائح الدخان، لحظات حتّى تركهم برهام ورجالُه مكتفين بذلك القدر من التّرحاب، فهمّ المختار بالمغادرة لكنّ صوتًا شديدًا من والده أوقفه آمرًا إيّاه بأن يلحق به دون تأخير، بصمتٍ نظر نحو أبيه قبل أن يلحق به باتّجاه منزلهم الكبير دون حديث بينهم.

سوادُ الليل وعتمته كانت سلاحَهم الوحيد للتخفّي والهروب خارج المدينة، قدموا بضع رشاوٍ لحرّاس البوابات، حتّى حانت لحظة الخروج، سلكوا طريقهم عبْر دروب كانوا على علمٍ بهم، ارتقت خيوطُ النهار وهُم على عجلة من أمرهم كي يختفوا عن الأنظار، نظر يونس خلفه، كانت أسوارُ فاس البيضاء على وشكِ أن تختفي، لنْ تزكم أنفه رائحة البحر من شرفتهم مجددًا، ولن يرى فنار المدينة من جديد، غالب الدمع نفسه، لم يستطع أن يقاوم أكثر فبكى، حاول الملّاح أنْ يتماسك قليلًا ليخفف عن أخيه، غادروا فاس، نجوا بأجسادهم بينما هلكت أرواحُهم مع مَن هلك في الداخل.

ارتحلوا نحْو الجنوب، مجدّدًا كاد الموت يفتكُ بهم، فقد خسروا الزادَ والزوّاد، تضاءلت فرص الحياة مع كلّ يوم لا يمنّ عليهم بقافلة يقطعون برفقتها الطريق إلى الشرق، حتّى شعروا بأنّ الهلاك صار قريبًا منهم، عمّ الجفاف عليهم، طالت بشرتهم تلك التّشققات التي تأتي من قلّة المياه، حين تناهى إلى مسامعهم خوارُ نوقٍ قادمة تتهادى، عادت لهم أنفاس الحياة مجددًا، اقترب منهم أحد الهجانة:

- مِن أين أنتم؟

- مِن الشمال.

تفحّص الرجل هيئتهما، وأطال النظر إلى يونس الذي ظهرت عليه علاماتُ الإعياء والمرض قبل أن يقول:

– المكان هنا خطير للبقاء فيه.

ثمّ أردف قائلًا:

– يبدو أنّ رفيقك يعاني.

تجاوز الملّاح سؤاله، وقال متسائلًا:

– إلى أين وجهتكم؟

– سنتّجه شرقًا نحو مصر.

– سنرتحل معكم.

تردّد الفارس قبل أن يقول:

– حسنًا، لا بأس، لكنْ هلمّوا فعلينا أن نقطع تلك الصحراء قبل أن نبتلى بعاصفة غادرة.

انطلقتْ رحلتهم وعلى رأسها قائدُ قافلة عابس الوجه، يقف وسط رجاله، يستطلع الطريق من حينٍ لآخر، أرض قاحلة مليئة بالكثبان الرملية، الحياة منعدمة، وما بين حينٍ وآخر يجدون أمامهم هيكلًا عظميًّا لحيوان

ضلّ الطريق، حداة القافلة يستحثّون الجِمال على السير، لتتهادى على أرضٍ اختلفت ما بين رمال ناعمة تنزلق فوقها وأراضٍ خشنة صلدة تعوق الحركة، وما بين وقتٍ وآخر كان الدّليل يصيح فيهم بأنّ بئرًا على وشك أنْ نصل إليه لتنصب القافلة خيامها وتعسكر ليلًا ليستريح الرّجال وسط جلسة دائرية حول النيران يقوم فيها بعضٌ من العاملين على خدمة المسافرين بالرقص والغناء حتّى يغلبهم النوم، لتعاود المسير صباحًا عبْر دروب لا يقدر على عبورها إلّا مَن كانوا ذوي صحة وقوة وسط غارات قد يتعرضون لها من قبل بدو الصحراء الهائمين باحثين عن مثل تلك القوافل.

جلسا معًا ينظران نحوهما، غاب كلّ واحد منهم في أفكاره، ابتسم يونس، فسأله الملّاح عن السبب ليردّ عليه بأنه تذكّر ساعة مولده..

- أتذكرُ تفاصيلها؟

- بالطّبع، فقد كانت السّماء صافية، والقمر بدرًا يضيء الظلام، كنت حينها في العاشرة من عمري، أعطاك أبى لي، لففتك بداخلي لأحميك من البرد، وطلب مني أن أحافظ عليك، وأتعهّدك بالرعاية حتّى تستعيد أمّك عافيتها.

مال الملّاح على يدِ أخيه، قبّلها، ثمّ احتضنه، قبل أن يقول له:

- ليس لي أحدٌ غيرك، لم أرتحْ في حديثٍ مع غيرك، ولا يحمل أسراري سواك، أنت أبي وسندي وضهري في تلك الحياة.

لم يكدِ الملّاح يكمل حتّى كان السّعال قد عاود يونس مرّة أخرى، فنهض مستندًا على الملّاح ذاهبيْن لمكان نومهما، بعد أن غادرا فاس أصيب مجدّدًا بوعكةٍ صحية، لم يكنْ لينام حتّى يستيقظ على عدم قدرته على التنفس، اختناق شعر به فاستيقظ على إثْره، وحاول التهام الهواء ليدخل إلى رئتيه المختنقتيْن إلّا أنّ الوضع كان أصعب مما هو متوقّع.

مع كلّ محاولة للعلاج، كان يهرع الملّاح ليناديِ شخصًا أشار له بعضُ المسافرين بأنّ له خبرة في العلاج معتمدًا على عشب الصحراء الذي ينمو مهملًا حتّى تذروه الرياح، فيبقى معهم لدقائق قليلة، يناوله بعضًا من الأعشاب المغليّة محلّاة ببعض العسل، ومضافًا لها بعض أنواع أخرى من حبوبٍ لا يعرف الملّاح كنهها، يشعرُ يونس ببعض الراحة فينام ليستيقظ على نفس الحالة من المرض.

- أيامي في الدنيا أصبحت معدودة، أشعر بذلك؛ إنها النهاية.

حاول الملّاح أن يطمئنَ نفسه حتّى قبل أخيه:

- لنْ تموت الآن، سوف تبلغ الحجاز ونعتمر معًا، وقد تتحسّن الأوضاع ونعود مجدّدًا لدارنا، وقد يكون مقامنا هناك في الحجاز مستقرًّا ومستودعًا لنا، استندْ عليّ فأنا عصاك التي تحميك من غدر الزمان.

فردّ عليه يونس:

- أنت ابني البكري، لكنّ المرض يقتلني، وسُعال الحمّى يرجّ أرجاء جسدي، لم أعدْ أستطيع التحمّل، اتركني هنا لأموت في سلام، ولتكمل أنت مع القافلة.

ردّ عليه الملّاح:

- لنْ أتركك أبدًا لو كان بإمكاني ذلك لفعلتها ونحن في فاس، وعلى أيّة حالٍ فالدّليل قد نادى أنّ «بونة» صارت على مسيرة ثلاثةِ أيام فقط، وحتمًا هناك طبيب أفضل.

فنظرَ إليه يونس نظرةَ شفقة وعطفٍ جعلت الملّاح يتماسك حتّى يداري دموعَه المكتومة بداخله.

لثلاثةِ أيام خلتْ سارت القافلة حتّى وصلتْ إلى مدينة بونة، زاد المرض على يونس، وأخوه مستمر في تقديم الدّواء له، اتّبع آخرَ نصيحة من ذلك الحكيم الذي داواه لفترةٍ قبل أن يغادرهم تاركًا القافلة مرتحلًا نحو الجنوب، إن ارتفعت حرارته فاخفضها له، وإنِ ارتعش من الحمى حاول أن تدفئه.. وبمجرد أنِ اقتربت القافلة من «بونة» حتّى تعرّضت لهجوم من بعض البدو الذين أتوا من قلب الصحراء، والتفّوا حول القافلة وحاولوا نهبها، لكنّ قائدها كان أسرع، واستطاع إنقاذ الموقف، وقادهم نحو برّ الأمان حتّى دخل بها حرم المدينة.

شرق البحر المتوسط، على متن سفينة تجارية

أحصى رئيس البحّارة بضعةَ دنانير قد ألقيت إليه في صُرّة، ثمّ صاح في غضبِ مَن نفذ صبرُه:

– ثلاثة أيام وإنْ لم نصل سنلقي جسدَه في البحر طعامًا للسّمك، لن أتحمّل رائحته الكريهة التي عمّت المكان.

عمل «سِنار» على متن السفينة بصحبه حارس الحيوانات مقابلَ أن يسمح له بالاحتفاظ بحياته، لكنّ صراعات ومكائد لم يكنْ له دخل فيها، فتمّ عرضه للبيع مجدّدًا، على ظهر سفينة كان من المفترض أن تحمله ليهرب على متنها بعيدًا عن قتله والفتْك به، أسرَ وبيع لتاجرٍ إسباني، حفيد لتاجرٍ مسلم كان بإمكانه أن يرحلَ بصبحة الهجرة الأخيرة للموريسكيين فى الأندلس التي قرّرها فيليب الثالث منذ أكثر من سبعين عامًا، كما قصّ له في بعض ليالى السمر، لكنّه رفض وسار على خطا والده وحفيده مستترين بدينهم عن الأنظار كجارته التى صمّمت على البقاء حفظًا لذكرى ابن عمها وزوجها، لكنّ وشاية من شريكه في التجارة بأنّه مازال محتفظًا بدينه مختفيًا عن الأنظار يمارس عباداته سرًّا أوقعت به، فقبض عليه وسلبت أمواله، حتّى عُلق جسدُه وأشعلت النارُ من تحته ليحترق وهو حيّ يصرخ، هرب سِنار مفزوعًا من أرضٍ لم تكن أبدًا مهدًا أو مستقرًّا له، ثلاثة أيام يغوص في

خراء البهائم والبشر، اختبأ بينهم حتّى انتهز فرصةَ انشغال المدينة بالقبض على آخرين فاندفع مطلقًا ساقيه للريح دون أن ينظرَ خلفه، وكان الميناء وجهتَه، ارتمى داخل السفينة، آوته تلك الأماكن المخصّصة لنقل أقفاص الحيوانات المأسورة، قبض عليه بواسطة حارسها، سيق مقيدًا، أجبروه على العمل مقابل أن يسمحوا له بالاحتفاظ بحياته، حتّى انقلب الوضع مجدّدًا، فقد قتل أحدُ البحّارة حارس الحيوانات، ألصقت به التهمة بأنه فتح القفص لذئب تمّ تجويعه فنهش في جسد الرجل حتّى مزّقه، وقبضوا عليه، قيّدوا يديه خلفَ ظهره، ربطوه في عمودٍ خشبي بسلاسل حديدة، انهالوا عليه بالسّوط فنزّت دماؤه مختلطةً بقيح تفسّخ من أجزاء متفرّقة من جسده، ازداد ألمه حين كانوا يسكبون عليه الماء المالح كي يستيقظ، لا أملَ في الحياة والموت، عصي عن القدوم.

- قتلت الرجلَ يا أسود، الحيوان أفضل منك.

- أقسم أنني لم أفعل.

- بل فعلت وخنت مَن أنقذك وسمح لك بأنْ تحيا مجدّدًا.

صرخ سِنار ليحاول أن يبرّئ نفسه قائلًا:

- أقسم أنني لم أفعل، أقسم بأنّ باب القفص كان مغلقًا، لا أعرف كيف انفتح...

وقبل أن يكمل حديثه كان السّوط يأخذ مجراه مجدّدًا مكملًا دورة من الألم على جسده.

- ستقطّع إربًا حتّى تموت ألمًا.

واصل البحّارة تعذيبه انتقامًا لصديقهم، تقيّحت جروحه ولم يعدْ هناك مفرّ من إلقائه في الماء، لكنّ أحدَ التجار على متن السّفينة تقدّم بعرض لشراء العبد التعيس:

- سآخذه لي، عدّد لي ثمنه.

نظرَ له رئيس البحّارة ممسكًا بلحيته عابثًا بها يفكّر في العرض، ثمّ قال:

- عبدٌ آبق قاتل لا نفع منه، بل ضرر.

صمتَ للحظات قبل أنْ يردف قائلًا:

- لكنّه يبقى ذا ثمن....

هكذا ردّ رئيس البحّارة في محاولةٍ منه لأن يكسب أكبر قدر من المال.

- قدر ما تريده مقابلًا له.

فأظهر رئيسُ البحارة تمنّعًا، إلّا أنّ التاجر صمّم على أن يكون مِن نصيبه، فتمّت الصفقة بنجاح، وكان الشرط لكي يتمّ البيع أن يظلّ سِنار مقيدًا في

هذا العمود مع تقديم القليل من الطعام والماء له ليبقى على قيد الحياة، مع تهديد من رئيس البحارة بأن يتمّ إلقاؤه في الماء إنْ لم ترس السفينة في غضون ثلاثة أيام، فأعادوا ربطه، وسطَ إعياء شديد يعاني منه، اقترب التاجرُ منه قائلًا:

- رأيتهم وهُم يفتحون أبواب القفص، تحمّل قليلًا، أيام معدوة وتخرج.

ثمّ غادره بعد أن ربت على كتفه.

نجع السوالم

تأبّط سليم ذراعَ ولده، استند عليه بشدّة، أراد أن يشعره بثقل الحمل الملقى على كاهله، لكنّ مختار صلد ذو عود ناشف وساعديْن يابسين بقوّةِ خشب أشجار الليمون، ساد الصمتُ بينما سيطرت أصوات اصطكاك الريح بالشجر النابت على جانبي ذلك الطريق الممتدّ طويلًا موغلًا في ظلمة لم تشفع له ضياء القمر في عليائه الذي كان يرافق خطواتهم فأفسح فقط مجالًا بسيطًا للرؤية، ساعده على ذلك بعض المشاعل المضاءة من بعيد.

- هل تريد أن تخلفني يا مختار؟

استغرب الابنُ ذلك السؤال، فلم يدر بماذا يجيب، تردّد قليلًا، بينما أبوه صامت ليسمع له يقول:

- في حياتك أبي لا حكم سوى لك! أطال الله أيامك....

- الحياة لا تمتدّ لآخر الزمان، وإلّا لما أصبحت أنا زعيمًا لقبيلتنا.

- أعلم يا والدي، لكنْ مشيئة ينفذها وقتما شاء...

وقبل أن يكمل حديثه قال له سليم:

- لا أخوة ذكورًا لك أو أعداء ينازعونك، والصّراعات داخل القبيلة لا ترقى حدّ الاقتتال.

- لِمَ نتحدّث في أمورٍ مثل تلك؟! مدّ الله في عمرك لترى أحفاد أحفادك.

وبصوتٍ فيه حزمٌ وقوّة، قال سليم والظلمة تغرق نصفَ وجهه، فلا يظهر منه سوى بعض الملامح تنعكس عليها بعض الضياء الخافتة:

للحياة سننٌ لا يمكن لمخلوق أن يغيّر فيها.

وقبل أنْ يتحدّث مختار، أمسك أبوه بفمه مطبقًا إيّاه، ثمّ قال له:

- احرصْ دومًا على أن يكون لسانك هو قائدك، فالقائدُ عليه أن يتحلى بالحكمة والصبر وإلّا هلك أتباعه وأجهز العدو على جيشه.

كتم سليم فمَ ولده، لم يترك له فرصةً أن يتحدّث، بل استرسل في حديثه بعد أن طافت أمامه ذكريات مرّت أثناء شبابه:

- قدّت قبيلتنا، حينها لم أكنْ أنا الرئيس، بل طالب رجالها بأنْ أكون الزعيم، كانت حيات الجبال وأفاعيه وتلك العقارب التي تسكن شقوقه تنغّص علينا الحياة، لم نحيا في راحة، أبناء الجبل أشدّاء غلاظ لكنهم في النهاية يريدون أن يستقرّوا كي يموتوا على أسرّتهم.

تنهّد متذكّرًا أيام الماضي، ثمّ أكمل قائلًا:

- طالبت بالزّعامة، لكنني لم أبدِ رغبةً بها، تمنّيتها لنفسي، أشرت عليهم بأمور كانت ذات رأي صائب، صرت محمودَ الرأي والجانب.

فقاطعه المختار قائلًا:

- وهل نلتها بسهولة؟!!

فتحَ سليم ذراعيه على أقصى امتدادٍ لهما، أشارَ بيده وكأنّه يحاول أن يستوعب العالم بين يديه ويضمّه إلى نفسه ثمّ قال:

- هذا العالم لن يمنحك هباته بسهولة، عليك أن تكون قد وصلتَ لدرجةٍ من اليأس بعد طول مجهود، وحينها سيكون قد أيقن أنّك وصلت إلى نهاية مشقّة تستحقّ عليها أن تحصل على ما تريد، منذ متى تأتي لنا الرغبات لاهثة تحت أقدامنا!!

ابتسم في هدوء وثقة قبل أن يستطرد قائلًا:

- مازلتَ بعدُ يافعًا، اسمع يا ابنَ ذات زرقةِ البحر في عينيها، إنْ أردت شيئًا بقوّة عاونك الجميع على تخيّل طرقٍ للوصول له، ولكنّه وقف حائلًا بينك وبينه، بل وألقى أحجارًا تعثر طريقك، ووقف بعضهم حائلًا أمامك مانعًا إيّاك من تنفيذه، لذا من الأسْلم لك أنْ لا تظهر رغبتك حتى لا تكتسب أعداءً إلّا لو كنت ذا مقدرةٍ على أن تواجه الخصوم، حينها تقدم بكلّ قوة وعزم، أزحْ من طريقك- وبكلّ قسوة وعنف- مَن تراه قد يزاحمك على قطعة لحمٍ تشتهيها.

- وكيف أعرف أنّني أملك تلك القدرة؟

- فقط إنْ كان هناك مَن يردّ عنك الخطر، بمفردك أنت ضعيف حتّى لو كانت ضربة سيفك تعادل ألف ضربة، ورمية غدّارتك تصيب عقابًا يحلّق على مرمى البصر، اجمع حولك مَن تراه مناسبًا لهذه المهمّة.

- يا والدي، تعلم أنّ شهوة الحكم تجري في عروق الجميع.

- ولكنّ كثيرين منهم يخشونها، يفضّلون أن يتواروا خلف قائدٍ يوجهون خطواته، ويدافعون عنه بأمرٍ منه، يخشون إعطاء الأمر.

ثمّ نظر في عيْن مختار وقد وصلا إلى نهايةِ الطريق قبل أنْ ينحرفا فى اتجاه المنزل التي ظهرت أنوار مشاعله مضيئة للمكان، قال له:

- اسمعْ يا ولدي، قال أحدُ الحكماء قديمًا إنّ البشر نوعان: الأوّل منهم يرغب ويفعل، والآخر يرغب ويخشى أن يخطو للأمام، ولكلّ نوعٍ حاجة يؤدّيها بدقّة، هل فهمت قصدي؟

- نعمْ يا كبير السوالم.

- هيّا انطلق.

وقفَ المحتار دون حراكٍ ليسأله سليم عن السبب:

- أرغب في أن أرافق برهام.

باستغراب قال:

- لكنّ الوفاق لا محلّ له بينكم.

- أرغب في أن أمهر عروسي.

قهقه ساخرًا:

- أمازالت تذكر تلك الجلسات حول ركية النار، ونحن نتحاكى عن الذهب الذي تزخر به أرض السودان؟!

- مهري يا والدي لا يجب أن يقارن بمثيله، إنّي ابن الأكرمين.

- حسنًا، لن أمانع في ذلك، لكنْ حذار أن تضيع فقط أو تتوه منهم، فالصحراء متشابهة المعالم، اتساعُها مهلك.

بثقة قال:

- أنا ابنك يا سيدي، ألا تذكر؟

- وأنا أفخرُ بك يا وليدي وخليفتي، اذهبْ لتحضر نفسك، واحرص على أنْ تظلّ الأمير مهما دارت نوائبُ الدهر عليك.

غادر المختار، لكنّ سليم نادى عليه ثانية، وقال له وهو يشير إلى رأسه:

- احتمِ بالظلّ، حتّى تصبح صانعه الأوحد، أفهمت؟

أومأ له المختار بأنّ الرسالة قد وصلت.

اللّفافة العشرون

إقليم الإله السابع

لم تكنْ كمثيلاتها من الأراضي المجاورة لها؛ فقد انخفضت منذ زمنٍ كانت فيه خواءً، لا يسكنها بشر أو دابة، كانت مقرًّا للشّياطين ممّن أووا إليها منذ قديمِ الأزل حتّى أزاحهم البشر، وأحيط بها جبلان؛ الأوّل هو جبل الزغاب ويقع على الطرف الشّمالي منها وهو المدخل إليها ليس جبلًا بالمعنى المعروف جغرافيًّا، لكنّ البشر أطلقوا عليه هذا الاسم تعظيمًا له كوْنه المدخل إلى واحتهم، أمّا الجبل الآخر والواقع إلى الجنوب منها فهو جبلُ العقاعق وينحدر تجاه الشرق حتّى ليظن القادم من بعيد أنّه يحيطُ بالواحة من تلك الناحية بيدٍ واحدة فيمنع عنها إغاراتُ البدو والرّحل وغيرهم ممّن تطأ أقدامهم تلك النواحي، وسمّي كذلك لأنّ العقاعق السّود لا تفارق قمته حتّى حكيت عنه أساطير أنّ البشر لم يسكنوه خوفًا منها عندما كانت في الماضي بحجم العنقاء، أمّا البئر فيقع في منتصف الواحة والسّوق إلى جواره، وتلك الخضرة المغطية للجبال تلمع تحت الشمس وأحيانًا تنزلق عليها تلك الأمطار القادمة في فصلي الصّيف والخريف فقط فتنهمر على الواحة لتغطّي طرقاتها وتصعب الرؤية على أهلها نظرًا لانطفاء النار بها، وبخاصة في ليالي المحاق.

القوافل كانت قد اعتادتْ أن تأتي محمّلة بالطيب والتوابل والأقمشة الملونة ممّا يقبل عليها أهلُ الواحة والقاطنون بها، الزواج قد ارتبط بمواعيد ثابتة أمّا حين تقبل تلك القوافل أو حين ينضج الثمر من التمور والزيتون الواقعة مزارعُه في الخلف من جبل العقاب، حينها فقط تشتعلُ الواحة بالأفراح والمآدب من لحوم الجِمال وشحومها وغيرها من تلك المأكولات.

الأيام تمرّ والسماء مازالت تحتفظ بدفقات اللون الأزرق تنهال على الأرض دون انقطاع، أمّا الشمس فمازلت تحتفظ لنفسها بالظهور والالتهاب دون أن تراعي وجود مخلوقات لا تطيق لها حرًّا.

أيّام الشتاء ساكنة، والصيف صاخبٌ برحلاته التي لا تنقطع، وأمطاره التي تخفف بعض الشيء من حرارته، لكن هذا كان منذ زمنٍ بعيد للغاية قبل أن يحلّ المارق على أرضنا.

على أسوار عنّابة

اقتربت القافلة من عنابة، المحطة الأولى للوصول إلى مصر، مدينة تقع على ساحل البحر، محطّ تجاري هام، تظهر أسوارها من بعيدٍ شاهقة مرتفعةً تختلط فيها ألوان الحجارة البنية اللّون بزرقة البحر الظّاهر من خلفها فتشكّل منظرًا مهيبًا للقادم من بعيد، نادى القائد بأنْ يستريح الجميع، ثلاثة أيام لن تزيد، والغائبون لن يكون لهم نصيب في أن يلحقوا بالركب أبدًا، نُصبت خيام المعسكر في مكان خارج المدينة، لكنّه في حرم أسوارها التي كثيرًا ما صدّت عنها غارات بدوٍ من الجنوب وقراصنة البحر شمالًا فرغبوا في أنْ يأتمنوا بها، أضيئت مشاعل لتشقّ ظلمة الليل التي حطّت عليهم، ذرّات عرق تغمر جسد يونس، يرتعش كما هي عادة الحمى حين تنتقي أحدًا لتصيبه.

- استيقظ يا يونس، ها قد وصلنا إلى بونة.

ببطءٍ فتح يونس عينيه، أومأ برأسه بأنه قد أفاق بينما يعاني قرص الشمس من الاحتضار لينظر له الملّاح وقد تذكّر أنها ستخبو بعد قليل على مقعد أبيه في فاس، سوف تلتحم بموج البحر، فيراها والده ويبتسمُ وكأنه قد تذكر أيام شبابه وطفولته ثمّ استفاق من خواطره التي غلّفت روحه طاغية على تفكيره:

- سأغيب لبعض الوقت، سأحضر لك طبيبًا يداويك.

قالها الملّاح لكنّ يونس ردّ عليه محاولًا أنْ يثنيه عن ذلك:

– ليس هناك من داعٍ، فالموت قادمٌ لا محالة، إنْ لم يكن الآن فغدًا يا صديقي.

لكنّ الملّاح لم يردّ، كان قد حزم أمرَه، خرج متوجهًا لقائد القافلة كي يخبره بالذّهاب إلى المدينة، فردّ عليه بينما كان مشغولًا بمتابعه بعض النّوق وهي تناخ:

– احرص على أن لا تتأخر.

قبل أن يردف محذّرًا إيّاه:

– للمدينة هوى قد تصاب به من طول بقائك في الصحراء، أمامنا فقط ثلاثة أيام إن كنت تنوي أن تلحق بنا.

ردّ عليه الملّاح في غير اكتراث قائلًا:

– لا تقلق، فالهوى لا يصيب مَن به ضُر.

نظر له الرجل موافقًا، ثمّ عاد ليكمل متابعة نوقِه، بينما انطلق الملّاح حتّى وصل إلى البوابة الرئيسية، دخلها وكانت مشاعل الليل قد أضيئت، فوجئ بطفل صغير يقف أمامه ناظرًا له:

– اقترب يا صغير، مِن أي مكان أنت؟

سأله الملّاح لكنّه لم يتلقَّ ردًّا منه.

حاول أن يكرّر السؤال لكن يدَ الصغيرة استجمعت قواها وجذبته لثوانٍ معدودة دافعة إيّاه للتحرك، قبل أن تفلته ليطلق الولد ساقَه للريح، وقف الملّاح مشدوهًا إلّا أنّه وجد نفسه يهرع خلفه ليرى إلى أيّ مكان يذهب، بضع حوارٍ جانبية، وأزقة لا يسكنها أحدٌ قطعها الملّاح ليحاول أن يلحق بالصبي، ظلالٌ تأتي من بعيد، تتراقص على تلك الجدران، نظر لها الملّاح في خوفٍ شديد، لكنّ الفضول قد رماه بسهمِ الرغبة في أن يرى، تتبّعهم حتّى وصل إلى مصدرها، ساحة واسعة تحيط بها بعض المباني بشكلٍ يقترب من الدّائري، النار مصدرُ الضوء فيها، تأتي من بضع أماكن مختلفة، لكنّ أبرزها تلك الشعلة في المنتصف، رياح تلفَحها لتأتي بها يمينًا ويسارًا، قبل أن يجدَ أمامه دائرة من نساء ورجال يدورون حول النار في تناغم وبأصوات يخرجونها من أفواههم كما الهمهمات في نغماتها تتزامن مع قرْع دفوف وأصوات مزامير لتشكّل حالة من الانسجام الرّوحي بين الجميع، ظلّ مشدوهًا بهم، بل اقترب بضعَ خطوات منهم يريد أن يلتحمَ معهم، فوجِئ بيدٍ تجذب أصابعه، نظر إليها فكان الصبي يقول له:

- ألا تريد الطبيب يا عمّ؟

في دهشة ردّ عليه:

- بلي.

- حسنًا، اتبعني ولا تشردْ؛ سأدلّك عليه.

لا يفهم الملّاح لِمَ لكلمات الصبي ذلك التأثير وتلك القوّة في الأمر، إلّا أنّه ورغم ذلك قد تردّد قليلًا، نظر إلى الصبي، ثمّ عاود النّظر إلى تلك الدائرة، ثمّ حزم أمره بأن اتّبع خطوات الطفل ليسير به مجدّدًا بين الحارات والأزقّة، لحظات قليلة حتّى وصل به إلى بابِ منزلٍ قديم، طرق البابَ وذهب، حاول الملّاح أن يلحقه لكنّ عينا الطفل كانتا ذات قوّة وصرامة، «لا تلحق بي فقد وصلتَ إلى مبتغاك، وإلى هنا أنت لا تنتمي إليّ»، كيف تدفّقت تلك الأحاديث إلى رأس الملاح، لا يعرف، فقد سمع كلماتٍ من الطفل الذي تحدّث دون أن يحرّك شفتيه أو حتّى تظهر على وجهه أيّ إشارة أو إيماءة عن رفض أو قبول، غزت تلك الأحاديث رأسَه، وطافت به دافعةً إيّاه لأنْ يكذّب عينيه اللتين سارتا خلف الصغير إلى أنِ انفتح الباب أخيرًا.

«ماذا تريد يا غريب»

صمت الملّاح بينما عيناه ثائرتان تحاولان تفحّص هيئة ذلك الرجل، رجل مسنّ، انحنى ظهره، شيّب الرأس يختلط بفقده..

«ماذا تريد يا غريب»

كرّرها العجوز ثانية، فردّ عليه الملّاح:

- طبيبًا يداوي.

- حسنًا، أغلق الباب خلفك، فالزائرون لا ينقطعون أبدًا.

خرج شاهرًا سيفه، لم يكن يقوى أحدٌ من رجال أبيه على أن يمنعه من تلك الأفاعيل المجنونة، أوثق لجام فرسِه «الغندور» ذا اللون الفاحم والشعر المجدول بعناية، التحم معه بالروح والجسد حتّى صارا كيانًا واحدًا وكائنًا لا ينفصل، كان يرتدي ملابس سودًا كبني جلدته من مقاتلي أبيه، إلّا أنه كما العادة فضّل دومًا أن يميّز نفسه عن الجميع، فخاطَ قطعة من القماش ذات لون أحمر على كتفه الأيمن، حذّره ابن عمّه وقائد جيش أبيه من تلك الفعلة، ستكون علامة مميزة له والأعداءُ كثر، وحينها سيصبح صيدَهم الأوّل في كلّ معركة يخوضها، لكنه أصرّ على أن تكون له علامة، في داخله هو الأمير، والأمير لا يهاب أحدًا أو يخشى الموت، ربما لا يجب له أن يموت أصلًا.

السّراب ذو لون أزرق برّاق، أضاع الكثيرون دهرًا في السّعي وراءه، هل وصلوا إليه، أم أنهم ضلوا الطريق وأفنوا حياتهم بحثًا عن مجرّد سراب، لكنّ اللون الأزرق يتبدّل، تلك جبالٌ تظهر من بعيدٍ بألوانها التي تميل إلى الأصفر، بدأت في التحرّك لتقترن في الظهور وتلك العمائم السّود التي تعلوها، فتح عينيه لكنّه لم يقوَ على ذلك إلّا ثوان معدودة فغاص مجددًا في هلاوسه التي امتدّت ليرى حكيمًا الأزدي- قاطع طريق فرشوط- وقد أرسل إلى أبيه رأس رسوله، استشاط غضبَ كبيرِ السّوالم، أقسم أنْ يخرج بحملة ليقتله، لكنّه

تراجع وأرسل ابنه المختار بتوصيةٍ من زوجته، دارت معارك كثيرة بينهم، حتّى أن حكيمًا ورجاله كانوا يرتعدون ولا ينفكّون يفرّون بمجرد أنْ يروا تلك الشّارة الحمراء على كتف شابّ يقبع دائمًا في المقدمة، انتهى بهم الحالُ إلى مغارةٍ في الجبل يحتمون بها من فناءٍ أقسم المختار أن يكون بديلًا عن أبيه في أن يلحقه بهم، ترجّل الأمير الصّغير عن فرسه، حداثة سنّه تتناقض مع شجاعة لا يتمتع بها الكثيرون من رجاله، اعترض عليه ابن عمّه، كيف له أن يصعد إلى الموت، حتمًا سيلقي حتفه بين سهام رجال حكيم المترّسين خلف نتوءٍ يرون القادم ولا يراهم، لكنه أهمل الأمر تمامًا وكأنه على يقينٍ بأن ساعته لم تحنْ بعد، فصمّم على الصعود منفردًا ليلحق به باقي الرجال، من بين متاهات كثيرة فوجئ المختار برجلٍ ينقضّ عليه حاملًا بلطته، حاول أن يخرج غدّارته لكنها كانت فارغة فضربه بها على رأسه كي يزيح تلك الأيادي الحديدية التي التفّت حول عنقه، أربع ضربات حتّى ابتعد عنه، ليخرج المختار خنجرَه ويغرسه في مقدم رأس حكيم الذي وقع على الأرض وقد سال الدّم على جبهته، لم يكنِ النهار قد انتصف حتّى خرج المختارُ على رجاله حاملًا رأس حكيم على يده، فرفعوه إلى الأعلى ليهبط ببصرِه على الأرض التي لم يعدْ يقوى على النهوض منها، امتدّت له إحدى الأيادي، نهض متكئًا عليها، أحضروا قربةَ ماء وفتحوا فمَه ليسقطوا على شفتيه بضعَ قطرات كالندى يتشقّق الطّين الجافّ من تحتها، هكذا ابتلّ ريقُ التائه في الصحراء، أغمض

عينيه من الألم والإرهاق، فرأى الحمام الزاجل يحلّق محمّلًا برسائل إلى أبيه بأنّ النصر كان حليفَهم، ساروا نحو ثلاثة أيام حتّى وصلوا إلى النّجع مقرّ الحكم، المشاعل قد ملأت الطريق إلى دوّار أبيه الذي أشرق وجهه بمجرّد أن رأى ابنه عائدًا وقد حقّق النصر، حتّى أنه قد نسي أن يرحّب بابن أخيه، أمسك بيد ابنه وسار به حتّى وصلا إلى الجَمل الأخير والأكبر من بين ذبائح الاحتفال بالنصر، علّمه أبوه كيفيه الإمساك بالجمل من أنفه، وبقوة أناخه على الأرض قبل أن يلتفّ بذراعه على عنقه فيلويها تحت ساقه مثبتًا إيّاها حتّى أخرج خنجره وذبحه. غزا البرد جسده، لا يعرف إن كان الأمر عاديًّا أم أنّ ملاكَ الموت يهون عليه سكراته الأخيرة، فأغمضَ عينيه في استسلام حتّى استفاق ليجد أنّ السّواد يحيط به، أيّ جحيم هذا، أتكون تلك هي جهنم، لكنّ النار لن تكون بذلك السّواد إلّا إذا كنت من المارقين عن الدين، تلفّت قليلًا بعد أنْ بذل مجهودًا مضنيًا ليفعل ذلك، ذات سقفٍ منخفض كتلك التي كان يبيتُ فيها حين خاضَ غمار حربٍ مع لصوص الجبل برفقة ابن عمّه، «لك خيمة يا أمير» هكذا خاطبه حينها، ولم يكنْ يدري أنّ تلك النظرات كانت تحملُ كمًّا من الغضب والغيرة تجاهه، وها هي النتيجة أخيرًا، يرقدُ مستسلمًا دونَ حراك، حطّت عليه الذكريات أوزارها، أحدُهم يقترب من مدخل خيمتِه الضّئيلة، دخلَ إليه، وجدَه وقد فتحَ عينيه، قرَّب الماء مجددًا إلى فمه، سقاه بعضًا منها ثمّ غادره، ليتركه وقد عادت ذكرياته لتطوفَ به

مجدّدًا، الموتُ قادم والخوفُ منه لن يمنعَ حدوثه، تعلّم في حياته القصيرة أنّك إذا كان لا بدّ أن تموت فلتمتْ واقفًا على قدميك، تلك التي لا تقوى على حمْله، فكلّما حاول أن يفعلَ كان يسقط على الأرض دون حركة، فيحاول مجدّدًا لينهارَ ثانية، ألمُ الخيانة قاس، ما هو مصير أبيه الآن؟ هل قتل على يدِ ابن أخيه الذي كثيرًا ما اعتبره ابنًا له، أين هي أمّه؟» هل عادت جارية تباع وتشترى؟، الخائن لا يرحم أحدًا حتّى لا يترك ذيولًا تنتقم منه فيما بعد، هذا الكلبُ الأسود برهام، غدرَ به، دسّ له شيئًا، صار واثقًا من ذلك، لكنْ لَم تركوه وحيدًا في الصحراء، فالقتل أهونُ عليه من عذاب الذّكريات، أيّ طريق هو فيه الآن، يذكر تلك النظرة، وذلك التحذير، احذر أن تهلك بسيفٍ قريب ولا تخشَ أن تواجه سيفَ عدو، الأقربون لم يعودوا أولى سوى بالبُغض والكراهية، الكلابُ أشرقت عليها الشمس أخيرًا، سيندمون حين يعود، لكنّه يتساءل كيف سوف ينتقم إنْ كان لا يعرف طريقًا للعودة.

تخفّفت سماء القاهرة من أثقالها، سمحت لسلطانِ الشمس أنْ يمدّ صولجان ضيائه ليجفّف الأرض من الماء المنثور عليها، جلس أبو الحسن ممسكًا بكوبِ الشاي يرشفُ منه آخرَ حبّة دفء قبل أن يبردَ، صمتٌ غزير حطّ عليهم رحاله حتّى قطعة برستيد قائلًا:

– سيد أبو الحسن!

انتبه له فداعبَ الرجلُ شاربه الكثّ متظاهرًا بالتفكير قبل أن يقول:

– ربما لن تستطيعَ أن تقدّم بحثك في مؤتمر دبلن.

فردّ عليه أبو الحسن بلغةٍ إنجليزية سليمة منمّقة:

– سأحاول أن أعوّض ما فاتني من وقت.

ثمّ أردف قائلًا:

– أظنّ أنني قد أحصل على كشفٍ أثري في القريب.

أثارت تلك الكلماتُ حماسَ الرّجل الإنجليزي، التمعت عيناه، قبل أن يمدّ رأسه للأمام ليقول:

– عنْ أي نوع من الكشوفات تتحدّث، سيد أبا الحسن؟

ابتسم أبو الحسن قائلًا:

- لِمَ خرجت باحثًا عني؟ ليس مِن عاداتك أن تترك عملك قبل موعْد المغادرة، لكنّك فعلت، بل وغالبت ربْوَك وتحدّيته قادمًا للبحث عني.

- حسنًا، لن أطيل الحديث عليك، وكما ذكرتَ بنفسك ليس أمامي وقت طويل، يجب أن أعود قبل أن تهاجمني إحدى نوْبات الربو، علمتُ بأمر الرسالة التي وصلتْ لك، وأرغب في أنْ أشاركك العمل فيها.

باستنكارٍ قال أبو الحسن:

- أي رسالة؟!

- حقًا لا أعلم، لكنّ أخبارًا وصلت لي بأنها كشفٌ جديد، أرغب في أن أشاركك فيه، أو على أقل تقدير تطلعني عليه.

- مادام الأمر قد صار مكشوفًا فاعذرني سيد برستيد فلا أرغب حقًّا في الحديث عن أمورٍ لازالت مجهولة.

بشغفٍ طفولي قال برستيد:

- أواثق أنّه يستحق؟

بهدوءٍ مُصطنع ردّ أبو الحسن:

- مِن ذلك النوع الذي يستحقّ الانتظار لإنجازه، بل والتّأخير إن لزم الأمر.

صمتا قليلًا، تبادلا نظراتٍ مليئة بالتساؤلات غيْر المجابة قبل أن يقول..

يردف أبو الحسن قائلًا:

– لكنني للأسف لا أملك التمويل الكافي.

فهبّ برستيد مستغلًّا تلك الفرصة ليقول له:

– يمكنني أنْ أحضر لك تمويلًا كاملًا؟

عملا لخمسةِ أعوام في نِظارة المتحف، اعتادَ أبو الحسن أنّ السيد الإنجليزي لا يعطي شيئًا دون مقابل، فصمَتَ دون أن يردّ عليه، فبادر برستيد بالنهوض وهو يقول:

– خذ وقتًا كافيًا للتفكير.

نظر إلى الكتبِ والمجلات التي أخرجها أبو الحسن واضعًا إيّاها بجواره، وقال:

– وحاولْ أن لا تضع أموالك إلّا فيما تستحق.

تردّد أبو الحسن في الموافقة، عبثَ في جيبه فوجدَه فارغًا كعادته، أنقذَه برستيد بأنْ أخرج من جيبه دفقةَ نقود معدنية، دفع حسابَ المقهى، تهيّأ للخروج، وقبل أن يفترقا قال له برستيد:

– حاول أن تفكّر قليلًا في عرضي، دبلن لن تنتظر طويلًا.

ابتسم متودّدًا ليقول:

- أريد أن أسمع منك عبارة واحدة.

وبلغةٍ عربية مكسّرة قال:

- إن شاء الله يا خواجة.

ثمّ عاد لإنجليزيّته وجديّته مواصلًا عرضه، وقال:

- لن أسألك عن فحوى بحثك، لا يهمّني، إنْ قبلت عرضي سأمنحك فرصة الظهور الأوّل، ومِن ثمّ تكون بعثة كاملة أترأسها، حينها لك أن تصحبنا أو تتراجع.

صمَتَ أبو الحسن، مازال رغمَ حاجته للمال لم يحسمْ أمره، ليخرج برستيد ورقةً مطوية من جيب سترته واضعًا إيّاها في يد أبي الحسن الذي نظر له فيرتسمُ على وجهه شبح ابتسامة، بينما غادر برستيد دون أن ينظر خلفه.

أثارتْ كلمات العجوز اندهاشَ الملّاح، أي لصٍّ هذا بدرجةٍ من الغباء ليقترب من منزل بذلك السّوء، أشار له العجوز بأن يدخل إلى غرفةٍ جانبية، مصباحُها مضاءٌ بدرجة طفيفة، حتّى أنّه لا يستطيع أن يرى نهايتها..

- ما شكواك؟

قالها العجوز والذي لم يكنْ بعْدُ قد دخل إلى الغرفة.

- لست أنا المشتكي.

فسادَ بينهم الصمتُ حتّى عاد حاملًا مصباحًا كي يزيدَ به درجة الإضاءة..

- بل أنت العليل، علّة قلبك وعلّة أخيك تزيدك مرضًا.

باندهاشٍ قال الملّاح:

- وكيف علمت؟!!

تجاهل العجوزُ أن يردّ أو يفسّر كلماته، ثمّ سأله مجددًا:

- أمرض أخيك مزمن؟

- إنها الحمى.

- إذًا، لا بدّ للجرح أن يلتئم.

- لقد حدث بالفعل.

- إنْ كان قد حدث ما أصيب بالمرض أبدًا، تلك هي نواميس الحياة منذ مهدها، هل تريده حيًّا؟

باستغرابٍ قال له الملّاح:

- بالطبع، كيف لي أنْ أعيش دونه، هو أخي الأكبر، الوحيد المتبقي من عائلتي.

- عليك إذًا أن تدفع ثمن الدواء.

- ما تطلبه مجاب.

- ليس لي رغبات، هُم مَن يطلبون.

قالها العجوز ليصير بعدها شابًّا عفيًّا، ذا طولٍ فارع وقوّة لا تخفى، حتّى استغرب الملّاح حالته التي صار عليها، تراجع إلى الخلفِ لتأتي كلمات العجوز الذي صار بالتدريج صبيًّا:

- اذهب لأخيك؛ فقد شفي.

باندهاشٍ قال الملّاح:

- كيف لك أن تعلم؟!

ليردّ عليه طفلٌ صغير:

- أنا لا أعلم، بل هُم مَن يفعلون.

مجبرًا بقوّة خفية غادره الملّاح، لكنّ شيئًا ما بداخله دفعَه لأنْ يعود سائلاً العجوز:

- وعلّتي، كيف ستشفى؟

بأسًى هزّ العجوز رأسه قبل أن يقول:

- حاول أن تهدّئ من روعك قليلًا كي لا تكون سيلًا يقذفك بعيدًا في اليمّ فتغرق، وسلّم نياطَ قلبك التي تمور وتغلي.

غادره غارقًا بجسِده في ظلامٍ دامس، فأصيب الملّاح بالدهشة وعدم الفهم، وبخاصّة حين فتح عينيه من طول تركّز أشعة الشّمس عليهما، وجد نفسَه في الساحة نائمًا على أحدِ أركان الطريق، بينما أحدُ الأطفال يلهو بجواره، نظر إليه ثمّ نظر إلى السّماء، مرّ أذان الفجر منذ وقتٍ طويل، تساءل طويلًا كمْ من الوقت مرّ على نومه، وهل ما رآه حقيقة أم مجرّد أحلام عابرة؟ ثمّ جاء التساؤل الأكبر، أين أخوه الآن؟ وما قصد العجوز بكلماته؟ هُرع نافضًا ما عليه من أتربةٍ علقت به، بخطوات سريعةٍ وصل إلى القافلة، كان الركبُ قد بدأ في الاستيقاظ، هُرع نحو خيمتهم، وجدها فارغة، أصيب بالرّعب

قبل أن يخبره أحدُ المسافرين بأنّ أخاه قد ذهب لقضاء حاجته، وحين شعر بالقلق- وقد ظهر على وجه الملّاح- قال له محاولًا أن يطمئنه:

- لا تقلق؛ تحسّنَ بالأمس كثيرًا، جلسَ معنا حتّى أداء الفجر وبعدها نام.

- يا ملّاح.. يا ملّاح!

التفتَ على نداء أخيه، وجهُه مشرق، وصحّتُه ظهر عليها التحسّن..

- أشفيت؟!!

- ليس بعد.

قالها وسعَلَ قليلًا قبل أن يتماسك ليقول:

- لكنّ ليلتي أمس مرّت كما لم تمرّ منذ فترة طويلة، فقد نمتُ في هدوء، ظننتك ستأتي ليلًا لكنّك تأخّرت.

- بالفعل، بحثت عن طبيب فلم أجد.

قالها الملّاح وعيناه شاردتان تفكّران فيما حدث بالأمس قبل أن يردف قائلًا:

- لكنني اليوم أيضًا سأخرج باكرًا لأبحث عن طبيب.

- أشعر أنني لم أعدْ في حاجةٍ إليه، هوّن عليك يا صديقي، الموت لن يختار عبثًا.

اقتربتْ في هدوء وسلاسة، حاولتْ أن لا تثير صوتًا كي لا تزعجه فينتبه، هادئ لا يحرّك ساكنًا، فلايدري ما القادم من خلفِه، عادت برأسها إلى الوراء محرّكة ضلوعَ رقبتها حتّى ظهرت وكأنّ لرأسها غطاءً، جسدُها مائل للسواد، عيناها لا حياة فيهما، نفثتْ رسل الموت عبرَ أنيابها، فانتفض اليربوع من مكانه لا يدري ما حدث، ثوانٍ حتّى انقضّت عليه بفم ابتلعته في لحظاتٍ معدودة، نهض المختار مفزوعًا من نومه، الأرضُ حارّة من تحته، والرّمال تأكل عينيه، ظنّ أنّ سمّ تلك الأفعي يأكل في جسده، حاول أن ينهض لكنّه فشل، مازال عاجزًا عن الحركة، والشّمس تزيد أمورَه سوءًا، شعر أنه لم يعدْ لديه القدرة على أنْ يفرّق بين الحقيقة والكوابيس، التقطتْ أذناه حديثًا يدورُ بين اثنين لا ينادي أحدهما على الآخر باسم يعرفه..

- لو تركناه قد يموت، لكنّنا لا نستطيع أن نصحبه معنا، سيحتاج لمن يحمله.

لبرهةٍ صمت الآخرُ دون أن يردّ، ثمّ تلفّت حوله وقال:

- بالفعل.

تردّد زميله وهو يقول:

- أشعرُ أنه بحاجة إلينا.

فعاجلَه الآخر قائلًا:

- ونحنُ بحاجةٍ لأن نهرب دونَ أن يعاق طريقنا، لا تنسَ أنّ هناك موتًا يلاحقنا، ونحاول أن نبتعد عنه قدْرَ الإمكان.

دار أحدهم حوله، ثمّ جلس على ركبتيه بجواره، وقام بجسّ نبضه وقال:

- نبضُه ضعيف، لن يعيش طويلًا، سنترك له بعض الماء، وثلاثة دنانير.

نظرَ له صاحبُه باستغراب، وكاد يسأل، لكنّه قطع دهشته حين قال بسخرية:

- قد يحتاج إليها ليدفع ثمنَ تكفينه.

حاول أن ينهض ليرجوهما عدمَ الرّحيل من دونه، عجزه كان أقوى، فاستسلمَ له عنوةً دون أن يكون له يدٌ في أن يقاومه، مرّ عليه الوقت وهو لا يدري إنْ كان في يقظةٍ أم أنّ ما يراه مجرّد كوابيس، تلك يدٌ تمتدّ لتزيح غطاء رأس أمّه، بكاؤها يصمّ أذنيه، وأبوه يرقدُ على الأرض نازفًا بدمٍ يسيل من جرحٍ نافذٍ في صدره، الحرائقُ تشتعل، جاريتهم تهرع، والنّار تلتهم جسدَها ليلتصق اللحم بملابسِها، هجّانة النوقي يحرسون ابن عمّه الذي يتقدّم نحو المنزل ليلقي عليه شعلة كانت في يده، ثمّ التفتَ إلى رجاله يأمرهم أنْ

يهدموا دوّار عمّه ويخرجوا الخيول كي يلحقوا به، رأى يدًا تمتدّ حول عنقه كي تعصره فتزهق روحه، عقله لم يعدْ ذا قدرةٍ على التحمّل فنهض مفزوعًا، الأجواءُ معتمة ملتحّفة بسماء مظلمة إلّا من بعض نقاطٍ تتناثر عليها عددٌ لا نهائي من نجوم تلتمع. صوتُ أنفاسه اللاهثة تملأ الأفق، لا صوت آخر ينازعها للبقاء، فاستجابت عضلاتُه أخيرًا لنداء عقلِه فنهض، مستجمعًا ما حدثَ معه منذ بضعةِ أيام لا يعرف عددها.

خرج بصحبة برهام النّوقي كي يقدّم له الحماية في مقابلَ أن يرشده إلى وادٍ به ذهب سيغترف منه حتّى يعود به لعروسه بمهرٍ لم يُهدَ لأحدٍ من قبل، كان شعارُه أنّ الأمير يجب أن يقدّم ما لا يقوى عليه أحدٌ آخر، تقدّم بفرسه القافلة، ودّع أباه الذي ساءت صحّته قليلًا، الطريقُ طويل، أوغلوا في الصّحراء، الأحداثُ تموج بها صفحات حياته، هجمة من بعض بدوٍ شاردين لكنّهم وجدوا فارسًا ذا ملابسَ سوداء مخاط على كتفه قطعة قماش أحمر فتراجعوا خائبين كي لا يلقوا حتفهم، ابتسم في ثقة وكذا سارَ فرسُه واثقًا في مشيته، سبع ليالٍ مرّت، أحاطت بهم الصّحراء من كلّ جانب، لهيبُ الشّمس وقيظها صباحًا، وفي الليل برودة تتصلّب منها الأطراف، حتّى عسكر الركبُ بجوار بئرٍ نافدٌ ماؤه، فلم يكنْ يكفي سوى يوم واحد للمبيت.

كيف رماه القدرُ في تلك البقعة دونَ أنيس، تائه في اللاموجود، يتقاذف العدم روحَه فيضيعها دون أن تجدَ لها مأوى، مازال جسدُه بعدُ لم يتخلّص

من عجزه وإرهاقه، لكنّ عقله يفكّر حتّى أصيب بالفزع حين أيقن أنّه قد ترك كي يضلّ الطريق فيموت في الصّحراء دون عناءٍ منهم، أبناء عمومته كانوا ثعالبَ متخفّية، أصيب بالحنق عليهم، وعاد الطّرق على رأسه شديدًا مدويًا، برهام صمّم على أن يعدّ لهم طعامهم، بضعُ لقيمات حتّى شعر بثقلٍ في رأسه، ثمّ خدر يسرح في سائر جسده فصار عاجزًا، ونام في مكانه دون أن ينتبه لهم.

جرارٌ قد رُصّت بعناية فائقة، وضعت على فتحاتها بعضٌ من الخيش وقايةً لها، بها الكثيرُ من اللفائف المهترئة؛ لذا حاول أبو الحسن- بمعاونة الصباغ- أن يحفظا الباقي من الضياع والاندثار، بيدٍ خبيرة حريصة أشدّ الحرص مدّ أبو الحسن يده كي يحاول أنْ يخرج لفافة أخرى، لكنّ جسماً صلبًا جرحَ أصابعه فتراجعت يدُه في حركةٍ لا إرادية، تنبّه عقله إلى تلك الدماء التي سالتْ بغزارة من جرّاء هذا الجرح في لحم يدِه اليمنى، لكنّه أراد أنْ يرى السّبب فكانت قطعة من الخشب ذات بروز قوي مدبّب أثارت رؤيتها الرغبةَ فيه ليعرف ماهيتها، فتساءل ممسكًا بأصابعه محاولًا أن يمنع نزيفَ الدّم، تمتم مستائلًا عن كنهها ليردّ عليه صباغ:

- تلك كرنافة!

كان قد سمع عن تواجدِ نماذج منها في بعض المتاحف، لكنّه لم يكنْ رآها من قبل.

دقّق النظر فوجد عليها حروفًا مكتوبة، للوهلة الأولى لم تكنْ تشكّل كلامًا منسّقًا ظاهرًا بالقدر الكافى، كانت بعض كلمات ممسوحة، وبعض أخرى لا ترابط مكانيًّا بينها، أمّا الباقي فلا يظهر منها شيء أبدًا، هُرع أبو الحسن نحو حقيبته بينما وقف الصّباغ يرى ما يحدث محاولًا أن يستغلّ تلك الرّاحة في

نفض غبارٍ قد طال كامل جسده وتخطّاه لينحل رئتيه فيسعل من وقتٍ لآخر، حتّى جاء أبو الحسن.. وكان قد أخرج نظّارة معظّمة كانت في حوذته وقرّبها من تلك الكلمات التي تآكلت بفعل الزّمن، رغم أنّ اللفائف الباقية كانت أكثر وضوحًا وظهورًا للكلماتِ منها، بينما يحاول أن يقرأ كان يدوّن بعض الملاحظات ويتمتمُ بها بصوتٍ مسموع، وكأنّه يحاول أن يفكّ شفراتها:

- السّطر الأوّل لا يحوي كلمات، يبدو أنها نقاط وإشارات لا معنى لها منفردة. السّطر الثاني تظهر فيه علامات الكتابة واضحة جلية، لكنّه يعاني أيضًا من بعض الكلمات التي لا يمكن فهمُها.

قالها ثمّ نادى على الصّباغ دون أن ينظر له بأنْ يناوله ورقًا وأقلامًا، وأن يقرّب منه المصباح كي يستطيع أن يكتب ما يراه، وقبل أن يبدأ قامَ بكتابة بعضِ الملاحظات كي تعينه على أن يفسّر تلك الكلمات المبهمة في أحيان كثيرة.

ملاحظات:

الأولى: الكلمات التي لا أستطيع تفسيرها سأضع مكانها ثلاث نقاط.

الثانية: الكلمات الممسوحة سأضع مكانها أربع نقاط.

ثالثًا: الكلمات التي لا تحتاج مراجعة وتدقيق سأضعها بين قوسين.

كتبَ تلك الملاحظات في كرّاسة، ثمّ بدأ في التحليل والكتابة:

والكاتبيت أمرًا.... ثمّ إنّ (هنالك)... انتهى السّطر الأول

....(فالمحرفات) حرفًا... انتهى السّطر الثاني

نذرًا مرجوةً أمْ أنّها معقولة.... أو ... يسرًا انتهى السّطر الثالث

....القائلات (ذكرًا) إنّ عذاب الإله لقابع.... انتهى السّطر الرابع

ثمّ إنّ الألم لواقع فصبرًا يا فعال شنائع....انتهى السّطر الخامس

انتهى من القراءة، نظر تجاه الصّباغ قائلًا له:

- لم أفهم كلمة.

- ولا أنا، ولا أدري ما الرابط بينهما!

فردّ عليه أبو الحسن:

- الكلمات لا تعبّر عن ترابط أبدًا.

ثمّ زفر قائلًا:

- حين كانت هناك لفائفُ كان الأمرُ أسهل؛ فالكلمات كانت أوضح، رغم أنها يجب أن تكون أقلّ وضوحًا لأنّها عرضة للهلاك عن ذلك الشيء الذي يدعى.

صمتَ أبو الحسن وكأنّ التفكير في مضمون تلك الكلمات قد أنساه اسمَ وسيلة التسجيل، فحاول الصّباغ أن يساعده بأنْ قال له:

- كرنافة يا أبا الحسن، تدعى كرنافة.

- نعم.. نعم، تلك الكرفانة، سنعود إلى تقصّي اللفائف تاركين ما سوف نجدُ من كرافين حتّى يحين دورُها وليس الآن.

يحاول أنْ يفرد جناحيه بمواجهة ريحٍ تهبّ في نهارٍ حارّ ذي رطوبة مرتفعة، ليس صقرًا حتّى يرتفع، ولا كندرة تبصر في الظلام بل مجرّد غراب تلوّن ريشة بأسود باهت، أعلن العصيان فأرادَ في يومٍ من الأيام أن يكون طاووسًا، وحين أبت قوانين الطبيعة أن تستجيب لرغباته الشّاذة؛ صار عليه أن يعود إلى سيرته الأولى، كان من العسير عليه أنْ يفعل، فظلّ يغالب نفسَه ويصارعها؛ يقفز إلى أعلى، يحجل في مشيته، فلم يعدْ يتميّز بشيء سوى صوته الناعق وكأنّه نذير الموت، لم يرتَدْ ذلك المكان من قبل، ورغم لونه الدّاكن إلّا أنّ الحرارة المرتفعة لم تكنْ أبدًا تناسب حياته، نظرَ إلى أسفل ليجدَ عددًا من الجمال قد أقيمت، وكأنّها تلال صغيرة تتحرّك، ليبصرَ بعينيه شخصًا يحاول أن يلفّ رأسه بأقمشةٍ على شكل أقبية كي يقي نفسه من شمسٍ قد افتتحت يومَها بحرارة لم تكنْ معتادة في تلك البقعة من الأرض في ذلك الوقت من العام، نظر له يونس وقد دهش من وجوده في ذلك المكان، فأشار لأخيه كي ينظرَ له، إلّا أنّ هناك شيئًا أكثر أهمّية كان يشغل تفكير الملّاح، تلك الرؤية لم تكنْ تنقطع عن عقله أبدًا، نظر إلى الخلف، كاد أن يقسمَ لنفسه أنّ العجوز قد ظهر رافعًا عصاه مودّعًا إيّاه، ذلك شبح قرّر أن يترك خلوته الليلية ليطمئنّ بأنّ الملّاح لن ينسى ما رآه منذ ثلاثة أيام.

- ماذا بك؟ لَمَ تنظر إلى الخلف مرارًا وتكرارًا؟

- لا تشغل بالك.

قالها الملّاح، ثمّ حاول أنْ يداري ملامحَ وجهه فاستطرد قائلًا:

- الأمر أبسط من ذلك بكثير.

أسبوعٌ متواصل من السير، ذكريات لا تنقطع، وصحراء تجبرُ السائر فيها على النّظر إلى الخلف دومًا، تمازج ما بين صوت الحداة أمام النوق يسيرونها وقائد يصيح باستمرار بأنْ ينتبه الجميع لينجوا، بينما فاس لا تغيب عن تفكيرهم، تلك المدينة بيضاء المباني، أدخنة الدخان تتصاعد برائحة لا تخبو من طيب طعام اختلطت توابلُه بلحوم ضأنٍ امتازت بها، البحر ينثر عليهم روائحَ العائدين من مشقّة ركوبه، يحملون ما يجود به عليهم مِن أرزاق، مِن العسير أن تغادر وطنًا عشتَ فيه أحلامك، لكنها الأقدارُ لا تترك فرصةً لأحدٍ كي يختار، بل تفرض عليه أمورًا لم تكنْ أبدًا في حسبانه، كم مِن نبيّ غادر أرضه لكنهم ليسوا رسلًا، بل مجرّد أناس رفضوا أن يكونوا أتباعًا لشخصٍ فرض القهرَ عليهم، تلك الخواطر تضرب رأس يونس، لينظر إلى الملّاح فيجده غارقًا في خواطره هو الآخر، ثوانٍ حتّى أتاهم صوتُ القائد مجدّدًا ليصيح في الجميع بأنْ ينظروا إلى اليسار، فقد لاحتْ من بعيدٍ أمامهم آلافُ الحجارة بالغة الضخامة قد رصّت بترتيبٍ متناسق لتظهر من بعيد على

هيئة مثلثات ضاربة أساساتها في جوفِ الأرض، كيف لبشرٍ أن يشيّدوها، ذهولٌ أصيب به الملّاح، والمرتحلون معه ومع يونس، حتّى أن تلك الأفكار عن فاس قد غابت لحظيًّا عنهم، بشائرُ المحروسة قد ظهرت، والطريق إلى الحجاز مازال طويلًا، فالعجائب لن تنتهي عندَ هذا الحد أبدًا.

نفد الماءُ منه، أمدّه ببعضٍ من العافية لتتيح له أنْ يسير بضعةَ أميال في اتجاه شروق الشمس علّه يصل إلى مجرى النيل فيتبعه حتّى يجد نجعَه، في شراهةٍ تلتهم الصحراء قوته، تستنزفُ روحه حتّى لم يعدْ قادرًا على السّير ليلقي بنفسه فوق كثبٍ رملي مرتفع، آخر ما رأى كانت غيوم تمرّ بأرقام لا تحصى، قاطعة قبّة السماء راكضة نحو المجهول تاركًا إيّاه يواجه- بمفرده- لهيبًا قد أثخن جسدَه ليتدحرج دون إرادةٍ منه حتّى غاب عن الوعي مجدّدًا، بضع ساعات حتّى طافت بالمكان قافلة صغيرة من ثلاثة أفراد، مرّوا على الطريق، توقّفوا لبعض الوقت طلبًا للراحة، نبّهت أنّات المختار مَن كان قد ذهب ليقضي حاجته، لملم نفسَه، ظنّ أنّ أحدًا يتجسّس عليه، لكنّه استرق السمع، اقترب والليلُ صارَ ظلامُه حالكًا، شخص تكوّر جسده من الألم، يحاول أن يبقى على قيد الحياة، هزّ رأسه علّه يفيق لكنه فشل، فهرع لإخوانه وعاد محمّلًا بقربةِ الماء، فضّها وأفرغ الماء منها في فمِه، قطرات حتّى عادت له بعضُ الحياة، فتح عينيه لكنّه لم يقوَ على البقاء طويلًا فأغمضهما مجدّدًا، حمله المسافر إلى قافلته، «أمامنا نحو خمسين ميلًا، هل ستقوى على حمْله؟»، تساءل أحدُ الراكبين فأومًا له الرجل بأنه سيفعل، ساروا لبضع ساعات أخرى، أصابهم إرهاقُ الصحراء ومشقّتها، هبطوا بجوار تلّة وأشعلوا النار، لم يكنْ

يهتمّ بسِوَى المريض التائه، قرّب له الماء مجدّدًا، فلم يعدْ باقيًا معه سوى القليل منه، آثر أنْ يحيا الغريب على أنْ يشرب هو، نام الجميع بعد أن زادوا من اشتعال النيران لتقيهم برودةَ الليل وغدرَه، لقد اختار أنْ يستمسك بالحياة فبعثت له من يساعده على ذلك، صباح اليوم التالي، استجمع التائه بعضًا من قوّته المنهكة، اقترب منه الغريب، جلس بجواره وقال:

- مِن أين أنت؟

- نجع السوالم.

- لم أسمع عنها من قبل، أين تقع؟!

- في الصعيد بالقرب فرشوط.

في تعجّب قال :

- أنت مِن مصر!

فردّ عليه بهدوء:

- نعم، وأنتم؟

- نرتحل بين بوادي الصحراء، العالم بأسره ملك لنا.

- أنتّ بدويّ رحّال؟

- بالفعل.

صمتَ المختار قليلًا قبل أن يسأل البدوي عن مكانهما، فقال له ضاحكًا في سخرية:

- لقد ابتعدت عن موطنك كثيرًا، قصّ لي عن رحلتك، وما أتى بك إلى هنا؟

تنهّد قبل أن يقول:

- ارْتحلت برفقة أحدِ المقرّبين الأوغاد من والدي، قصد أن يحضر جِمالًا له، بينما أردت أن أكيل مهرًا من الذهب لعروسي.

قاطعة الرجل قائلًا:

- يبدو أنّ لك شأنًا بين عشيرتك، أأنت ابن كبيرهم؟

في فخرٍ قال المختار:

- بالفعل.

باستهزاءٍ ردّ عليه:

- لكنّ الأمير لا يُترك وحيدًا.

في حدّة ردّ عليه المختار:

- أنتَ لا تعرف ما معنى أن تكون ابنَ أمير، أمّا أن تلهو بين الحريم أو تحمل سيفك، وتخرج على صهوة جوادك، لكنّ الغدر لا يفرق بين مَن اختار الدّعة و الراحة وبين مَن اختار أن يقوى.

- وأنت اخترتَ الحرب، أليس كذلك؟

- بالفعل.

مازال الرجلُ ينظر له ساخرًا وكأنّ تلك الحالة قد طبعت على وجهه، ثمّ أردف قائلًا:

- اخترتها فكنت خيارًا للصحراء والأرجح أنّ النجع صار ملكًا لأحدٍ غير والدك، أتعلم أنّ موتك كان محققًا؟ معجزة أن نمرّ من هنا لا تتكرّر، عاصفة أجبرتنا على تغيير مسارنا فقط لتنجو من الموت.

- يا الله!!!

- لقد تركوك لتموت يا صغير.

تغاضي المختار عن كلمة «صغير» قبل أن يقول:

- أفهم مقصدك من الحديث، وأغلب الظنّ أنهم فعلوا، استيقظت دون أنْ أجدَ أحدًا حولي، وكأنّ الخدر قد ضرب أوصالي؛ فلم أشعرْ بهم حتّى وهُم يتحركون.

ضحك البدوي بصوتٍ عالٍ قبل أن يشير إلى شجيرة شبه خشبية رمادية أوراقها مُخضرة مائلة إلى البياض في وجهها الداخلي، لا ترتفع لأكثرَ من قدميْن، تعلوها أزهارٌ عنقودية صفراء، تغطّيها أشواك تظهر من بعيد؛ قائلًا:

- بدوي كان يصحبكم فوضعَ لك في الطعام بعضَ سوائل من تلك النّبتة، وأشعل النار حتّى اختمرت.

قبل أن يكملَ حديثه كان مختار قد تذكّر حين غاب عن المعسكر ليستطلعَ المكان، عاد ليجدَ صحن الطعام الخاصّ معدًّا، لم يكنْ يشعر بأذى ذلك الثعبان يتسلّل لادغًا إيّاه، أثارت تلك الأفكار انفعالَه؛ فحاول أن ينهض على قدميه مقاومًا إنهاكه، لكنّ جسدَه المرهق لم يقوَ على أنْ يطاوع عقله، فقال له:

- لن يفلت منّي هذا الكلب، وحين أعود إليه سيكون في قبضة يدي.

في سخريةٍ قال له بدويّ آخر كان قد انضمّ لحديثهم:

- ومَن قال إنك ستعود؟

في اندهاشٍ ردّ عليه المختار:

- ولِمَ أبقى؟

لم يكدْ يكمل عبارته إلَا وفوجئ بيدٍ تلتفّ حوله من الخلف ليستقوى ثلاثتهم عليه حتّى ربطوا معصميْه وكوّموه على الأرض بعد أن حاول

مقاومتهم، لكنّ كثرتهم كانت غالبةً فأصبح عاجزًا عن الحركة، حينها نهض البدويّ من مكانه محدّثًا ثالثهم:

– مكافأته ستكفينا لأشهرٍ دون أن نشعرَ بجوع أو تعب، لا بدّ أن نساوم على رأسه أيّ طرف يرغب فيه، أمّا أن يعيش أو نرسل لأبناء عمّه رأسَه ونقبض الثمن.

ثمّ وجّه حديثه نحو المختار:

– اهدأ؛ كي لا تنهك كثيرًا، فجثمانك دون روحٍ لن يعني سوى طعام لكلابي.

قالها، ثمّ نظر إلى ثلاثة كلاب يبدو أنها فهمتْ أنّ الحديث يدور عنها؛ فرفعت آذاناها نحو الأعلى.

اللّفافة العاشرة

أتدرونَ ما الموت؟ تلك بدايةٌ أبدًا لا يراها أحدٌ من البائسين، جميعُ مخاليق الأرض سوف يذهبون إلى هناك؛ حيث الظلام الدّامس، والنور الذي لا يُضاء أبدًا، لكنّ عبادي لن يكونَ بينهم أموات، فقط باب لايعبُرُ أحدٌ من خلاله قبل أنْ آذن له بذلك، الطّائع الناسك الراكع المتقبّل لنسلي وحقيقة وجودي هو القادرُ فقط وأبدًا على أنْ يركب معنا إلى هناك، حينها سيذهب إلى أرض الخصب، أطفاله سيلهون مِن حوله، سيجامع حورًا ولّادة، سيملأ الزّهاد أرحامهم بأجنّةٍ لن تبقى مخبوءةً لفترةٍ طويلة، أمّا عواقب عصياني فكما الدّنيا ماء لا يروي، وأرض لا تنبت، وزرع ستأتي عليه الريح؛ ستدخلون جحيم الفناء، وحين أنتهي منكم سأضرب بمزماري لحنَ الجفاف.

فآمِنوا لتأمَنوا، تأفّفوا دون كفرٍ بي، العاقبة لديّ أقوى من مجرّد الخروج عن الطاعة، ولتذكروا دومًا أنّ الماء مائي، والولد لي، وفروج النساء مشاعٌ لنا، أمّا أرحامهنّ فتظلّ رمزًا للخلود، ملكًا لي وحدي بحقّ إلهي لايتغيّر، إلهٌ جاء إليكم من بعد الظلمات لأكون لكم واحدًا فردًا صمدًا إلهًا، لا بعده أحد.

غطّت عينيها رموشٌ تكتحل بلوْن التراب، نظراتٌ صامتة بها من الجمودِ ما يخفي ألمًا بداخلها، تشعرُ بالقهر من كثرة التعرّض لضرب مُبرح طوال المسير، أناخها الهجّان في قسوة اعتادت عليها، أمسك بعنانها، وبذات العصا التي تركت أثرًا عليها؛ ظلّ يضربها حتّى أناخ ركبتيها الأماميّتين، وظلّت على هذا الحال حتّى بركت على الأرض.

- ستنتقم منه إذا سنحت لها الفرصة إلى ذلك.

قالها يونس الذي هاله المنظرُ قبل أن يردّ عليه الملّاح بسخرية قائلًا:

- للجَمل خصالٌ لو علم بها الناس لارتعدوا خوفًا منها.

- مثلك يا ملّاح!

ابتسم الملّاح في دهشة، وتساءل:

- وكيف هذا؟!!

ليردّ عليه يونس:

- لا أدري، لكنّني أشعرُ بك كثيرًا تحوي بداخلك الكثيرَ من الألم، وعاءٌ لا يظهر وجهٌ له، كلّما حاولت أن أتعرف عليك ورغم أنك أخي لا أعرف أبدًا، لكنني أشعر بأنّ الساعة حين تحينُ سوف تجرف أمامك الأخضر واليابس

منتقمًا من الجميع دون أن تستثني أحدًا أو تُبقي على روح، كموجةٍ ستجرف أمامها السفينة دون تفرقة بين بحارة وحطام الجميع مذنبون، ويجب عليهم أنْ يدفعوا الثمن.

مازحًا قائلًا:

- إنْ وقع إنسان تحت يدي سأجزّ عنقه.

إلّا أنّه عاد للحديث بصورةٍ جادّة، وعيناه تتابعان ما يجري مع النوق، وقال:

- الموت لا يخيفني، لكن أشدّ ما يرعبني أنْ أموت على يدِ أحدِ الأوغاد فينقطع ذكري، ثمّ إنّ نوائب الحياة قد تدفعنا أحيانًا لنخلعَ عن أجسادنا مُسوح الرّهبان والعبّاد، فنرتدي أثوابَ الشياطين فقط لنستطيع أن ننجو.

قاطعتْهُ نظرةٌ من يونس، لكنّه أردف:

- لنْ أنسى ما مرّ، وحتمًا هناك شخصٌ سيدفع الثمن.

اقترب منهما قائدُ القافلة، قاطع حديثهما قائلًا:

- سنبقى بالقاهرة أسبوعًا لا أكثر، إنْ كانت لديكم الرغبة سترتحلون بعدها بصبحة المحْمَل إلى الحجاز، أمّا الآن فعليكم أن ترتاحوا، الحوانيت مُنتشرة بكثرة، فانتقوا منها واحدًا ولا تبتعدوا.

- وأحمالنا؟

- لا تقلقوا بشأنها، ستكون محفوظةً دون أن تمتدّ لها يدٌ عابثة.

تشاورَ يونس مع أخيه الملّاح، قرّروا أنْ لا يتوغّلوا إلى قلب القاهرة تجنّبًا لأيّ متاعب قد تصادفهم دون قصدٍ منهم، ساروا قليلًا حتّى وصلوا إلى السّور المعروف بالسّور الكبير، هالهم المشهدُ، أصيبوا بالدهشة من روْعته، لكنّ أشد ما ذهلوا بسببه كان تلك الجثامين التي كانت معلّقة بخطاطيف في أعلى حلقِ بابٍ ضخم، وقفوا ينظرون لها، ذكرتهم بما حدث في فاس، مرّ بهم مكاري يسير بجوار حماره، رآهم يحملونَ بعض الأشياء فوقف يعرض عليهم خدماته.

التفتوا لذلك الذي قطع دهشتهم، ذو طولٍ متوسط، جلبابه كمونيّ اللون، جسده نحيف، وإنْ كانت متانته ظاهرةً عليه، بشرتُه داكنة فتلتمع أسنانُه حين يفتح فمَه بالحديث، شارب أسود كلوْن خصلة الشعر التي خرجت من أسفل عمامته، سأله يونسُ عنهم، فردّ بأنهم تجّارٌ غضِبَ الوالي عليهم؛ فأمرَ بأن تؤرجح أجسادُهم على باب زويلة.

في ذهولٍ سأل الملّاح:

- أهذا بابُ زويلة؟!!

فردّ عليه المكاري في عدم اكتراث:

- نعم، هل تعلمون عنه شيئًا؟

تردّد الملّاح في الردّ، لكنّ يونس قال له:

- سمعنا عنه حين حاول التترُ دخولَ مصر.

تلك قصةٌ قديمة مرّ عليها دهورٌ كاملة، قصّ لي جدّي أنّ أجساد رسل كتبغا لم تبقَ سوى يومين قبل أن ينتهي الطير من نهشها.

حاولا أنْ يظهرا عدم الاهتمام كي لا يتمادى في حديثه معهما، فقال الملّاح:

- حسنًا، نريد خانًا نبيت فيه ونتناول الطعام.

في لهفةٍ ردّ المكاري:

- كم ليلة؟

- أسبوعًا كاملًا.

بسرورٍ قال:

- إذًا، هاتوا تلك الأحمال عنكم، واتبعوني.

وقبل أنْ يناولوه أحمالهم، سأله يونس عن اسمه؛ ليردّ عليه وهو يمدّ يده كي يحمل أغراضهم:

- ناديني بـ عمّ الدّماطي.

يسأله الملّاح قائلًا:

- هل لك أنْ ترشدنا إلى سوقٍ نشتري منه بعض البضائع.

- ستبيعونها في الحجاز، أليس كذلك؟

بتعجّب سأله يونس:

- وكيف علمت؟!

ردّ عليهم بابتسامةٍ خُيل إليهم أنّها هادئة مريحة كشاطئ بحرٍ لا موج غادر فيه:

- عمّ الدماطي لا يخفى عليه شيء، تتّفقون مع أصحابها على عمولة، ثمّ تأخذونها لبيعها في الحجاز.

- حسنًا لتأخذنا إلى هناك.

قالها يونس قبل أن يردّ عليه دماطي متسائلًا بنظرةٍ خبيثة متلهفة ليست كتلك الابتسامة التي كانت على محيّاه منذ ثوان معدودات:

- هناك عمولة سأحصل عليها؟

- بالطبع.

ردّ عليه يونس ليقول له دماطي ناصحًا:

- إذًا، لتكثروا من التوابل، فسوقها رائج وبيعُها يسير.

- ها قد بدأ العمل سريعًا.

قالها الملّاح، ثمّ ساروا معه عبر حَوارٍ ودروب يعلم خباياها، انتشرت بها الحمّامات والحوانيت التي تحوي في مداخلها أجولة البضائع، يتطلّعون بعيون يملؤها الانبهار لتلك المآذن التي لا تحصى ولا تعدّ حتّى رأوا موكبًا من فرسانٍ يهرولون في سرعة وقوّة، تنحّى النّاس جانبًا كي لا يتعرّضوا للأذى، تأفف الملّاح ويونس، «مولاي إسماعيل له نسخٌ عديدة في كلّ بلد سنرتحل إليها».. قالها يونس هامسًا كي لا يسمعهم مرشدُهم، عليهم أنْ يتعلموا أنْ لا يتورّطوا، فشاهدوا في صمت تلك اللعنات التي صبّها المارون على هذا الموكب، وصلوا إلى السّوق، توقّعوا أنّ يكون الشراء صعبًا لكنّ دماطي ساعدهم، حصل على نصيبه مقدّمًا، غادر ثلاثتهم، أوصلهم إلى الخان الذي كان يقعُ بجوار مكانٍ سألوا عليه، فأشير لهم بأنّه مقام الستّ نفيسة، تسلّل لهم شعورٌ بأنّ البركة ستلازمهم، دخلوا، وبعد أن تسلّموا غرفةً للمبيت، غاصوا في النوم من شدّة الإرهاق.

لم يدرِ كمْ من الوقت قد مرّ عليه هنا وهو يصارعُ الموت بما تبقّى في أمله مِن روح، غطّى الرّمل جفنيه، نفض رأسَه ليتخلّص مما تراكم فوقهما، ألمٌ كاد يغرق عينيه في الظلام، أو هكذا خُيل له حتّى تبيّن بعض النّجوم الكسلى بدت تلوحُ في الأفق، شعر بوخزٍ يجتاح بضعَ أجزاء من جسده فتحسّس أماكنها لتغوص يدُه في لزوجةٍ من أثر صراعه الأخير مع تلك الكلاب التي حاولت نهشه، حاول أن يتبيّن كمْ من الدماء نزف لكنّ الضوء المرهق ونظرةَ المتعب حالا دون ذلك، اكتفى فقط بأن يشتمّ رائحة دمائه متذوقًا طعمَها النحاسي عبْرَ لعْق أُنملة أحدِ أصابعه، مستندًا على يده اليمنى حاول أن ينهض إلّا أنها غاصت في الرّمل، بل ونفذت منه طاقته كليًّا كي تعينه، ليلٌ بهيم يطول أمامه، بضعة أمتارٍ زحفها وهو يجرّ رجليه حتّى استطاع أخيرًا أن يستندَ على جذعِه لينهض مستطلعًا تلك الكثبان المبهمة التي لا تشير لأيّ معالم حياةٍ مرّت من هنا، أغمض عينيه مجددًا من شدّة الألم وسطَ خيالات وبردٍ يسري في عروقه، بهواءٍ يحمل صقيعًا متجمّعًا حول أنفه فيكوّن عليها طبقة جليدية سرعان ما تذوب بفعل أنفاسه الساخنة فيشعر باختناق الغرق من جرّاء امتلاء أنفه بالماء، فتح عينيه كغريق يتشبّث بالحياة، أصاب الخبالُ عقله وحرارة الشمس قد حلّت محلّ تلك البرودة، بينما يقترب أحدُهم منه ليُخرج من فمه شيئًا

يمضغه واضعًا إيّاه في فمه مقطرًا عليه بضعَ قطرات لتحترق وجنتاه من شدّة اللّهب الذي صار عليه أنْ يحتمي منه وسط عجزٍ تامّ وألم لا يحتمل، وجد أنّ السماء تسير في عكس اتجاهه، لم يكن قادرًا على أن يميز ما به حتّى تفتّق ذهنه المضني بأن جسده يتهدّل في بطء محمولاً فوق ناقلة يسحبها شخصٌ ما لا يظهر منه ملامح في الظلام، تحسّس ذراعه اليسرى ليجد ضمادة تخرج من تحتها بعض الأعشاب، تأوّه في وجع فانتبه الرجلُ إلى صوته وتوقّف، جثا على ركبتيه، اقترب منه قائلاًبلهجةٍ تحذيرية:

– لا تلمسه كي لا يتلوث، حينها سنضطرّ لبتره كليًّا.

أومأ له المختار بعينيه، بينما عقله يرى أناسًا تحاول أن تلحقَ به وبأبيه مهدّدة إيّاه بأنّ القتل سيكون مصيره، ثمّ أردف الرجل قائلًا:

– حاول أن ترتاح قليلًا، لقد نزفت الكثيرَ من الدماء، وكنت على وشك الموت.

عاد الرجلُ ليسحب الناقلة، بينما بعثت تلك العبارة في رأسِ المختار ذكريات ما حدث معه منذ أيام لا يعرف عددها، قيّده البدوي بإحكام، كانوا ثلاثة حتّى غادرهم واحدٌ بصحبة أحدِ الكلاب فصاروا اثنين، تغيّرت معاملتهم معه، أمدّوه فقط ببعض الماء كي يظلّ على قيد الحياة، يسيرون على هدي مَن حُفرت دروب الصحراء في رأسه دون أن يضلّ الطريق، بضعة أيام وسيتمّ تسليمه، أمّا برأس لا يستطيع رفعها خجلًا أمام أبيه، أو برأس

مذبوح إلى ابن عمّه، فعليه أن يهرب من العار أو القتل، استغلّ نومهم، زحف بجسده تجاه النّيران، أحرق قيده واحترقت يداه، كتم صرخاته المتألمة، وما إنْ تحرّر حتّى انقضّ على واحدٍ منهم، انتقى الأكبر وهاجمه بحجرٍ انهال به على رأسه حتّى قتله، أمّا الآخر فقد هرع تجاه كلابهم، حلهم وهيج واحدًا على المختار ليمزق لحمه.

عاود الألم زيارته حين قام الرجل بتبديل ضمادة جرحه، فتذكّر المختار تلك الأنياب وهي تنهش فيه محدثةً هذا الجرح الغائر، ظلّ يقاوم حتّى قام بفقء عيني الكلب، فتراجع وهو يعوي من شدّة الألم قبل أن يخمد صوته بعد أنِ انهال المختار على رأسه بحجرٍ فهشّمها، أمّا الثاني فعوى عواءه الأخير قبل أن يفرّ هاربًا بصحبة البدويّ الآخر، تحسّس جرحَه النازف، سار بضع خطوات، أغميَ عليه، أفاق ليجد نفسَه محمولًا على تلك النقالة.

- إلى أين ذهب عقلك؟

خاطبه الرجلُ بصوت واضح ورؤية مشوشة. لم يكن في مقدورِ المختار أن يردّ رغم أنه حاول، فعاجله الرجل قائلًا:

- حسنًا، لا تتحدّث، قريبًا ستستعيدُ عافيتك، وستشرب الماءَ الشافي لكلّ مرضٍ لا شفاء له.

انقضى أسبوعُ راحتهم، انصبّ اهتمامهم على استكشاف القاهرة ومعالمها، وبجولة اعتيادية يومية برفقة دماطي ساروا بعيون لم تنقطع عنها الدهشة.

- مقامات أوليائهم كثيرة تفوقُ عددَ الأحياء منهم.

مازح الملّاح يونس الذي ردّ عليه قائلًا:

- لو كان زَوْج ابْنَة البرابيش حاكمًا عليهم لفرض على كلّ قبرٍ ضريبة لكثرتها.

تبادلا الضحكات معًا حتّى راع انتباههم مجموعةٌ من الناس يقفون ملتفّين في حلقةٍ دائرية الشكل، فطلب الملّاح من دماطي أن يسير نحوهم ففعل.

- دعنا نعود إلى الخان.

زجره يونس ليمنعه ويعودا، فردّ عليه الملّاح راجيًا إيّاه:

- هلمّ يا يونس لنرى على ماذا يجتمعون!

في تأفّف، نظر له يونس وقد زفرَ في نفاد صبرٍ قائلًا:

- غدًا ستتحرّك القافلة، علينا أن نستعدّ ونجهّز أمتعتنا.

لكنّ الملّاح ردّ عليه وقد تعلّقت عيناه بالنّظر إلى تلك الدائرة:

- لن نتأخّر، أعدُك بذلك، سنرى ما الأمر ونغادر سريعًا.

ثمّ نظر إلى دماطي الذي أوقف حمارَه في انتظار أنْ تنتهي تلك المداولة وغمز له، ثمّ قال:

- هلمّ كي لا نتأخّر.

ثمّ نظر إلى يونس مكملًا أمرَه:

- أسرع بنا حتّى لا نستغرق وقتًا.

بمجرد أنْ وصلوا حتّى ترجّلوا، ساروا بضعَ خطوات مخترقين تلك الدائرة، قفصٌ ذو شكلٍ دائري لا سقف له، دقّقوا النظر عبْرَ فتحاته ليصابوا بالذهول، كائنٌ لم يروا مثلَه من قبل، جسم طويل يتجاوز الاثني عشر قدمًا، أربع أرجل صغيرة، فمٌ طويل تتدلّى الأنياب خارجه لكثرتها وحِدّتها، ذَنَب ضخم وسميك، وحراشف تغلّف كامل الجسد، عيناه ينبعث الموت منهما، تتحرّكان لتثيران الإعجاب والفزع في آنٍ واحد، في حركةٍ بطيئة يزحف ليصلَ إلى نهاية القفص فيفتح فمه بصوتٍ عال فينتفض الواقفون رعبًا مُتراجعين للخلف وسط قهقهاتٍ من رجل أسود طويل، داكنٌ لونُه، يرتدي سروالًا أبيض يقف بجذع عارٍ لامع ويغطّي رأسه بطاقية بيضاء بنفس لوْن سرواله، مالَ يونس إلى أحدِ الحاضرين قائلًا:

- ما اسم هذا الشيء؟

ردّ متأفّفًا لمقاطعة يونس له:

- اسمه تمساح، ألم ترَ مثله من قبل؟

- في حياتي لم أصادف مثل هذا النوع من الحيوانات!

في لهفةٍ قال الملّاح حاشرًا نفسه:

- مِن أين تأتون به؟

زاد حنقُ الرجل، لكنه أجاب وعيناه لا تغادران القفص:

- يصطادونه من الجنوب، مِن بلد تدعى النوبة.

ثمّ أردف قائلًا، وقد أشار إلى الحارس:

- هذا هو صاحبه، يقال إنّه لا يأتمر إلّا بأمره.

بمجرّد أنْ قالها حتّى تحرّك الحارس نحو القفص ليفتح ما يُشبه نافذةً علوية فيه، مدّ يدَه إلى قفصٍ مملوء بدواجن ذات ألوان مختلفة، التقط إحداها وسْط كأكآت خوفٍ منهم، ألقى بها داخل القفص لتحاول أن تهربَ من فكي التمساح الذي انقضّ في سرعةٍ مجهزًا عليها ملتهمًا إيّاها، فصفّق الحاضرون، وقام كلّ واحد بإخراج درهم مُعطين إيّاه لولدٍ صغير مرّ عليهم، وكذلك فعل الأخوان، حتّى غادروا وعلى وجههم علاماتٌ من الدهشة، قاطعها دماطي بلهجة مُغرية محفزة قائلًا:

- لم تروا بعْدُ أشياء كثيرة، بإمكاني أن أرشدكم لأماكن أكثر إثارة.

فردّ عليه يونس في حزمٍ لما رآه في عينِ أخيه من رغبةٍ في أن يذهب إلى تلك الأماكن:

- سنغادر في الصباح، لو عدْنا مجددًا سنرى ما ترشدنا إليه.

مطّ دماطي شفتيه في عدم اكتراثٍ، ورفع كتفيه إلى الأعلى قائلًا:

- كما ترى.

ساروا حتّى وصلوا إلى الخان، وكان العصر قد حان أجله، ودّعهم دماطي، كان مرشدَهم لأسبوع كامل «حين تعودون اسألوا عن دماطي كي يصحبكم».. قالها بعينين دامعتين وهو يهمّ بالمغاردة مصطحبًا حماره، لا يدْرون لِمَ شعروا بطمأنينةٍ تجاهه رغم لهفته أحيانًا على انتزاع بعض الأموال منهم مقابلَ أن يؤدّي لهم بعض الخدمات، ربما لأنه كان في مثْل عمر والدهما، انتهى لقاء الدّواع بينهم فدخلوا كي يتجهّزوا للرحيل في اليوم التالي.

اللّفافة السابعة

أخرج لفافةً أخرى، لم يكنْ بها علامات تميّزها عن غيرها، فقط تحمل بضعَ كلمات بسيطة، وكأنّ الكاتب لها قد قصدَ أنْ يسجع كلماتها..

«إلهنا واحدٌ أحد، إلهنا فردٌ صمد»

ثمّ بضع كلمات وكأنّها تصف أمرًا في هيئة طقسٍ إلهي:

«يجلسون في أشكال نصف دائرية، بحركات محمومة متراوحةٍ ما بين الاتّجاه يمينًا ويسارًا للأجزاء العليا من أجسادهم، يتبتلون نحو النخلة، يحمل كلّ واحد منهم طلعَ نخلٍ في يده اليمنى، يضرب بها رأسه؛ لذا ما بين لحظة ينتشر السّعال بينهم، ويتزايد تدريجيًّا لعطسٍ ودموع، لكنهم ورغمَ ذلك يردّدون أبياتهم في خشوع تامّ لا يشعرون بأيّ ألمٍ أو رغبة في إنهاء ذلك الطقس الغريب».

سطرٌ مخفي في اللفافة لا تظهر منه كلمات، أو ربما تُرك فارغًا فكان للرطوبةِ أثرٌ في أن تترك عليه علامات، وكأنّها كلمات كانت مكتوبةً ومحاها الزمن، لكنّ الباقي أوضح مما يعلوه..

«أيها الرّازق خيرًا فلترزقني، أيّها المانح ولدًا فلتمنحني، هبْنا من لدُنك حياة لا نشقى بعدها أبدًا، قد بلغتْ بهم درجات العبادة حدّ النسّاك والزهاد».

انشطرت ظلماتُ الليل لتنجب مِن بين أحشائها شمسًا حمراءَ اللون ذات شكلٍ أقرب إلى البيضاوي عن الاستدارة، حينها دوّت صرخات مستغيثة من بيْن جنبات الخان، ظهرَ ظلٌّ لصغير يهرع من موتٍ يلاحق روحه، أتتْ أشباح الخوف أكْلهَا لينهض الجميع في فزع لا يدْرون ما الخبر، طرقاتٌ سريعة على باب بعض الغرف كي توقظ النزلاءَ من سباتهم العميق.

صوتٌ ليس بالغريب، فهو قريبُ الشبه من صوت دماطي يقول ملتاعًا:

- «اهربوا، انجو بأرواحكم، غلّقوا الأبواب ولا تفتحوها».

صرخة أعقبت تلك العبارة، وخمدت الحركة قبل أنْ تنهال طرقاتٌ عنيفة، فنظر الملّاح مفزوعًا نحو الباب ليجدَ أخاه وقد حاول أن يسندَ الباب بجسده ويمنعه من التهشّم، هناك مَن يحاول في استماتةٍ من الخارج أن يقوم بذلك، لكنّه لم يقوَ على الصّمود كثيرًا، فمطارقُ عنيفة حطّمت المكان واقتحموه عنوة، بعض رجال أشدّاء ذوي بشرة بيضاء مشربة بالحُمرة، يتقدمهم رجلٌ قصير القامة شديدُ البؤس يظهر ذلك من تلك الملامحِ القاسية التي خطّتها علامات الزّمن على وجهه، أشار بيده نحو الملّاح فاندفع اثنان من رجاله

شاهرين خناجرهم حادّة النّصال، جذبوه من ملابسه، وببأسٍ شديد أمسكه أحدُهم مقيدًا إيّاه ورافعًا إلى أعلى، حاول الملّاح مقاومةَ الغدر ولكنّه عجز أن يفعل، فقد أصيب بشلل تامّ وعجزٍ عن الحركة، هبطوا به درجات السّلم المؤدّي إلى فناء الخان مقيّدين يديه من الخلف، وما إنْ وصلوا إلى البئر حتّى دوّى صوتُ فتاة تصرخ محاولة الهرب، كانت ابنة لأحد النزلاء وقد تمّ ذبحه لتترك هي في عراءِ الوحدة مع ضباع نهمةٍ للحم فهرولتها المرتعدة لم تكنْ كافية لتنجو بنفسها، أمسكها أحدُ هؤلاء الجند، ظلّت تبكي بين يديه بينما تولّى آخرُ مهمّةَ أنْ يمزق ملابسها فلم يعدْ يستر عورتها سوى تلك الدّموع التي تساقطت بغزارة على جسدها الذي تعرّى بالكامل.. ظلّ جسد أحدهما يعلو ويهبط في حين كانت صرخاتها لا تنقطع أبدًا، وما أن انتهى حتّى نهض مِن عليها ثمّ أخرج خنجرًا ليشقّ جسدها الضئيل إلى نصفين مخرجًا أحشاءها؛ ليحاول الملّاح أن ينادي على أخيه فوجده مقيّدًا بفصار جسده هو الآخر مشلولًا، ثوان حتّى انغرس سكين في صدر يونس، ثمّ أمسكت يدٌ برأسه بعد أنْ خارت قواه وهوى ساقطًا على ركبتيه، يحاول أنْ يتماسك بينما كان يتأوّه محتضرًا مخرجًا روحَه ينازع الموت، لم يعطوه فرصةً للنجاة، فصلتْ تلك السّكين رأسَه عن الجسد، تلاشت الأرض تدريجيًّا من تحت أقدام الملّاح، شعرَ أنه سيغوص في عالمٍ آخر، تمنّى أن يحدث ذلك إلّا أنّه ألقي في البئر ليحيط به الظلام والبرودة، وينتقل إلى مرحلةٍ أخرى من العذاب،

فالبئرُ لم يكنْ جدارها ذا نتوءٍ تساعده على أن يصعد، صلدة زلقة لم يستطع حتّى أن يتشبث بها أبدًا، صرخاته تخرج في وجَل، زاد الأمر سوءًا حين سدّوا المدخل بحجرٍ ضخم منع عنه بصيصَ الضوء، حاول عقله أن يعالج الأمرَ في سرعة قبل أن يموت محبوسًا في ذلك المكانِ الجاف البارد كجانبٍ مُظلم من جهنّم لا ينقصه سوى أن تمتدّ له ألسنة النّيران لتشتعل فيها نيرانُ العذاب، لا يعرف لمَ يشعر ببعض الرغبة في أن يصدمَ رأسه بالحائط، قد تكون رغبة مخفية تولّدت لديه ليقتل نفسَه، حتمًا لن يفعل، فجلسَ على الأرض، ذلك شعاعٌ من ضوء أبيض، حاول أن يمدّ نظره على امتداده علّه يرى شيئًا من الخارج لكنّ الصوت كان كما الرؤية لا وجودَ لهما، مرّت عليه بضعة نهاراتٍ وبضع ليالٍ، لا يعرف كيف قدرها سوى أنّ خيطَ الضوء كان يقلّ حتّى ينقطع، ثمّ يمرّ الوقت ليأتي ثانية، محاولاته للصعود لم تكنْ تنجح كما أنه لم يكن يكتفي منها، وفي كلّ مرّة كان يشعر بألمٍ أشد، كيف له أن يتخلّص من تلك الورطة.،وحتّى إن صعد هل سيكونُ لديه قدرة على الهرب من هؤلاء القتلة، ذلك المكاري الوغد حتمًا أبلغ عنهم، الطّغاة من الحكام غالبًا يتّخذون صفّ بضعهم البعض، وفي النهاية كان أخوه هو الضّحية، وحتمًا بعضُ الهاربين ممّن حاولوا الاختباء والذهاب إلى الحجاز مثلهم.

استسلم لنوم تمنّى أنْ لا يستيقظ مِن بعده أبدًا، فأتى له يونس حاملًا رأسَه على كفّه، مدّ له الرأس فنظر لها الملّاح في رعب وخوف.

«الحقّ أن تموت، لكنني أبقيت عليك كي تثأر لنا جميعًا».

في سكونٍ وعدم تصديق تحسّس الملّاح شفتي الرأس ليجدَها تتحرّك متكلّمة، وتكرّر تلك العبارة، أيّ جنّ هذا تلبّس الجسد ليجبر الرأس على أنْ تغادره، فأصيب بذعرٍ جعل اللعاب يسيل على ملابسه من الخوف، فلم يعدْ قادرًا على أن يتماسك فخرّ على الأرض وقد أغرقه الخراء، والذي لكثرته قد لوّث المكان بأكمله، فصار كبحيرة تغوص فيها قدماه، إلّا أن يدًا أتت له من العدم امتدّت له، بيضاء بارزة عروقُها، نظر إلى أعلى ليجد فتاةً قد اتّشحت بالسواد، ورغم ذلك ملابسها داكنة اللون، إلّا أن اللون الأبيض لبشرتها قد طغى بشدّة فأضاف لها غموضًا أنثويًّا جعله يشعر بأنها لا تمتلك من القوة ما يكفي ليرفع جسده فكانت عكس ما توقّع، إلهة أطلت عليه ذات جمال وقوةٍ وعزم حتى حين اقترب منها شعرَ وكأنّ نورًا ربانيًّا يشعّ منها، وعلى حين غرّة ركضت مُبتعدة عنه، فركض خلفها، عجز أن يجاريها. جلس على الأرض يلهث من فرط الحركة، أمطرت عليه السماء، فغسلت روحه بعض الشيء، لكنّ الأمطار قد زادت عن الحدّ، سوء الطالع يطارده مرارًا فلم يعدْ يجد مكانًا يحتمي به، حاول أن يبحثَ عن مكان كي يختبأ فيه، إلّا أنّ العراء كان مِن حوله ويمتدّ نحو الأفق، فلم يعدْ يرى غيره في وقتٍ تشوّشت فيه الرؤية من كثرة هطول المطر.

لم يعدْ يرى شيئًا، الوحلُ يزيد من قسوة الأمور وسوئها، وتلك الحرارة التي زادت كانت عاملًا إضافيًّا ليشعر الملّاح بضعفه، فقد أحالت قطرات المطر النديّة لأبخرةٍ ضبابية كثيفة لا يرى بسببها، متحسّسًا طريقه ومادًّا ذراعه أمامه، سارَ على غير هدًى، لا يدري مِن أي مكان يتحرك.. وإلى أي مكان يذهب!! تاه في الضباب المطبق، لا يجد سلوى من ذلك الألم، فيرتعد خوفًا ويصرخ ليناديَ على مَن يدلّه على الطريق دون جدوى، حوتٌ يخرج من تحت الأرض، حين ركب إحدى السفن ذات مرّة رأى واحدًا مثله بذات نفس اللون الفضي وتلك العيون الميتة ذات السواد، التهَمَ جثة بحار ألقوه في الماء بأمرٍ من رئيس السفينة خوفًا من نشْر مرض أو حمّى بعد أن مات ببثورٍ انتشرت على كامل جسده، أمسك الحوت بقدمه، حاول أن يجذبه تجاهه نحو الأسفل، وكأنّ الوحل قد صار بحيرة يخرج منها عددٌ من الوحوش الكاسرة، بكلّ ما أوتي من قوة ضربَ على رأس الحوت، لكنّ أنياب الحوت ظلّت ممسكة به، بينما ظلّ هو يبحث عن وسيلة ليتخلّص منها، فوجد قطعة حديدية، مدّ يده محاولًا الوصول إليها دون جدوى حتّى جاءت له النّجدة في هيئة تمساح ذي طول يصل بذيله إلى آخر الأرض، انفتح بابُ القفص، العبدُ الأسود يبتسم ويشير للتمساح أنْ يهاجم فانقضّ بفكّيه العريضيْن على جسد الحوت ممزقًا لحمَه، شاطرًا إيّاه إلى نصفين، بينما الملّاح يراقب ما يحدث متقوقعًا حول ذاته باحثًا حتّى دفْء بين يديه، انتهى التمساح من إنقاذه،

ثمّ أغمض عينيْه وفتح فاه ليعشّش طائر ذو حجم ضئيل بداخله بين تلك الأسنان التي كانت تحوي بقايا لحوم تكفل الطائر بتنظيفها، دُهش الملّاح فنهض في حذرٍ مقتربًا في خفّة حتّى صار في مواجهة فكّ عجز عن عدّ أسنانه حين فتح التمساح عينيه فجأة منقضًّا على رقبته، ممسكًا إيّاها، وبصوتٍ لا يخرج.. حاول الملّاح أنْ يستغيث دون جدوى، هزّات عنيفة وماءٌ دافق يغرق وجهَه، فتح عينيْه على صوت أخيه موقظًا إيّاه مبتسمًا ليقول له:

- يبدو أنّ أحلامك لا تنتهي، الطريق إلى الحجاز طويلٌ، لتقصّ لي ما رأيت.

نظر له الملّاح دون فهمٍ، فصمَتَ ليمازحه يونس:

- أشعرُ اليوم بتحسّن، هيّا قبل أن تغادر القافلة ونضطر للعودة إلى فاس فنلقي حتفنا هناك.

اللّفافة العشرون

دعوةٌ إيمان لعرسِ الجنة المباركة

«دعوة مباركة من إله كريم لأتباعه،، ليأتوا من شتى البقاع والنواحي، كي ينهلوا من نور إلهنا، عميق السرّ، والراغب في الطاعة، الإله الفرد الصمد، أدعوكم كرجلٍ من أبنائه وأتباعه كي تؤمنوا به في عرسٍ ملائكي ينقل الروحَ للملكوت فتحلّ عليها بركةُ الإيمان والانعتاق، في يومٍ لا يتكرّر إلّا بعد مرور عامٍ مائي كامل، ستفتح فيه أبواب الجنة على مصراعيها، ستزال المشاقّ عن كاهل أصحابها، ليأتي أحبابُ الإله بين يديه، حينها قد يستصغرُ ذنوبهم ويمحوها تمامًا، سيحلّ الأمل وسُتمنح الغبطةُ للجميع، ولن يكونَ الأمر هينًا، يجب أن تمرّوا بآلامٍ تطهّر أرواحاكم وتنقل الجسد من هدوء النكران لفوضى المعرفة، إلّا أنّ هدوءًا وسكينة ستُمنح للصابرين الأوّابين، فباسْم ماء الإله الذي لا ينقطع سريانه، والمُلك الذي لا يفنى، والمنح والمنع والعطاء الذي يندملُ وجوده أبدًا، باسْم بداية الخلق؛ لتنزل اللعنة على العاصين الرّاغبين في الكفر، وسلامٌ على طائع اهتدى، ورحمٍ امتلأ».

تأمّل أبو الحسن في تلك الكلمات، اعتاد أن يتحسّس موضعها كي لا يترجم بعضها بالخطأ فتكون كارثة إنسانية وتغيّر مجرى تاريخ مكانٍ لا يزال

مجهولًا أمام الجميع، أسندَ ظهره على الحائط، حاول أن يستنشق هواءً شحّ وجوده، لكن الرطوبة خانقة لا تحتمل، اقتربَ منه صبّاغ، ناوله كوبًا من فخّار قد امتلأ بماءٍ ممزوج ببعض التّمر اليابس كي يتجرّع بضعَ رشفات منها حتى يستعيدَ بعضًا من قوته التي أنهكَت أثناء تفكيكه لبعض تلك اللفائف.

«هناك أعمال يجب أن تؤدّى وأيام عظيمة مجيدة في الانتظار»

كتبها لنفسه قبل أنْ يقرّر أنْ يخوض غمارَ تلك الرحلة الكشفية، تعمّد أن تكون على ورقة هشّة كي يحتفظ بها قدْر الإمكان، قام بطيّها واضعًا إيّاها في كفّه ثمّ رحل، المشقّة قد حفرت لها طريقًا في صدره، وحين شعرَ بأنّه لم يعد قادرًا على أن يقاوم أكثرَ، أخرج تلك الورقة التي كُتبت عليها هذه العبارة، قرّب الشمعة إليها كي يقرأها على نفسِه، أصبحت تعطيه من الطاقة الكثير ليقف مجدّدًا متجاوزًا ذلك الإرهاق والألم، لن يعود دونَ أن يكمل ما جاء إليه مرتحلًا ببحثه إلى دبلن، الأمر أعقدُ من الظّاهر أمام الناس، نهضَ فجأة حتّى أصابت عفرة نهوضه عيني الصّباغ، اعتذر منه وبدا راغبًا في أن يعمل مجدّدًا، فاقترب من تلك السلّة خوصية الصنع، وبيدٍ خبيرة بدأ في أن يخرجَ ما بها.

القاهرة: ١١٨٩هـ، ١٦٧٥م

وفيها كانت إحدى وقائع المغاربة المتكرّرة دومًا من أهل فاس والمغرب، وذلك أنّ من عادتهم أنْ يحملوا كسوة الكعبة التي تُحمل كلّ سنة للبيت الحرام، ويمرّون بها في وسط القاهرة ، وتحمل المغاربة جانبًا منها للتبرّك بها ويضربون كلّ مَن رأوه يشرب الدخان في طريق مرورهم، فرأوْا رجلًا مِن أتباع مصطفى كتخدا القازدغلي، فكسروا أنبوبتَه وتشاجروا معه، وشجّوا رأسه، وكان في مقدّمتهم طائفة منهم مسلّحون، وزادت المشاجرة، واتّسعت القضية، وقام عليهم أهلُ السّوق، وحضر أوده باشة البوابة فقبض على أكثرهم ووضعهم في الحديد، وطلع بهم إلى الباشا، وأخبروه بالقضية، فأمر بسجنهم بالعرقانة، فاستمرّوا حتّى سافر الحجّ من مصر، ومات منهم جماعةٌ في السجن، ثمّ أفرج عن باقيهم.

صارَ مجذوبًا، محمومًا بالألم، ينكفئ خوفًا حين يرى أحدًا أمامه، يطلق السّباب فيهرع الأطفالُ خلفه ضاربين إيّاه بالحجارة، فيجري نحو الصحراء، ينهج بشدّة، يتوقّف ليحصل على بعض الراحة، جلبابٌ ممزّق لا سترَ فيه، اقترب منه أحدُهم، وضع الطعامَ أمامه في حذر، فسمعه يحادث نفسَه..

- ماذا تقول؟

نظر له، تشبّث به، خاف الرجل، تملّص منه وسط بعضِ الرّكلات التي وجّهها له، ظنّ أنّ المجذوب على وشكِ أنْ يزهق روحَه، فابتعد بينما بكى الملّاح بشدّة، لم يعدْ يشعر بشيء، عاد أدراجه ليجدَ روحه قد طارت به إلى ذلك الموضع الذي قبض فيه عليها لتسوقه قدماه مجدّدًا نحْوَ أماكن لم يرها مِن قبل، عقلُه تائه، غائبٌ عن الوعي، خلع كاملَ ملابسه، ووقف في ميدانٍ به حوانيت لبيْع النحاس، اقترب منه شابّ، غطّاه بجلبابٍ وضعه على جسده، حاول أن يجعله ينهض، ليقول له الملّاح باكيًا:

- «تركته لأحضر له شربة ماء، عدت وقد فارق الحياة».

كرّر العبارة كثيرًا وكأنّ تلك العبارة- وتلك التفاصيل، دون سواها- تنطوي على سرّ وفاةِ يونس في سجن القلعة، وتفسّر سببَ ذلك الموت، يكرّرها، حتّى سأله الشابّ عن فقيده، كرّر عليه السؤال:

- مَن فقدت؟ مَن فقدت؟

رأى أمامه شبحَ طفلٍ يرتجف ويبكي من جوعٍ وبرد وعُري، فترك الشابَّ وتوجّه نحوه ثمّ خلع ما عليه من ملابس لم تكنْ تستره، صار عريانًا، انتبه لذلك السّؤال يتردّد في أذنه.. مَن فقدت؟ مَن المقتول؟ نظر في عيني السائل، رأى فيهما موج بحرٍ قاس، صحراءَ لا نهاية لها، نيرانًا تشتعل، بردًا يصلب الأطراف، وحينها تذكّر ما حدث بعد أنْ غامت عيناه بالنسيان، ذلك الحلمُ في الخان، استيقظ بعدها ليجدَ أخاه بجواره، الحمّى قد غادرت جسده، سبعُ أيام مضت أغلبُها يتجولون في الأحياء، عاد لهم المكاري ليكون دليلهم، بل وركوبتَهم، ومع اليوم الثامن استعدّ الجميع للمغادرة، النّحسُ لازمهم، حتّى كان يونس هو الضّحية، عادت له بعضُ الهلاوس، حطّت غمامة على عينيه مجدّدًا، ليسمع كلمات متّصلة عبْرَ سلسلةٍ من الأحداث:

لن يمرّ هذا الأمر بسهولة، وصل الخبر إلى الفقارية وعلى رأسهم مصطفى كتخدا قازدغلي كبير طائفة المماليك الفقارية، كان جالسًا وسط أعوانه حين دخل عليه أحدُ الغلمان مسرعًا في لهفةٍ جعلت أحدّ الجالسين يقول للغلام:

- لماذا تسرع؟!

التقط الغلامُ أنفاسه، وحاول أن يعبئ رئتيه بهواءٍ نفد منهما، ليصيح به مصطفى بأن يتحدّث..

- مات «مخيون».

- ماذا؟!!

في اندهاشٍ وغلظة سأل، وأردف مكملًا سؤاله:

- ماذا حدث؟!!

- قُتل في السوق.

بخوفٍ قالها الغلام الصغير، وبمجرد أن سمع قازدغلي هذا الأمر حتّى هبّ واقفًا، وأزاح بعنفٍ من أمامه عددًا من الصواني قد وضعَت عليها فاكهة، وأنبوبٌ مشتعل مجهّز للشرب، نظر والغضبُ قد ظهر على عينيه وتساءل:

- مَن قتله؟

- أحدُ المغاربة سيدي.

- ولم قتله!؟

كان يجلس في الطريق يشربُ من أنبوبة فمرّوا عليه وهُم يحملون كسوةً للكعبة، تقدّم إليه أحدُ الفرسان، وطالبه بإطفاء الدخان، لكنّه رفض فتكاثروا عليه، واشتبكوا معه، ثمّ أمسك أحدُهم سيفًا وأجهز عليه فأطار رأسَه من موضعها، وعمّ الذعر المكانَ، وهرب الجميع، وواصلت القافلة طريقها.

عند ذلك، أشار له قازدغلي بالتوقّف عن الحديث، عقد حزامًا جلديًّا على خصره، نادى غلامًا آخر فناوله سيفَه محمولًا في جرابٍ ذي نقوش من نحاسٍ بارزة، خرج يتبعه رجاله، ركب فرسَه وتوجّه إلى قلعة الباشا......

بمجرّد أن خرج حتّى كان السّوق قد عمّه الهرج والمرج، ولم يعدْ هناك مَن يستطيع أن يحكم الأمر، فرأى قازدغلي ذلك فتوجّه إلى القلعة بسرعة، حدّثه أصحابه أنّه لو تهاون في حقّ أحدِ رجاله؛ فالغدُ لن يكون أبدًا أفضل.

عامان قدْ مرَّا على حضور حسين باشا الوالي الجديد، ففي ١٥ من صفر ١١٠٩هـ الموافق ٢٧ يناير ١٦٩٨م حضر مِن صيدا، وطلع إلى القلعة في موكبٍ عظيم، قضى حكمَه ما بين عركةٍ وأخرى ومكائد ودسائس حتّى كانت أصعب الاختبارات حين دلف إليه مصطفى قازدغلي، رآه يقفُ أمامه بهيئته المَهيبة وبكامل عدّته وسلاحه قائلًا:

- إمّا أن تفعل وتثأر لرجلي أو أفعل أنا، وحينها ستكون حربًا لن تنتهي.

هاجتِ الجلسةُ واتّسع الأمر، وكادت تقوم الواقعة لكنّ بعضًا مِن المحيطين بحسين باشا جذبوا القازدغلي خارج القاعة ليهدئوا الموقف.

ثوانٍ غاص فيها متذكّرًا جلسته الأخيرة قبل أن يغادر صيدا مع تاجرٍ شاميّ مقرّب له عاد لتوّه من القاهرة فسأله عن أحوالها وشئونها، عرفَ انقسام المماليك فيها منذ غزاها سليم الأوّل، سمع منه عن طائفة القازدغلية وغيرها من تلك الطوائف المملوكية التي كانت منتشرةً تسيطر على شوارعِ القاهرة، مكثَ بعدها يومان حتّى كان على متْن سفينته حاملة إيّاه ليكون واليًا على مصر، صعوبات جمّة واجهته، فلم يكنْ ينقصه سوى قافلة من المغاربة بعاداتهم التي لنْ تتغير، وطالما سببوا المشاكل لتمسّكهم بتعاليم الإسلام حرفيًّا في حين أغلب المماليك لا يلتزم الواحدُ منهم إلّا بما يمليه عليه

خشداشه، ذوو طابع عسكري خشن؛ يأنفون الغير، ولا يقبلون بمَن هو مختلفٌ عنهم، لكنهم في النهاية أداتُه القوية لجمع الضرائب من بلدٍ منهِك.

لم يفقْ من تفكيره إلّا على صوت أحد معاونيه:

- ما التصرّف حضرة الوالي؟

- أحضر لي أوده باشة.

- أفندم سيدي.

لبرهةٍ تعمّق في بعض حوارات جانبية حتّى مثُلَ أوده باشا بين يديه ليسأله:

- ماذا حدث من المغاربة؟

- كانوا في الطريق نحو الحجاز، وفي مقدمتهم طائفة منهم مسلحون رأوْا مخيون يدخّن، زاد التّشاجر واتّسعت القضية وقام عليهم أهل السوق.

- ثم؟

- قتلوا «مخيون»، فقبضت عليهم، ثمّ وضعتهم في منزلٍ قريب من السوق، وشدّدت الحراسة عليهم.

- أريد أنْ أراهم.

- أمرك حضرة الوالي.

لم ينتصفِ النهار حتّى كانوا يمْثلون بين يدي الباشا.

- ما أمركم؟

تطوّع أحدُهم للإجابة:

- كسرنا له أنبوبَه حتّى يحترم كلّ ما هو مقدّس.

- قتلتموه؟

ردّ عليه يونس، وكان التعب قد بدأ في الظهور عليه مجدّدًا:

- هو مَن بدأ بالشجار.

- ما اسمك؟

- يونس.

- مِن أين؟

- فاس.

حاول الملّاح أن ينبّه أخاه بأنْ لا يذكر اسم فاس، فلمحَه الباشا، نظر له سائلًا إيّاه:

- وأنت؟

في تردّد قال:

- مِن نفس المدينة.

- قتلتموه غدرًا؟!

انفعلَ يونس، وقد بلغ به الألم مبلغًا قويًّا، فردّ قائلًا:

- حاول أن يعترض الطريق، رفضَ أن يغادر، وحين حاولنا إقناعه سبّ النبي وسبّنا جميعًا.

صمتَ الباشا طويلًا، وقفوا أمامه ينتظرون أمرَه في حين كان رجاله يلتفّون حولهم، يسألون كلّ واحد عن بلده ووجهته.

- أخرجهم مِن هنا.

وجّه الباشا حديثه لأوده باشا الذي أمر مساعدَه بأنْ يعيدهم للمنزل الذي حبسوا فيه، وعاد ليرى القرار الأخير للباشا، وما إنْ خرجوا حتّى طالب القازدغلي برؤوسهم تُعلّق على باب زويلة، فردّ عليه الباشا في حزم:

- أنا مَن أصدر الأمر وليس أنتَ أو سواك.

هدأ قليلًا، وواصل حديثه موجّهه إلى القازدغلي:

- رغمَ ذلك سأفعل ما يرضيك.

نظر له القازدغلي وهو يضع يدَه على سيفه بطريقةٍ توحي بالاستعداد لمعركة وشيكة، ثمّ غادر المكان.

وجّه الباشا حديثه إلى أوده باشا:

- ضعْهم في العرقانة وامْنع عنهم الماء والطعام لفترة، لا تخرجهم قبل أن تغادر القافلة، استوصِ بالأخوين خيرًا، هل تفهم؟

حيّاه أوده باشا، وانسحب لينفّذ أوامره.

غاب عن الوعي، ولكنّ لسانه ظلّ يكرّر تلك القصة، وكأنّه ينتمي لأحدٍ آخر قد شاهد ما حدث فيقصّ لهم خيالات لا يراها سوى هو:

سجن القلعة باردٌ لا ضوء فيه، موحِش مظلم، به الكثيرُ من المحابيس ممّن تعفّنت أجسادهم بداخل حوائط مصبوغة برائحة الدّم، لا ضوء يسري إليها، أرضه تملؤها الرطوبة التي صارت متشعّبة على الجدران الملونة بلوْن رمادي باهت، لوْن يبعث على الألم والخوف في جسد المسجون وروحه، صفوفٌ من الأجساد المتراصة على الأرض المنهكة، والتي تتلمّس الدفء والأمان لكنْ هيهات.. إنّها قلعة الحكم وزنازينها التي تبتلع ما بداخلها، مَن دخل قد لا يخرج، ومَن خرج فكأنه قد ولد من جديد.

صريرٌ معدنيّ يصمّ الآذان، سمعوه حين أُغلق الباب الحديدي الثقيل، فتحوا به طاقة بسيطة ليرموا لهم بعضَ الطعام، أخوه يحتضر، الحمّى صارعت

جسدَه، وساعدتها الظروف لتصرعه، فظلّ يرتجف، وقف الملّاح صارخًا على سجّانيهم، عاد له أحدُهم، شتمه وطالبه بأن يعودَ إلى أحد الأركان وإلّا صلبوه، صرخ مجدّدًا:

- أين أنتَ يا الله، أينَ أنت، لِمَ أُضر في العزيز دومًا إليَّ، لِمَ العقاب يا الله.

يلطم بيدِه على رأسه، اجتمع المحابيس حوله، كان عريانًا لا يعي من الأمر شيئًا، فقد أعطي لأخيه ما عليه من ملابس اهترأت من طول البقاء في السّجن كي يحاول أنْ يدفئه، ترجّى أن يكون حلمًا آخر، لكنّها حقيقة لن تتغيّر مهْما طال الزمن، حتّى كانت حشرجة خرجت معها روحُ يونس ليُصاب الملّاح بصمتٍ لا يفقه شيئًا، أيّام معدودات ورموْه في الخارج فتوالت عليه أحداثٌ كثيرة دون أن يسجّلها عقله، حتّى صار له عامان يمشي فيهما دون هدى، رغبته في الثأر أعادت له رشدَه أحيانًا، لكنّ عقله يعاود ألاعيبَه معه، فيغيب مجدّدًا في بئرٍ من الأحلام المختلطة بالواقع، فيرى الجميع وقد صلبوا.

نامَ في حواري القاهرة، وقد أصبحت شوارعها وأزقتها مطبوعةً بأسرارها في عقله كالدّم تسري في عروقه، فعرف خباياها وعلم عن حياةِ المماليك، واستمع إلى أسرار بيوتهم، كثيرًا ما تحين الفرصُ ليقف ويستمع، وعندما يراه أحدٌ لا يلقي له بالًا؛ فهو المجذوب الجديد، ويوجد الكثيرون منْه، عرف بالخلاف بينهم وانقسامهم إلى فقارية وقاسمية، وعرف أسباب الخلاف الذي أذكاه العثمانيّون ليحكموا القاهرة بمبدأ «فرّق تسُد».

لم ينسَ ما فعله كبيرُ القازدغلية مصطفى كتخدا القازدغلي، هو مَن حبس أخاه وماتَ بسببه في السجن، رآه أكثر من مرّة في الشوارع يجوبها مختالًا وسط أصحابه وخدّامه على صهوة جواده، حينها كانت فكرةٌ واحدة تسيطر عليه، أقتله وسط أصحابه لكنّه مع كلّ تحرّك كان يتوقّف، يعرف أنه لا قِبَل له بمواجهته وسطهم، لن يصل حتى إليه، رغم صعوبة المهمّة إلّا أنّ نار الانتقام كانت تأكل في قلبه، فكان لا بدّ من تنفيذها، فمثله من الرجال لهم أقدارٌ وعليهم تنفيذها، صار عليه أن ينتقم.

حانتْ ساعة الفصل والثأر، البحث عن سندٍ يقف بجواره ويدعمه، هو الأمل له، فبحث عن ما يساعده في تكوينها وكانت موجودة بالفعل؛ توجّه إلى قصر رشيد أبيض بالأزبكية، سيرته تقول إنّه كهْل العمر، شابّ في الحركة، يمقت القازدغلية، كان مملوكًا صغيرًا وتقلّد المناصب، ومرّ به الزمن حتّى صار كبير القاسمية وحاكمهم، وبمجرّد أن وصل حتّى استأذن بالدخول، تأفّف الحراس من هيئته الرثّة التي كان عليها، ظنّوه مخبولًا؛ فمنعوه زاجرين إيّاه:

- ابتعد من هُنا يا مجذوب...

وكأنّ أذنيه لم تستمعا لأوامر الحراس، فاندفع محاولًا عبور الباب الحديدي، فركلوه مُبعدين إيّاه، حتّى وقع على الأرض، نهض وسط سِبابٍ

منهم، ابتعدَ وقد أضمر أنْ لا يستسلم، دار حول السّور، انتظر غفلتهم فقفز عابرًا سور الحديقة، زحف على بطنه، وقد أصبح في موضع العمى مِن عيونهم، وقف منحنيًا، سار عبر ممرّ تظلّله أشجارٌ موفورة عالية تتمايل فروعُها حتّى يحسبها الناظر إليها وكأنّها تنحني لمثيلاتها المواجهة لها في احترامٍ لتظلّل ذلك الممرّ المغطاة أرضيته بعددٍ لا نهائي من الحصى قد تلوّنت حبّاته، وخُندق جانباه بممرّين من الماء، يبدءان من فسقية ماء قبل أن يتّحدا مجددًا في ما يشبه البحيرة، وصل إلى باب القصر الضخم، فظهر أمامه شامخًا بتلك الخطوط التي زخرفت واجهته بآياتٍ قرآنية قد نقشت بماء الذهب على خشب مدهون باللّون البني شديد اللمعان، دفعه برفقٍ فانفحت إحدى ضلفتيه ليجدَ نفسه قد دلفَ إلى بهو واسع، يرتفع سقفه إلى الأعلى، تزين حوائطه سيوفٌ وخناجر تمتزجُ فيها ألوانُ الذهب بالفضّة بالألوان المختلفة لعددٍ كبير من الأحجار الكريمة، التقطتْ أذناه أصواتًا تأتي من مكانٍ بعيد، فسار في ممرّ قصير يصل ما بين البهو وغرفة اجتمع فيها عددٌ كبير من رجال الفقارية في لباسهم المميّز باللّون الأحمر، وبيدِ كلّ واحدٍ منهم أنبوبة يشرب منها، وقف أمامهم.. ودون أيّ مقدّمات قال بلهجته المغربية منحنيًا:

- أريدُ أن أكون أحد رجالكم.

نظر المماليك إلى بعضهم البعض، ثمّ قال له أحدهم ساخرًا:

- ماذا تقول يا مخصي؟!

أثارت تلك العبارة هرهرةَ الجميع، ثمّ وقف أحدهم وهمّ أن يضربه على رأسه قبل يوقفه آخر، ويسأله:

- أنت مغربي؟!

فردّ عليه الملّاح:

- نعم.

ضحك الرجلُ وقال:

- حسنًا، ارحل من هنا.

نظر له الملّاح وقال:

- أبحث عن رشيد أبيض..

نظرَ له الجميع في دهشةٍ ممزوجة بالغضب قبل أن يقول له أحدُهم، وقد طقّ الشرر من عينيه:

- ومَن أنت يا عديم الأب لتسأل عن سيدي رشيد؟!

كاد يرفع سيفه فاتكًا به لكنّ نهوض أحدهم أوقف عبثَ الجميع بالملّاح الذي وقف صامتًا مستسلمًا، بوجهٍ أحمر يبكّ منه الدّم، عنقه مبرومٌ مدكوك كعامودٍ من الجرانيت، ذا لُغدٍ بيضاوي يتدلّى تحت دقنه متناسخًا في طبقات من الألغاد المتحاضنة، اقترب منه حتّى كاد يلتصق به سائلًا إيّاه في هدوء:

- لِمَ تبحث عني؟

بمجرّد أن قالها جثا الملّاح على ركبتيه ممسكًا بيدي الرجل مقبّلًا إيّاهما قائلًا:

– لتسمح لي أن أكون أحد خدّامك.

فردّ عليه رشيد في غلظة قائلًا:

– ليس بيننا مكانٌ إلّا للرجال، ورجالي ليسوا خدمًا لي.

– وأنا أشجعُ الرجال.

مالَ كبير القاسمية إلى أحدِ المماليك بجواره، ففهم الملّاح أنه أقرب المقرّبين له، وربما مستشاره الشخصي، ثمّ رفع رأسَه وتحدّث قائلًا:

– حسنًا، لكلّ شيء ثمن، وعليك أن تدفع..

– ما تريده سيدي.

في سرعةٍ قال رشيد:

– مهمّة تتمّها وبعدها نتشاور في أمرك.

فردّ عليه الملّاح بذات السّرعة قائلًا:

– أيّ مهمة تأمر بها.

– هل تعلم أنّ هناك فارسًا فقاريًّا يُدعى «آخور»؟

لم يردّ عليه الملّاح، فواصل رشيد حديثه قائلًا:

- أخشى أن تقوم الواقعة مجدّدًا وهو أشجعهم وأقواهم، أريد منك أن تحضر رأسَه.

صمتَ الجميع وكأنّهم لم يتوقّعوا مثل هذا الأمر، إنه إعلانُ حربٍ مباشر؛ حرب خامدة وسوف تشتعل.

لكنّ ردّ الملّاح كان مفاجئًا بحق:

- ثلاثة أيام.. وعند شروق يوم الجمعة القادم آتي لك حاملًا رأسه ولجامَ فرسه.

بمجرّد أن خرج حتّى التفّ الحاضرون حول رشيد، نظرات الحيرة والشكّ تملأ أعينهم، والتساؤل يكاد يقتلهم، لكنّه أجاب عن سؤالٍ لم يطرح بعد فقال:

- إذا قُتل وهذا الأرجح؛ فنحنُ لا دخل لنا به، وإذا عاش كسبنا فارسًا ولِدَ كبيرًا، وأصبح مصدرَ رعبٍ للفقارية في برّ مصر بأكمله.

أمّا الملّاح، فقد أمهل نفسَه ثلاثة أيام ليس إلّا، بدأ يعدّ العدّة لخطوة هي الأهمّ في حياته، إمّا أنْ يُزهِق أو تُزهَق روحه.

يطال السّماء بكاهله، ويسدّ الرياح بعلوّ هامته، تلتفّ حوله السحب كعمامةٍ بيضاء على رأس راعٍ يجوب البراري وراء أغنامه، ثابتة أركانُه لا تتزحزح، تحتضن نتوؤه العباد واللصوص على السّواء، أو مجرّد لاجئين يبحثون عن الأمان من ريح بدأت تعصف، فتح المختار عينيه، الجبل يطلّ عليه محتضنًا إيّاه، تلفّت حوله فلم يكنْ هناك أثر للبدوي، تساءل في نفسه أين ذهب، ونهض متثاقلًا يبحث عنه علّه قد ولّى هو الآخر واختفى، رأى أرنبًا ذا لونٍ رمادي ينتقل من مكانٍ لآخر، هناك شيء غريب، فذلك الحجر قد رصّ بطريقة غير اعتيادية، ثوانٍ حتّى وقع على رأسِ الأرنب فخرج البدويّ من مخبئه، أمسك بالأرنب ورفعه لأعلى في سعادة، هُرع نحو المختار حتّى وصلَ له، وقال مبتسمًا:

- أتيتُ لك باللحم، فالطحينُ لن يكفي لتعويضك عن دمائك التي نزفت.

ثمّ جلس، وكان الأرنب مازال بعْدُ لم يسلم الرّوح نهائيًّا، أخرج البدوي سكّينة، بحث عن حجرٍ صوان بجواره، وجدَ واحدًا شحذَ سكّينه، قطع رأسَه وسلخه معدًّا إيّاه للأكل.

- ما اسمك؟

سأله المختار، فنظر له البدوي وكان منهمكًا في إعداد اطعام، وقال:

- اسمي رماح ابن الله الكهفي.

استغرب المختار الاسم، لكنّه لم يشأ أن يسأل، فلكلّ مكانٍ سمتٌ في كنياته، نظر تجاه الجبل وتساءل:

- أتعرف تلك المنطقة؟

- نعم، أحفظها؛ فأنا من الزمام وراءه.

قالها مشيرًا نحو الجبل بيدٍ تلطّخت بدماء الأرنب.

- وهل له اسم؟

- ندعوه جبل العقاعق.

- ليس الجبل، بل الزمام.

- يُدعى زمام الملّاح.

دهِشَ المختار من تلك الأسماء!!

قام رمّاح بتقليب الأرنب على الجانبِ الآخر كي تسويه النيران فينضج جيدًا، ثمّ أردف مبتسمًا:

- لا تندهش؛ فهناك أمور نتوارثها، ومنها تلك الأسماء.

ثمّ انتهى من شيّ اللحم سريعًا، ومدّ قطعة منه للمختار، بينما شرع في تناول أخرى:

«باسم نبي الله، والإله الذي لا ينضب عطاؤه، نأكل طعامًا شفاءً طهورًا»

بدأ في تناول طعامه وسط صمتِ المختار بسبب تلك الكلمات التي لم يفقه لها معنى، توقّف رمّاح عن الأكل، وقال للمختار متعجبًا:

- لم لا تأكل؟! اللّحم الساخن أشهى كثيرًا.

لم يردّ عليه المختار، وظلّ محتفظًا في جعبته بتساؤلاته قبل يقول له رمّاح..

- أعرف أنك مُصاب بالإرهاق، لا تقلق غدًا سنعبر للزمام وستحصل على الراحة.

ببطءٍ قضمَ المختار بضع قطيعات بسيطة حتّى أنهى طعامه فمدّ يديه نحو النار، يحاول أن يبحث عن الدفء؛ فالبرودة بدأت في الهبوط مجدّدًا، والنهار على وشكِ أن ينتهي، نظر رمّاح نحو السّماء، أطال النظر ثمّ قال:

- يبدو أنّ علينا أنْ نعبر المدقّ الآن، فربما تكون ليلةً مطيرة، فيمتلئ بالماء، وحينها سنبقى هنا شريدين لمدّة طويلة حتّى تجفّ.

- حسنًا..

نهضَ متثاقلًا متّبعًا رمّاح الذي بدأ في التحرّك صعودًا حتّى وصلا إلى مكانٍ محجوب عن النظر بفعل صخرةٍ عظيمة وجدت أمامه، بمهارة الْتفّ رمّاح من حولها، تبعه المختار، كاد ينزلق، تماسك مواصلًا طريقه، بدأت زخّات المطر في الانهمار، التفَتَ له رمّاح مبتسمًا، وقال:

- ألم أقلْ لك؟!

أومأ له المختار مُبتسمًا، أسرعوا بالعبور، وصلوا إلى مشارف نهاية المدقّ، تثاقل المطر، تجمّعت زخّاته على هيئة خطوط سطحيّة متعرّجة اتّحدت على أعلى الجبل، الْتقتْ في دروبه المتشعّبة، تجمّعت ثانية في مجاري أكبر، فصارت سيلًا جارفًا جرفَ أمامه كتلًا صخرية وأخرى طينية كانت غيرَ مستقرّة، وفي آخر لحظةٍ خطّوا خارج المدقّ لتملأ المياه مجراه، جعلته غير صالحٍ للحركة.

بقلقٍ بالغ، وجسدٍ مبتلّ، نظر المختار لرمّاح الذي حاول أن يطمئنه قائلًا:

- لا تخفْ، سيجفّ الماء سريعًا، وينفتح المدقّ ثانية، الأمطار هُنا ثقيلة هادرة لكنّها سريعة المرور، فلا تبقى طويلًا حتى تنتهي.

اللّفافة الثالثة عشرة

مهْد الإله وأرضه، نواميس الأوّلين

في المبتدأ كان نبيًّا، كلّمه الله، أوحى له، غرسَ فيه بعضًا من روحه، علّمه ألفاظًا لا علمَ لمخلوقٍ بها، فصار له بصيرة، مِنح من ربٍّ ذي عطاء لا ينتهي، الممل لا تنتهي حلقاتها، والنبيّ قد أدّى واجبه، وصار عليه أن يرحل مودّعًا رعاياه وأتباعه، كسر المخالفين للعقيدة، أسر الراغبين في الكفر، هيّأ الأرض لاستقبال مُثل أعلى وقواعد ليس للبشرِ أن يحيقوا دسائسهم ضدّها، لكنّ الباقين من العصاة أبوْا، ورفضوا أنْ يستسلموا، وهمّوا أن ينفثوا سمومهم، فأهلك الربّ طغيانهم، ارتفعت أشجار الزيتون إلى أعلى، حلّت محلّ السّحب والغيوم، أخفت وراءها ضياءَ الشمس التي احتجبت عن الخلق، ماء الجذور محبوس فيها لا يفارقها أبدًا، حتّى حانت لحظة العذاب، صرخات دوّت فساد الألم فوق كلّ شيء، وأسقط ربّ السماء نقمته عليهم، تخلّت جذورُ الأشجار عن مائها، فانْسلت بضعَ قطرات تحوّلت لشلالٍ يطغى، فسيل لم ينجُ من تحته أحدٌ سوى الطيبين من العباد، قرّر الربّ أن يرسل نبيًّا آخر، لم يكنْ لديه شكّ بأنّ الكرّة ستعاد مجددًا، إذًا ليكنْ إلهًا أرضيًّا، ماؤه خصب لا ينضبُ أبدًا،

ينجب ولا تنجبون، ليحتفظ لنفسه بالقوّة عليكم كي لا تعصوه، فيكونُ الإله الموعود والمهدي المعهود، ولكلّ إقليمٍ إله، وأنا سيّد الإقليم عليكم، ومائي هبةٌ منّي لأرحامكم، وإلّا أصابكم فناء، وانتهى الأمر بكم دون ذكرٍ يذكر.

خطواتٌ متسارعة وسط دقّات قلبٍ تعلو وتهبط بالخوف والقلق، الظلام مازال هو اللغة المسيطرة، والشمس لم تخرجْ بعد مِن عباءتها ، يتقدّم الملّاح وفي يده اليمنى خنجر قد شحذَ نصله بنفسه لينفّذ به المهمّة، أقسم أن يغرسه في قلب كلّ فقاري تعدّى عليه، وكان سببًا في موت أخيه، وليكن «آخور» أوّلهم.

ظلّ يراقبه ليومين، تخفّى فيهما في هيئته الأولى؛ شحاذ يسعى لكِسرة خبز، ومع فجر اليوم الثالث كمنَ له مُتتبعًا خطاه متّخذًا طريقه خلفه ليتجاوز تخريبات لولبيّة لاحقًا به مِن شارع إلى حارة، ثمّ إلى عطفة حتّى وصل آخور إلى فضاء واسع، مساحة كبيرة من الأرض خالية لا فاصلَ بينها وبين السماء، محاطة بهديم وبقايا جدران عتيقةٍ من مبانٍ قد نخرَها الزمن لتصبح خالية من سكّانها، فسبقت أقدام الملّاح أقدام فرس آخور ليقف أمامه، وذلك عندما أدرك أنّه لن يظفر به إنْ تجاوز تلك المنطقة والتوقيت، وجدَ آخور أمامه ظلًّا لا يتحرّك، أصيب بالقلق فتقدّم في بطءٍ بعد أن مدّ حربته أمامه كردٍّ فعل غريزي، وبصوتٍ جَهوري قصد منه إخافة صاحب الظلّ، قال متسائلًا:

- مَن هناك؟!!

كرّر السؤال في قوّة وحزم، فارتجفت يدُ الملّاح مرتعدة، امتلأت رئتاه بأنفاسٍ باردة لم تعتد بعد على حرارة ما سيقوم به من عمل جَلل، احتفظ برباطة جأشه، وتماسك حتى ردّ على آخور بهدوء، قائلًا:

- قاطع رقبة أتى ليردّ لك أمانة.

قالها بلهجتِه المغربية، لكنّ نبرات الموت ولهجته واحدة، فاستشعر آخور أنّ حياته صارت على المحكّ، وظهر ذلك على فرسه الذي اضطربت حركته، فصاح قائلًا:

- هلمّ إليّ يا ابن أمّك.

لم يكدْ يكمل آخور كلمتَه حتّى كان الملّاح قد تقدّم منه في سرعة، وثبَ على فرسه ممسكًا برقبة قربانه إلى رشيد، وأنزله من على ظهر حصانه، دون جدوى حاول آخور أنْ يفلت من يدي الملّاح اللتين تحوّلتا لقبضةٍ من حديد، حتّى شعر بأنّ الدنيا تغيب عن نظره، بحثَ في الظلام عن شيء لاستخدامه بعد أن تجرّد من حربته، وصارت يداه لا تطالان سيفَه، فكان حجرًا ضربَ به يدَ الملّاح أولًا، ثمّ انهال بها على رأسِه ليسيل الدم ويختلط بينهما، وحين همّ آخور أن ينهض كان الملّاح قد استجمع قواه، وبرمق أخير فيها سدّد له ضربات متتالية سريعة خاطفة، اخترقت رقبته، ثمّ أجهز عليه وذبح عنقه.

وقفَ لاهثًا، أراد أن يكملَ باقي انتقامه، وأن ينتقم لألمه، فأمسك برأس آخور وجزّها لتندفع نافورةٌ منه مشكّلة بركة من السّائل أحمر اللون، ذو ملمس لزج ورائحة نحاسية صاخبة.

جلسَ الملّاح بجوار الجثة، وأخذ يلهثُ فهي المرّة الأولى التي يجهز فيها على إنسانٍ وينتزع روحه، شعرَ بأنه صار قويًّا أدّى ما عليه أن يفعل من انتقام تأخّر كثيرًا، كانت شمسُ النهار قد أوشكت على الخروج فوضع الملّاح رأسَ ضحيته في قطعة من القماش كان قد أعدّها، ثمّ ساق الفرسَ كغنيمةٍ له، وانطلق قاصدًا مقرّ القاسمية.

ما إنْ دخل حتى وقف رشيد، ذهل حين رأى دماءً تغطّي الملّاح، لم يكن يتوقّع أن يعيش أصلًا، اقترب منه متأملًا إيّاه، ثمّ صاح في سعادة:

- رحّبوا بالفارس المغربي، هو الآن منّا، نهار يوم جديدٍ، وانتصار لم يكن متوقّعًا.

فردّ عليه الملّاح:

- وهذه رأسُ أمير آخور.

قالها ثمّ ألقاها تحت قدميه.

أخرجها رشيد ممكسًا بها من شعْرٍ قد تناثر وعيونٍ لا تعي، ثمّ نظر تجاه رجاله الذين وقفوا وقد عقد الاندهاشُ ألسنتهم، أخرج من جيبه صرّة مملوءة بالأموال، ألقاها تجاه الملّاح الذي تلقّفها، وقال له:

- هذه مكأفاتك الأولى، أمّا الثانية فخذْه يا غلام واجعله فارسًا قاسميًّا فساعده صارَ سيفًا بتّارًا لملوك لا يشَقّ له غبار.

اصطحبه غلامٌ من الخدم إلى حجرةٍ مجاورة، صعدا بضعَ درجات حتّى وصلا إلى الطّابق الثاني، أدخله إلى غرفةٍ للاستحمام، خلعَ ما عليه من ملابس، سكبَ الماء على جسده ليخلّصه من آثار الدّم العالق به، دعكَه بالحجارة وطيّبه، ثمّ أخرجه من المسبح، وبدأ في تنفيذ أوامر سيّده فتكفّل بتحويله إلى فارس له مكانة بين أقرانه، فعرض عليه ما يرتديه من ملابس كي يختار منها الملّاح ما يناسبه، فارتدى معطفًا ذا لونٍ مزركش، تتريّ الطراز، ويرتدي فوقها حياصة تمرّ حول منطقة الوسط يتدلّى منها سيفٌ مقوّس، ويتوسّط تلك الحياصة خنجره الذي جزّ به عنق آخور، ثمّ خرج ليجلس بين الجميع.

- اليوم أصبحتَ منّا، وأصبحنا لك.

قالها رشيد أبيض وهو يقدّمه إلى إعوانه.

فردّ عليه الملّاح في نبرةٍ توحي بالثقة:

- وأنا خيرٌ لكم.

الأيّام ستثبت. أمّا الآن فاحتفالٌ لك ولعلملك البطولي.

أخيرًا حقّق الملّاح قدرَه، لا يدري لم شعرَ بالقلق، ربّما لأنه دخل إلى دائرةٍ لا خروج منها إلّا بالموت، تجوب تلك الخواطر آسرةَ خياله، تراوده بين حينٍ وآخر حتّى قطعتها نداءات متعدّدة تطالبه بالحضور ليبدأ الاحتفال الذي أقيم على شرفه.

صفّ من سبعة أجساد وقفنَ في خجلٍ أمام عبدٍ أسود، قيّدت أيديهن كي لا يفكّرن في الهرب، دموع تسيل بين لحظة وأخرى، على حالٍ آلت إليه كلّ واحدة فيهنّ، بياض أجساد اتّسخت قليلًا، لكنّه لم يخفِ جَمالا ظاهرًا، دخلت عليهنّ الستّ أنس، هكذا عرفوا اسمها حين قبّل العبدُ يدها ليحييها في احترام بالغ، طلب منهنّ أن يعتدلنَ أمامها، ظهرت بوادر تمرّد من واحدةٍ منهنّ، فجعلها عبرةً للباقين، أوسعها ضربًا، وبكفٍّ مدرعة أصابعه بخواتمَ ينتصف واحدٌ منهم برأس بارزة، ظلّ يلطمها ويهشّم عظم وجهها، وسط صرخاتٍ من الباقيات يحاولنَ أن يبعدوه عنها كي لا تموت تحت وقع ضرباته، لكنه لم يتوقّف، انْهال عليها ركلًا، جذبَها من شعرها، حتّى شعر بأنّه قد اكتفى فنظر لهنّ، والشّرر يتطاير من عينيه، أمرهنّ أن تنزل كلّ واحدةٍ منهنّ ملابسها لتصير كما ولدتها أمّها، تردّدن قليلًا لكنّ الفتاة التي ضربت مازالت تنزف وبشدّة، تتأوّه وتعاني من الآلام مُبرحة، ففعلن.

في هدوءٍ مرّت عليهنّ أنس، تقلّب في بضاعتها التي أحضرها لها سمعان، وبعث بها بصحبةِ عبده أشرم، تتفحّص الوجه أولًا، تهبطُ بنظرها لتفحص باقي الجسد، ترفض مَن لا تراها مناسبة.

- تلك لا تصلح.

- ثديها ضئيل، لن يرضي أحدًا.

- ذات جمال، لكنّها ذات برودٍ لا يُشبع.

- وتلك.....

وقبل أن تكملَ عبارتها كانت عيناها قد وقعت على فتاةٍ تقف محاولة أن تداري بيدِها عورتها، اقتربت منها، تفحّصت هذا الجسد البضّ الأبيض المائل إلى اللون الأصفر، شعر متهدّل كستنائي، عينان فيهما بكاءٌ صارخ دون دمعٍ يغلفه، اقتربت منها قليلًا لتشمّ رائحتها التي كانت عطرة رغم الاتّساخ، تحاول أن تبحث عن عيبٍ كي ترفضها كسابقاتها، لكنّها كانت متناسقة القوام، دارت حولها، بيدٍ خبيرة تتفحّصها، ثدي مستدير منتفخ، ذو لونٍ وردي كالرمان، وطول متوسط، وقبل أن تكمل فحْصَها، سألتها:

- ما اسمك؟

لم تردّ عليها، بل انفجرت في بكاءٍ مكتوم، فتركتها أنس ونظرتْ تجاه أشرم الذي هبّ أن يفتك بالفتاة لبكائها الذي اشتدّت حدّته، لكنّ نظرةً من أنس أوقفته، وبلغةٍ آمرة قالت له وهي تشيرُ لها بطرف أصبعها:

- أحضرْ لي رمانة إلى الداخل، وعدْ بالباقي إلى سيدك.

- ولكن...

حاول أن يقنعها بأنْ تعيد النظر مجدّدًا، لكنّ حدّة لهجتها قد انعكست على وجهها الذي أطلّت منه الشراسة لتقول له:

- افعلْ ما آمرك به يا أسودَ اللون والقلب.

ابتسم، فظهرت عليه صفّ أسنان غير مكتملة، وقال:

- أمرك سيدتي.

قبل أنْ تتّسع ابتسامته أكثر وهو يقول:

- الحلاوة بالطبع لي.

مكافأته أنْ يكون أوّل مَن يضاجع مَن تختارها أنس، إنْ كانت بكرًا فضّها، وإن لم تكنِ اكتفى بقضاء ليلة معها، هكذا اعتاد، ألقى عليها رداءًا، كساها ثمّ أمسكها من ذلك القيد الذي التفّ حول يديها ودلف بها إلى الداخل.

يهيمُ في فضاءٍ رحب لا حدود له، أنغامه ذاتُ هدير شفّاف، نابضة بالحياة ألحانُه، يصارع نسمات الهواء في خفّة ومرونة، الخيط الرقيق في الأفق يتحوّل إلى شفق أحمر ليزيح الظلمة ببطء إلى أن يتوهّج فتشرق سلاسل الشمس الذهبية عليه واقفًا على طرف نافذة، فينظرُ إلى النائم بحجرتها، ليجده قد أغمض عينيه في استمتاعٍ قبل أن يفتحهما ملتفتًا على يمينه فيجدها ملاكًا تسبح بجواره، ابتسم لها، داعب أنفها، رائعة هي كزخّة المطر حين تنزل على غير موعدها فتروي عطشانًا تاه في قفار الصّحراء الموحشة، نائمة في هدوءٍ لا اصطناع فيه، طيبة كما الأرض الرطبة حين تلمسها أقدام لا نعلَ يحميها، بيتٌ جديد صارتْ له فلجأ لها لتكون حصنًا لا يتهدّم أبدًا. ظلّ على حاله متأمّلًا في ملامحها الطفوليّة، نهض في خفّة كي لا يوقظها، ارتدى عباءته، سارَ نحو الشّرفة يتأمّل بعض تلك الأشعة خصبة الظهور، لمح عصفورًا يطير في فزعٍ خوفًا من أن يسجن أو يمسّه سوء، تمنّى أنْ يكون له جناحان كذلك الطائر، ليطير برمّانته مبتعدًا بها عن هنا، الحياة أصبحت غير صالحة للبقاء أكثر من ذلك، بالأمس كان يرجو أنْ يموت لكن اليوم يرجو أنْ لا يراها تموت، صارت صديقه الوحيد، نظر لها، كلما تأمّل وجهها شعرَ بأنّ هناك أسرارًا

مخفية في هذا الكون مازال بعْدُ لم يصلْ إليها أحد، يبدو أنّ حبّها في قلبه كان أحد تلك الأسرار التي اختصّها الله به وحدَه دون سواه، لا يعرف متى شعرَ بتلك الأحاسيس، لكنّه فوجئ بها وقد نبتت بين ضلوعه، كزهرةٍ أينعت يرقاتُها دون مطرٍ فقط بضع قطيرات من النّدى صبيحة يومٍ صيفي، فتذكر تلك اللحظة التي اقتحمت فيها حياته، كان يتجوّل بفرسه المحجل، يتبعه جلّاب فيعطي له هيبة وسطوة، حين أتى للقاهرة شعر نحوها بعاطفة غريبة، مألوفة كمدينته فاس، غامضة كما الصحراء لا نهاية لها، عشقها وخاف منها، هناك شيء مجهول يجذبه إليها، ظلّت تلك الخواطر تراود عقله، حتّى انتبه إلى حشدٍ من الناس فوجّه لجام فرسه نحوهم.

طاقةٌ من النور قد سطعت، رآها تمشي.. لا بل كانت تتهدّج بخطوات بطيئة يتوقّف عندها الزمن، بشرة ناعمة بيضاء وملامح دقيقة متّسقة، عينان بنّيتان وشفتان ورديّتان ممتلئتان، بثغر بسّام آسرٍ، تاج على رأسها يتدلّى منه شعر كستنائي تهبط منه خصلةٌ غزيرة بعرض جبين صغير، ملامح مألوفة إلى القلب، التطلّع إليها حمل إلى نفسه الراحة، تمسّك بعود يلتحم بها فتطرب المحتشدين من حوْلها من العوام والمارّة، صار منزوع الإرادة، وقف يتأمّلها، خُطوات فرسه تقترب منها شيئًا فشيئًا، أفسح الواقفون للفارس طريقًا، حتّى صارت دائرة من البشر تحيط بهما، فلا تحوي سواهما، بمجرّد أن اختلى

بملامحها منفردًا بها عن المحيطين بهم، حتّى خيل له أنّ الله قد وضع نوره في وجهها فتخلّص الكون من شروره، أمّا إبليس فقد اسْتُتيب وتابَ لتنهمر دموع قابيل وجلًا وهو يحاول جاهدًا باكيًا متألمًا نادمًا أن يبحث عن روح هابيل في الملكوت ليداويها طالبًا منه الصّفح والغفران، خائفة عيناه، نبضاتُ قلبه ترتعد، حُمرة تغزو وجهه عاكسةً حالةً من الاضطراب أصابت روحه، رفعتْ عينيها منتبهة لوجوده، لبرهةٍ من الوقت صمتتْ، رأته يحدّق بها، استعادت وعيها مجدّدًا فعادت تنجب أبيات شعرٍ وتشْدو بها على العود فيشْهق الناس من روْعتها، تتحرّك والحشدُ في إثرها، كمسلوب الإرداة تتْبعها، أسكره هواها، اقترب منها أكثر فأكثر، فتوقّفت لكنّه تقدّم، صارت نبضات قلبها طبولًا، وأصبحت أنفاسه قريبة من أذنيها حين مال عليه قائلًا:

- لم أرَ أجمل منك في حياتي.

اختلجت قسماتها الدقيقة، وتوقّف بها الزمن، فاختفى الجمعُ من حولها، تعافر كي تتراجع إلى الخلف، لكنّ قدميها تسمّرتا في مكانهما دونَ حراك، فنظرت له وقد أحاطتْ به عيناها، وقالت له هامسة وسط دفقات عودٍ بسيطة:

أبِيَدِكَ عَصَى مُوسَى !

أم بِكَفِّك طِبُّ عِيسَى!

أَوَ عِندَكَ تَفسيرٌ كَ يُوسُف !

لَمْ تُشعِل نَارَ إبراهِيم

ولَمْ تَخرِق السَّفينة

لَكِنَّكَ أغرَقتَ قَلبي

أصيب بسكر الهوي من كلماتها ليكمل خلفها قائلًا:

لا والَّذي أنبَأَ مُحمَّدا

لَستِ إلَّا طاغِيةَ غَرام

أَمَرتِ القَلبَ فأطَاع

شُموخُ كِبريائِكَ

كَهَامات النخيل

احتلت حقولي

وسِهامُ عَينيكَ

تحصِدُ بَراعِمَ ثَباتي

طأطأت رأسَها خجلًا، فمدّ يده ممسكًا طابعَ حسنها، رافعًا وجهها راشفًا منه الحياة حتى اقتلع نداءَ جلاب روحه، وانتزعها معيدًا إيّاها إلى الواقع مناديًا إيّاه:

- سيدي ملّاح، سيدي ملاح!!

فنظر له في تردّد، وكأنّه يخشى أن تغيب عن نظره، ليقول له جلاب:

- أرسل سيدي رشيد في طلبك.

عاود النظر إليها كطفلةٍ وقفت حاملةً عودها متمسكةً به بقوة تستمدّ منه الأمنَ والحياة، ثمّ قفز فوق فرسه مجددًا، انفضّ الحشد، وهرع هو نحو جلاب:

- سيدي رشيد.......

لم يكدْ يكمل عبارته حتّى قال له ملّاح:

- أريد أن أعرف مَن هي.

لحظاتٍ نظر له جلاب دون فهمٍ حتى، فصاح فيه الملّاح:

- الآن، تأتي اليوم لي بخبر عنها.

ليفهمَ جلاب قصدَ سيّده الذى لوى عنانه وتوجّه نحو القلعة حيث يقبع رشيد في انتظاره.

لم يعتدْ أن تكافئه الحياةُ بأن تمنحَه بعضًا مِن نعيمها الذي لم يعدْ موجودًا، دخل إلى رشيد، حيّاه بأن قبّل يده اليمنى كعادته، فلمس رشيد رأسَه:

– أنت فارسٌ لا يشق له غبار.

– وأنت منحتني فرصة أن أعود للحياة.

– اليوم أكرمك.

– لمَ؟!!

– ذاع صيتنا وقوّيْت عضدي، فقد فكّر قازدغلي أن يباغتنا بهجومٍ مفاجئ.

دهشَ الملّاح، وبحركةٍ لا إرادية امتدّت يدُه إلى سيفه، فالاستعدادُ للحرب صار أمرًا غريزيًّا فيه، قبل أن يمسك رشيد بيده ويقول له:

– لا تقلق، انتهى الأمرُ سريعًا، ذكره بعضُ خاصّته بأنّ لديهم فارسًا يدعى ملّاح، أتى لهم من قلب حواري القاهرة وأزقتها، كان مجذوبًا فصار مغوارًا لا يشقّ له غبار.

– لكنّ تأديبه واجب علينا، أليس كذلك؟

قالها الملّاح وتمنّى أنْ يوافقه رشيد كي يكملَ باقي انتقامه، لكنّ رشيد قال له:

– ليس الآن، لكلّ شيء أوانٌ وساعة، وقريبًا سأجعلك تظفرُ برقبته، أمّا الليلة فأنت ضيفي.

شاكرًا رشيد قال:

– شرفٌ حمّلتني إيّاه.

– اذهب الآن، وانتظرنا ليلاً بالقرب من بيت أنس.

بنظرةٍ خبيثة قالها قبل أن يردف:

– تعرف مكانه بالطبع، فأنت تقطن بالقرب منه.

ابتسم الملّاح في هدوء، حيّاه وغادر ليحلّ الليل سريعًا، توجّه إلى ذلك المنزل الذي كان ذي مشاعلَ كثيرة، وقف منتظرًا حضورَ رشيد الذي وصل بصحبةِ اثْنين من فرسانه، انْحنى مقبّلًا يده، اصطحبه مداعبًا إيّاه بأنّ جنة الأرض خلف تلك الأبواب، والتي بمجرّد أنْ دخلا عبرها، حتّى كان الترحاب حاضرًا.. أقبلت عليهم أنس، فقبّل رشيد يدَها في اشتياقِ حبيب لم يرَ حبيبته منذ فترةٍ طويلة، ذاتَ شعر يميل إلى ذلك اللون الأصفر المائل للبياض، مازالت ذات حلاوة ظاهرة، طولها متوسّط، تغري القادمين بأنّ الداخل مليء بالكثير من المتع، سمع أنّها لا ترافق أحدًا سوى رشيد، تدور به الدنيا ويعود لها راكعًا فتقبله في حنوّ، تقول إنّه حبّها الوحيد وإنّه المخلص لها.

- مَن الفتى؟

تفحّصت وجْه الملّاح قبل أن تردف:

- أفارسٌ جديد، أم مجرّد غلام تعشقه؟

قالتها وقد غمزته فنظرَ لها الملّاح شذرًا، وكادَ يردّ عليها لولا أنّ تكفّل رشيد بالقول:

- بل فارسٌ جديد، وأقرب رجالي إلي.

في تعجّب ردّت:

- منذ متى وأنت تثقُ بأحد في فترة قصيرة، يبدو أنه حديثُ العهد بكم، فلم أره معك من قبل!

- يكفي أنّه قتل آخور.

باندهاشٍ نظرت نحو الملّاح ثمّ قالت:

- أنت قاتله؟!

هدأت من وقع دهشتها، ثمّ بنظرةٍ خبيثة قالت لرشيد:

- قاتل آخور! يجب أن تشعر بالقلقِ لا أن تُقرّبه منك.

فابتسم لها في سخرية:

- لا أُقرّب منّي سوى مَن أخاف منهم.

ثمّ نظر إلى الملّاح، وقال لها ممازحًا إيّاه:

- لك أنْ تختار ما تشاء، الجنة أبوابُها مفتوحة أمامك.

أزاح ستارًا مخمليًّا يخفي وراءَه قاعةً كبيرة مُضاءة بالشّموع والمشاعل، تقف فتاةٌ في المنتصف على منطقةٍ أعلى، ترقص للمحيطين بها وسطَ نغمات تندفع من عودٍ يعزف عليه عجوزٌ، أرهقت نظرَه السنون، دخل الملّاح، ظلّ يتأمّل ذلك المكان حتى كانت لحظةٌ اختفى فيها جميعُ مَن حوله، فوجئ بصاحبة العود تقف أمامه، سعادة غامرة لرؤيتها وحزنٌ عميق كيف لها أنْ تنتمي لذلك المكان، لكنّه اقترب منها، جانبٌ من وجدانه كان يهتف قائلًا:

- ورود النرجس لا تزهر وسط صبار الصحراء.

نظر لها حتّى انتبهت إلى ذلك الذي لم يعدْ يرى غيرها وسطَ هذا المكان، تذكّرته على الفور، فشعرت بالخجل من مجرّد النّظر إليه، ها هو ثانية لكنّه في تلك المرّة مجرّد رجل يبحثُ عن جسد دافء يضاجعه لأيّام حتى يكون لرحيقه رائحة معتادة فيملّ باحثًا لنفسه عن شغفٍ آخر، شعرت بالتوتّر فلم تكنْ معتادة على ذلك، اقترب منها فنبض قلبها بشدّة منتشلًا إيّاها من خمولٍ، وبثّ فيها حياةً كانت قد دفنت منذ أنْ وطأت مجبرة أرضَ هذا الماخور، في لحظة شعر الملّاح بيدٍ ناعمة ضئيلة توضع على كتفه، التفتَ خلفه ليجدّ الستّ أنس تبتسمُ في حنوٍّ كما لم تكنْ تفعل منذ قليل:

- هل تريدها؟

نظر إلى الفتاة قبل أن ينظرَ إلى أنس قائلًا:

- ما اسمها؟

- لك أن تختار لها اسمًا فتلكَ هي طقوس المكان، قد تكون حُسن أو ورد، وربما يروق لك اسم آخر.

- لكنّني لا أريد أنْ أعرف سوى اسمها الحقيقي.

- حبّ دقّ باب دارك؟

صمت الملّاح ولم يردّ.

- حسنًا، لم يكن لها اسمٌ حتّى سميتها رمانة، وهي رمانة بالفعل.

- هل تريد أن تقايض عنها؟

- ولِمَ تسألين المقايضة؟

تنهّدت قائلة:

- لأنّ رشيد حين نظرَ بتلك الطريقة طلب أن يقايض على أنْ أغادر معه.

- وماذا طلب؟

- أن أغادر معه حياتي لأبدأ معه حياته.

- ولكنّك مازلت هنا.

تلفّت حوله قبل أن يردف:

- بل توسع نشاطك.

ترقرقتْ دمعة على خدّها، فسارعت بمسحها قبل أن ينتبه أحدٌ لها:

- طلبني مرّة واحدة، قبل أنْ تلهيه الدنيا ويقع فريسةً لها، وتلك مرّة واحدة أيضًا أعرض عليك فيها رمانة.

نظر لها نائمة بجواره، تلك الملامحُ البشوشة لم تتغيّر منذ أنْ رآها، تذكّر أنّه لم يستغرق في تفكيره، بل وافق فورًا على ما عرضته عليه أنس.

- حمدًا لله.

نظر لها مندهشًا، فقالت له:

- لا تصيبك الدهشة، رمانة لم.. ولن يكنْ لها مكان هنا أبدًا.

غمرته سعادة بالغة، فأردفت:

- لا ينالها أحد، شعرت بها منذ أنِ اخترتها لتكون معنا، تبحثُ عن الأمان، إنْ كنت نصيبًا لها فرفقًا بقلبٍ أضناه الزمن.

وفي لهجةٍ حادّة قالت:

- لكنْ إن جاءت غاضبة منك، دسست لك السمّ، وطاردت روحك حتّى أجعل جهنمًا مستقرًّا ومستودعًا لها.

ثمّ نادت على فتاته:

- اذهبي معه، هو الآن مِلكُ لك.

لا تدري لِمَ شعرتْ بفرحة غامرة ملكت فؤادها، يومٌ واحد كان كفيلًا بأنْ تتغير حياتها فابتسمتْ في حياء، قبل أن تكمل أنس حديثًا قائلة لها:

- بابي لن يعودَ مفتوحًا لك.

- أمّا أنت فتأكّد أنْ تكون رمانة هي حياتك التي تعيش لأجلها.

تداعب الذّكريات خياله، فيتساءل في قرارة نفسه:

- هل كان على حقّ حين قام بذلك؟ كيف له أنْ يسلم أمرَه ويفتح قلبه بتلك السرعة؟ لكنّ ذلك الشعور بالسعادة أصبح يغمره فلم يكنْ يريد أن يرى غيرها، وجدها قادمةً تحمل بؤجة تضعُ فيها أشياءها.

نهرتها أنس قائلة:

- اخرجي لتبدئي حياةً جديدة، انسي تلك الأيام التي قضيتها هنا، ألقي بذلك الماضي مِن ورائك.

ثمّ وجّهت حديثها للملّاح:

- أثق في أنْ تحميها بعيدًا عنْ هذا العفن، لا تخيّب ظنّي فيك.

مال الملّاح على يدها، قبّلها، ثمّ أمسك بيدِ رمانة، التي تخلّصت من بؤجتها، خرج بها، وجدها تبكي..

– ما بك يا فتاة؟

– تذكّرت لحظة دخولي.

مازال يتأمّل فيها، تنام في سكينةٍ، فقبّلها على جبينها، فتحت عينيها متأمّلة ملامحه، ابتسمت قبل أن تلثم شفته السفلى، ارتمتْ في أحضانه، بحثتْ عن دفء لم تجده سوى لديه، تذكّر لحظة دخولها إلى منزلِ ملّاحها، فتح لهم جلاب، دُهش حين رآها، أمرَه الملّاح بأنْ يجهز لرمانة غرفةً مستقلّة بجوار حجرة نومه، فزاد اندهاشه، ثمّ وفي تردّد قال جلاب:

– أمرك يا سيدي.

وقبل أن يهمّ بالتنفيذ، قال له الملّاح:

– احرص على أن تعامل السيدةَ برفق، واصحبها في الغدِ إلى السوق كي تبتاع ملابسَ زفاف تليق بزوجه فارس قاسمي.

صمتَ قليلًا يحاول أن يفهم، لكنّه لم يكن أمامه سوى أن يستسلم قائلًا:

– أمرك يا سيدي.

قبل أن يردف:

– ألن تتناول عشاءك؟

كان الملّاح قد صعدَ بضع درجات من السلم فتوقّف ليقول له:

- اسأل سيدة الدّار أولًا.

ابتسمَ جلاب، وقد فهم أخيرًا المغزى من حديث سيده، ثمّ بحركةٍ لم يكن معتادًا عليها، وقف منحنيًا أمامها:

- بِمَ تأمر السيدة بأن نجهز على العشاء؟

أصيبت بالخجل، فتضرج وجهها بحمرةٍ مفاجئة في وجنتيها البارزتين، أشاحتْ بوجهها هربًا فتلاقت عيناها مع عيني الملّاح لتنظر إلى الأرض بكاملِ خجل، ربما لم تكنْ لتشعر به مع أحدٍ آخر.

ابتسم لها وبادله جلاب تلك الابتسامة، ثمّ قال له بلغةٍ آمرة مازحة:

- تعرف مدى حبّي للأوز، وأظنّ أنّ رمانة ستعشقه كما نعده، أليس كذلك؟

لم تردّ، بل زاد وجهها احمرارًا.

- هيّا يا جلاب.. افعل ما أمرتُك به.

ثمّ صعد إلى الأعلى تاركًا لها أن تتأمّل فيما مرّ بها في سويعات قليلة معدودة.

هل تغيّرت حياتها إلى الأبد، هل ستشعر بذلك الحنان طوالَ حياتها، أم أنّ الحياة بها من الصعاب ما لم تره بعد، انكشمت في جسدِه أكثر، شعر بأنّ نفسها تهفو إلى الدفء، ذلك هو ما منحه إيّاها، لم يرَ منها سوءًا أبدًا، وثقَ فيها.. بل إنها كانت ملجئًا له حين تشتدّ عليه نوائب قد تصيبه ما بين حينٍ وآخر، لم يكنْ يرغب في أن يفرض عليها أن تكون في فراشِه، تزوّجها وتركَ لها حرية أن تأتي له حين تشاء، حتى عادَ من اجتماعٍ مع رشيد، القاهرة صارت تمور بالغضب، الدماء قد تسري ما بين لحظة وأخرى، شعر بقلقٍ بالغ، تذكّر أيّامه في فاس، هل ستجبره الحياة على أن يفرّ مجدّدًا.

بمجرّد أن دخل حتّى قرعتْ له دقات الطبول على عادةِ أمراء طبلخانات المماليك بعد أنْ ترقى، هُرعت لاستقباله، مالت على يده مقبّلة إيّاها، طبع قبلةً طويلة حارّة على جبينها، تناولا العشاء معًا، غادرها ليدخل غرفته، يريد أن يأوي لنومٍ يحاول أن ينسى آلامه التي تعاوده كلّما تناوب الدهر عليه بالأذى.

بلغ الدّجى ذروته، ليلة لم يكنْ له نصيبٌ فيها من الراحة والنوم، بضع طرقات خفيفة على الباب، لم يكنْ معتادًا على أن يكون جلاب حاضرًا في تلك اللحظات، نهض فاتحًا بابَ الغرفة، وجدها تبتسمُ له، أزاحته في رفق، هاله الموقف، فقد القدرة على أن ينطق، أغلق البابَ خلفها، كانت تحمل

مشعلًا، أطفأت أنوارَه بعد أن أشعلت شمعدانًا فأنارتْ به الغرفة، وكأنّ انعكاس ضياء القمر النّافذ عبر الغرفة قد اختلط مع أضواءِ تلك الشموع لينعكس على جسدها الذي صار عاريًا فاقترب لها، ليملي روحه من النظر إلى ذلك الجسد البضّ المشوق، مغلّف ببياض كسحب الصيف لا تنغّصها أمطار، تزيّنه حبتان من رمان الجنة لتتدلّى منهما فصيّ جمار بلون الورد، قبّلها برفق مَن لا يرغب في أن يؤذي ملاكًا صار طوعَ أمره، تناول منها ما أعطته إيّاه عن طيبِ خاطر، حتّى حملها وسط ابتسامة لم تكنْ لتفارق ذلك الثغرَ الذي نفذ إليه متناولًا شرابه، رفع جلبابه، فأشارت له أنْ يتمهل، لم تكنْ سوى بضع لحظاتٍ حتّى سلمت له لتنام بين راحتيه.

وسطَ آهات من نشو لا ينقطع، أغمضت عينيها في تلذّذ واستمتاع، أفرغ فيها كاملَ ثقله، تخلّص بين دفتي ذراعيها من أوجاعه التي لازمته منذ زمن، انطوى بين أحضانها، عثر في مخدعِها على تلك الرّاحة المفقودة، حتّى استسلما لنومٍ عميق لم يحمل له تلك الكوابيس المعتادة.

استيقظتْ صباحًا، لم يكنْ بجوارها شعرت بالفزع الشّديد، تاهت عن الوجود وصارت إلى العدم أقرب، وما إنْ هبّت خارجه لتواصل البحثَ عنه حتى فوجئت به وقد ظهر أمامها بابتساماته المعهودة، أدارتْ وجهَها خجلًا بعد أنْ عادت له نضّارته، ارتمت في أحضانه، فقبّل جبينها قبل أن يخرج من

بين طيّات ملابسه خلخالًا، نزلَ على الأرض جالسًا على ركبته اليمنى، برفق أمسكَ قدمها، رفعها ليلفّ حولها سوار الفضّة، ثمّ نهض ليجدها مبتسمة، احتضنها بقوة، ثمّ نظر لها فلم يكنْ يدري.. أيزيّن الخلخالُ قدمَها أم أنّ الكعب يزيّن الخلخال، همس في أذنها قائلًا:

- لن أرى أجملَ منك في حياتي.

بكتْ من فرط كلماته الحسنى، مسح دموعَها بيدِه، وحاول أن يمازحها:

- لنرَ ماذا أعدّ جلاب لنا من طعام، فقد صارت بطني خاوية.

وافقته مبتسمةً دون اعتراض، فالجنة صارت لها أخيرًا.

استيقظَ من نومه وقد أصابه الوجوم، عاودته تلك الأحلام التي كثيرًا ما أضجّت مضجعه، العجوز وقف له ملوحًا بذات الابتسامة الساخرة التي لم يفهمْ أبدًا معناها، أو أي رسالة يجب أن تصل إليه، رسولق قد أرسلته أنس كي تستعطف الملّاح لترى ربيبتها، على وشكِ أن تموت لكنّ العجوز تأبى أن تفارق الحياة، متمسّكة بآخر قطرة فيها، إلّا أنّ الملّاح رفض مجددًا وبشدّة.

«إنْ كانت ترغب في رؤية رمانة؛ فالمنزل يسعُ من الأحباب ألف وزيادة»

قالها، ثمّ خرج بعد أنْ ألبسته رمانة ملابسَه، اعتادت أن تفعل ذلك، كما اعتادت- أيضًا- أن لا تعصي له أمرًا، لكنّ الرسول قد عاد مجدّدًا، كان «الأشرم» وقد ارتدي عباءةً بيضاء اللون ذات لفافةٍ على رأسه باللون الأخضر، لقد صار درويشًا، وصارت أنس بتوله المقدّسة التي تمنّت أن تعود عذراءً؛ كي يظلّ الطّهر دومًا ملاذَها بدلًا من دنسٍ تراه معلقًا بها، مرضت وصارت تعاني من الحمّى، بكتْ رمانة حين قصّ لها الأشرم ما تمرّ به أنس، وازدادت تأثرًا حين كان يلقّبها «بمولاته وشفيعته» وبخاصّة حين كانت دموعه تخضّب لحيته التي كساها الشيب وهو يتوسّل إليها كي تلبّي لستّه أنس ربما آخرَ أمنية لها قبل أنْ تموت، خرجت من مجلس الضيوف لتجد أنّ جلابًا واقفًا وقد استرق السمع فعلمَ ما دار، تبادلت معه النظر، تعرف ما

يربطُ بينه وبين زوجها، عليها أن تذهبَ، والملّاح سيرفض حتمًا، فقالت له مترجّية إيّاه:

- لن يمرَ الظّهر قبل أن أكون قد رجعت إلى المنزل.

بتردّد قال:

- الملّاح هو سيدي ووليّ نعمتي، ولا أعصي له أمرًا، بيده أنْ يقتلني وليس لِيَ أن أعترض ولكنّ الأمر طارئ، لذا سأصحبك.

بسعادةٍ قالت:

- حسنًا يا جلاب، أخبر الأشرم أنْ ينتظر، سنصحبه الآن.

تجهّزت وحرصت على ارتداء ملابس تخفي بها وجهَها، خرجت بصحبةِ جلاب، وما إنْ دلفت إلى ذلك المنزل، كان صوتُ سعالِ أنس يملأ المكان، فتنثرُ على الأرض دمًا يخرج من فمها قبل أن تتماسكَ محاولة بيدٍ مُرتعشة أن تضع منديلًا على فمها، توجّهت رمانة لغرفة أنس التي كانت تحفظ مكانها، نورٌ ربّاني يطلّ من محيّاها، ملابسها البيضاء زادتها وقارًا، ارتمت عليها، احتضنتها غيرَ آبهة فلم تخشَ على نفسها من انتقال مرضٍ لها، قبّلت يديْها، لثمت جبينها، لساعةٍ من الزمن تحادثا معًا، حتّى اقتربَ موعد رحيلها، وقبل أن تهمّ بالنهوض لم تكنْ قادرة على أنْ تتماسك حابسةً دموعها أكثر من ذلك،

فبكت وبشدّة لتربتَ أنس عليها وتضمّها بحنانٍ أمومي طالبةً منها أنْ لا تبكي ثمّ أصرّت على أنْ تصحبها إلى باب الدار لتودّعها، لكنّ رمانة أصرّت عليها أنْ لا تنهض من فراشها، وهمّت تاركة إيّاها إلّا أنّها فوجئت برشيد يقف أمامها بجثمانِه الضخم وعباءته التي سدّت طريق الخروج، فحجبت النّور عن الدخول، لم يكنْ في حالةٍ طبيعية، عيناه حمراوتان، يبدو عليه السُّكر وهو يهذي مخمورًا بكلماتٍ متخبطة، ارتجفتْ ونظرت إلى الأرض وهي تحاول أن تمرّ بجواره دون أن تحتكّ به، لم يتزحزح فاستأذنته أنْ يفعل، ابتسمَ في هدوء قبل أن يحاولَ أنْ يمسك ذراعها، صرخت فتمادى، لتهرول أنس صارخة فيه متحاملة على نفسها..

- ما بك يا رشيد؟

أطبق يدَه على عنقِ أنس حتّى كادت تختنقُ وهو يقول لها:

- اخْرسي يا عايقة.

ثمّ بغضبٍ ساخر قال:

- أغلقتِ الكراخانة دون إذنٍ منّي.

هالَ رمانة ما يحدثُ لأنس فصرخت وهجمت عليه محاولة أنْ تخلص رقبتها من يدِه الغليظة ليمسك عنقها هي الأخرى، قائلًا لها في شراسة:

- وجهك ليس غريبًا عني، أوطئتك من قبل يا سرموزة؟

انشغل بها مفلتًا أنس التي وقعتْ على الأرض بعد أن كادَ يزهق روحها، ثمّ مدّ يده متحسّسًا جسدَ رمانة وقد تذكّر مَن تكون:

- عرفتك، أنت جارية ملّاح وعاهرته.

بصوتٍ مختنق قالت:

- لست جارية لدى أحد، أنا زوجته.

في ازْدراء قال:

- لا يهمّ، أتراه قدْ نال منك ممّا تتمنّعين عن إعطائي الآن؟

صمتتْ لتردّ عليه أنس بعد أن نهضت متكئةً على يديها قائلة:

- اخرجْ يا رشيد، فأنت تعلم أنّ هذا البيت لم يعدْ ماخورًا.

بعنفٍ قال:

- لن أخرج قبل أن أتذوّقها.

- تعرفُ أنها لم تعدْ تعمل هنا، وتعلمُ أيضًا أننا لم نعدْ كما كنّا في الماضي.

- مادامت قد خطّت بأقدامها هذا المكان فهي ملكٌ لمرتاديه.

- ابتعد عنها....

مستجمعة آخرَ ما بها من قوّة قالتها أنس قبل أن تزيح يدَه لتحاول أنْ تخلص رمانة، فلم يفقْ سوى على ضربةٍ من الأشرم أتتْه من الخلف ليلتفت إليه فيجده رافعًا خنجرَه ملوّحًا به مستغلًّا سوءَ حالته، نظرَ له، تراجع نحو الباب، وبعينين يملؤهما شررُ الغدر قال:

- لك يومٌ يا شيخ العرصات.

- أمّا أنت يا شمطاء، فاستمتعي بتلك السّويعات القليلة القادمة من حياتك.

- سألحق به وأقتله.

قالها الأشرم، لكنّ أنس منعته قائلة:

- اتركه، علّ الله يهديه.

ودّعت رمانة أنس بعد أنْ مسحت دموعها، شعرت بخفقان في قلبها كأنّه اللقاء بينهما، لكنّهما تواعدا أن تمرّ على أنس كلّما سنحت أمامها الفرصة، خرجت لتجدَ أنّ جلابًا قد أصابه التوتر والقلق.

- رأيت رشيد دالفًا، اختبأت حتّى لا يراني، وعندما سمعت جلبةً من الداخل همّت بالدخول، لكنّني وجدته مندفعًا، هل مسّك بسوء يا سيدتي؟

في تردّد قالت:

- لا تقلق، احتكاك بسيط وانتهى.

ثمّ أردفت كي لا يسألها ثانية:

- أمّا الآن فهيّا بنا نعود قبل أن يعود سيّد الدار.

- حسنًا.

بمجرّد أن دخلا حتّى كان رسول قد أتى من طرف رشيد، ترك رسالة للملّاح الذي لم يتأخّر حتّى ضربت له الطبول على بابِ منزله إيذانًا بوصوله، قطب جبينه وهو يقرأ ما تحْويه الرسالة، نظرتْ له رمانة متردّدة في إخباره، وحين استجمعت شجاعتها لإخباره كان قد همّ بالذهاب إلى رشيد.

زاد سخطُ رشيد على الملّاح، ثلاثة أعوام منذ أنْ صار فارسًا مقرّبًا منه، لا يقتل دون أن يسأل، وإنْ سأل قرّر وفرض رأيه ورغبته، بل وإرادته، أعداؤه فقط هُم الفقارية، ودونهم لا اعتداء عليهم أو فرض إتاوات أو تجبر إلّا إنْ كانت رغبته تسمح بذلك، فلا طاعة عليه كخشداش له، وبقشّة قسمت ظهرَ البعير تهلهلت كرامته وتمزّقت أوصالها بسبب رمانة وأنس، فعزم على الانتقام، بل تفنّن في أنْ يعاقبه بصورةٍ مؤلمة، فأرسل له رسولًا من لدنه يطلب منه أنْ يمثل بين يديه، خرج دون أن يتحدّث مع أحدٍ من أهل الدّار، وبمجرّد أن دخل حتّى رأى رشيد جالسًا وسط حاشيته وفرسانه، أنفاس الدخان تشكّل غمامة لكثرتها.

- تقدّم يا ملّاح.

خطا الملّاح نحوه، نهضَ رشيد، ربتَ على كتفه وبابتسامةٍ ماكرة أصبحت معروفةً في مخيلة الملّاح قال له:

- عليك الاستعداد، فغدًا ستغادر إلى غزّة.

صمتَ الملّاح واجمًا، فأكمل رشيد قائلًا:

- لا تقلق، لا أريدُ بك سوءًا، أريد أنْ أحميك، فالحسبة قد تُقام عليك وأبناء آوي في القلعة وشوْا بك للوالي بأنّك ذا طموح لا حدّ له.

تصنّع طيبة لم تكنْ لتنطلي على الملّاح وقال:

- والي القلعة قد يقيم الحسبةَ على بعضٍ من رجالي وأنت في مقدّمتهم، وربما تأتي رقبتي أنا أيضًا تحت مِقصلته، وأخشى عليك من الحساب.

ثمّ واصل حديثه قائلًا:

- أنت ابن المآسي، وأعرف أنّك أهلًا لما آمرك بها، أليس كذلك يا ابن الطريق؟

نظر له الملّاح، وبفخر تعمّد إظهارَه قال:

- لست سوى ابنٍ لوالدي.

فهِمَ رشيد ما يرنو إليه الملّاح قبل أن يقول وقد رفع رأسَه نحو الأعلى:

- لكنّني لا أرغب في الرحيل، فلن أترك أهلي وأموالي وأرحل إلى بلدٍ لا أعرف فيها أحدًا.

بعصبيّة قال رشيد:

- الرّحيل ليس غريبًا عليك، وهل تعصاني؟!!

توتّر الجميع ونهضوا في انتظار معركةٍ على وشك أنْ تحدث، ثمّ أردف:

- نفّذ ما آمرك به، وغدًا عليك أن تجهّز حالك للرحيل، وحيدًا يا ملّاح، وحيدًا، هل تفهمني؟

صمت الملاح، غادرهم ولم يكدْ يخرج حتّى اقترب أحدُ الحاضرين من رشيد، وقال له:

- هل سيرحل في هدوء؟

- بالطبع لا.

ولم يكدْ يكملها حتّى أشار برأسه لفارسٍ ذي شارب مائلٍ إلى الحمرة، فوضع يدَه على مقبض سيفه، وخرج مسرعًا، تمتم رشيد:

- يبدو أنّ رشيد والملّاح لم تعدْ هناك أرض تتّسع لهما، إمّا أن أعيش أو يعيش.

غطّاه ثوبٌ من نعاس فغشى جوارحه، شعر بأنّ الهمد قد أصابه، لكنّه قاوم متعثرًا والاختناق يلاحقه، أصيب بصقيع وحرارةٍ متناوبين فحواسّه صارت مشوّشة لا تدري ما الحالة التي يمرّ بها، ربما كان موته واحتضاره، ليتذكّر ما حدث صباحًا فقد كان شعورًا قد تسلّل إليه أثناء نومه بأنّ قلبه ينتفض حتّى لكأنّه ينخلع من موضعه؛ الحرارة التي صارت تسري في جسدِه، وذلك الاختناق المبالغ فيه لم يكونا يتّسقان مع تلك الأجواء الرّبيعية المعتدلة التي تميز بها هذا الوقت من العام، بالإضافة إلى الجوّ السائد في مثل هذا المنزل الذي كان يطلّ على الحافة الشرقية من بركة الأزبكية، فاستيقظ وكان إرهاق النّوم قد طاله، دقّات قلبه تتسارع، نهض متوجّهًا نحو الشرفة، ذلك النسيم كان ملاذًا له دائمًا حين كانت تشتدّ رطوبة بعض الأيام، أغمض عينيه محاولًا أنْ يبث في نفسه هدوءًا افتقد إليه دون أن يعرف السبب، وبمجرّد أنْ أفاق حتّى رأى موكبًا من بضعِ فرسان يتقدّمهم رشيد أبيض، شعر بالتوتّر لمجرّد رؤيته فنادى على جلاب كي يرسله ليستطلع ما الخبر.

- جلاب، جلاب.

حضر أمامه، وبمجرّد أن دخل حتّى انحنى مقدّمًا له التحية.

- اذهب وتتبّع هؤلاء.

قالها الملّاح مشيرًا بيدِه عبر النافذة ليشير إلى موكبِ الفرسان قبل أن يختفي عن النظر..

- أريد أن أعرف وجهتهم.

- أمرك يا سيدي.

همّ جلاب بالتحرّك،سأله الملّاح عن رمانة، فأجاب بأنّها أصرت أن تجهز طعام الإفطار بنفسها، فابتسم الملّاح ليقول له:

- حسنًا، اذهب واعرف ما يدور.

غابَ لبعض الوقت قبل أن يعود لاهثًا متعرقًا، وقد أُثلج صدره وهو يقول:

- الست أنس يا سيدي.

في تعجّب سأله الملّاح:

- الستّ أنس!! ما بها؟!!

بعضُ العوام يتناقلون حديثًا عن ضررٍ سيلمّ بها، وجدوا في الصباح خادمَها الأشرم مذبوحًا، وقد نُزعت عيناه من محجريها، وقطّعت أذنيه..

ثمّ أردف محاولًا أن يمهّد له ما حدث بالأمس، بعد أن شعر بالخطر على وشكِ أنْ يداهمهم:

- يقولون إنّ أحد رجاله طلبها فرفضت.

لم يكدْ يكمل جلاب حديثه حتّى كان الملّاح قد انتفض مفزوعًا يعلم ما سوف يُقدم رشيد على فعله، فهو لا يترك رجاله دون أنْ يثأر لمن يمسّ جانبهم، لن يمرّ اليوم سهلًا على أنس، فارتدى ملابسه على عجلٍ حتى أنّه نسي وضْعَ عمامته على رأسه، قفز على فرسه دون أن ينتظر جلابًا، أو أحدًا من رجاله، سأل الناس في الطرقات عن ذلك الموكب، أشاروا له في خوف اعتادوه من المماليك بأنّ الموكب اتّخذ الطريق المؤدّي إلى القلعة، تأكّدت ظنون الملّاح، هناك غدرٌ سوف تكون أنس ضحيةً له بالتأكيد. كان النهار قد انتصف، وشمسُ الظهيرة حامية، ليزدحم الطريق بالمارّة، لكنّ الملّاح لم يكنْ يأبه بشيء سوى بالوصول إلى رشيد قبل أن يصعد إلى القلعة، أيقن أنه سيطلب من الوالي أنْ يطهر المكان متذرعًا بأنّ عهرهم سيلحق اللعنة بتلك البقعة، فنكزَ المحجل مسرعًا به، مندفعًا تجاوز الزّحام، تفاداه المارة وسط لعناتٍ صبوها على ذلك الفارس الذي ربما يكون مخمورًا، وصل إلى المدخل المؤدّي للطريق الصاعد للقلعة، لم يكنْ قد ذهب إلى هذا المكان منذ أن خرج منه فاقدًا لأخيه، طافتْ برأسه ذكريات الحبس في القلعة، رأى رشيدًا أمامه وسط موكبه وقد هبط ويهمّ بالمغادرة، فهرع تجاهه، وصل إليه لينزل من على ظهر فرسه ليجد أنّ رشيد قد مدّ له يده ليقبّلها، ألصق رشيد يدَه بفم الملّاح أراد أن يشعره بأنّ زمام الأمور مازال نهرًا يجري تحت قدميه، مستنكرًا سأله قائلًا:

- هيئتك رثّة يا ملّاح، أتخرج دون عمامة؟!!

- تأخّرت قليلًا، وأردت أن ألحق بك.

في سخريةٍ قال رشيد، وقد نظر إلى رجاله الذي ضحكوا ساخرين بدورهم:

- لو أردتك معي لبعثت لك رسولًا لتكون بصحبتي، لم يكنْ لي حاجة بك، ومِن المفترض أن تكون الآن قد تجهّزت للرحيل.

في محاولةٍ من الملّاح ليهدّئ الأمورَ التي صارت على وشك الاشتعال..

- أنا تابعك الذي لا يرى غضاضة في تنفيذ أمور لا ينفذها غيره.

بغضبٍ قال رشيد منفجرًا في وجهه:

- يبدو أنّك «كنت»..

قاطعه الملّاح وقد بلغ به الفضولُ درجةً من التهور جعلته يخاطب رشيد ندًّا بندٍّ:

- لم كنت هنا؟

أشاح رشيد وجهه بعيدًا ناظرًا نحو القلعة، ثمّ قال:

- لا تسأل ما لمْ أخبرك، منذ اللّحظة عليك أنْ تعتاد على ذلك، غادرنا الآن، فاليوم عليك أن ترحل كما أمرتك وإلّا....

لم يكنْ للملّاح رغبةٌ في أن يعرف السبب سوى ليتأكّد من صحّة مخاوفه ما إذا كان هناك مكروه سيلمّ بأنس، أم أنّ الذهاب إلى القلعة كان لأمرٍ آخر، وحين لم يحصل على مبتغاه احتقن وجهه غضبًا، ولم يستطع أن يداري ذلك، وكأنّ الخيل بفرسانها قد شعرتْ بأنّ هناك شيئًا على وشك الحدوث، فتحرّكت في مواضعها في حين تحسّس فرسانها سيوفهم تأبّهًا لما قد يحدث، فضّل الملّاح أنْ يغادر في سلام متراجعًا نحو الخلف مُظهرًا خنوعَه بأنِ انحنى ليحيي رشيد قبل أن يسير بفرسه بضع خطواتٍ ثمّ امتطاه، عقله يغلي من تفكيرٍ عميق، استفاق على وصوله إلى الأزبكية، حلّت عليه صاعقة سمّرته في مكانه؛ جنود الوالي يسوقون أنس أمامهم مقيّدة بالحبال، ممزّقة الملابس، تبكي وقد تناثر شعرها، ينهالون عليها ضربًا بالعصي والحبال، ورغم صرخاتها لم يكونوا يبدون أن تعاطف معها أو رحمة، ومن خلفها صفّ طويل من بنات كنّ يأوين إليها وسط بكاءٍ حار منهنّ.

«لتغرقوا هؤلاء القِحاب في النهر، طهّروا المكان من نجسهم»

يصرخ الأوباش ممّن يسيرون خلفَ الموكب طلبًا لرؤية عري تلك النساء، يقذفوهنّ بحبّات من ثمار وخضروات فاسدة، يقترب بعضهم ليتحرّشوا بهنّ، عزم الملّاح على إنقاذ أنس بأيّ ثمن، فأخرج سيفه من غمده، وقد صارت عروقه نافرة والعرق يتصبّب من كامل جسده، ظهرَ جلاب فجأة

أمامه، حاول أن يفاديه منحرفًا بفرسه، وقعا على الأرض، نظر نحو جلاب الذي وقع على ظهره، أخرج سيفه، سيجري خلفهم، لكن جلاب قفزَ عليه، احتضنه ممسكًا إيّاه من الخلف مانعًا إياه من اللّحاق بهم.

«ستموت يا سيدي، أرجوك أن تعود»

حاول الملّاح أن يفلت منه لكنّ يدي جلاب كانتا أقوى:

- اتركني يا جلاب، اتركني يا عبدَ السوء.

رمى سيفه وأخرج خنجره وقام بقطع أحد أصابع جلاب الذي رفضَ رغم ذلك أن يتخلّى عن الإمساك به، هُرع خلف الموكب، ليجدَ نطعًا قد مُدّ وسيفًا مغطّى بالدماء، وبعده بأقدامٍ قليلة صفّ من الرؤوس قد تطايرت على الأرض، ودماءٌ تسيلُ منها مازالت حارة، قصّوا أعناقهم وغادروا، في خوفٍ وهلع بحثَ عن جثة أنس، تعثّر في أجساد متناثرة، وقع على رأسها، مازالت تبتسم رغم الموت، أصيب بالهَلع ليتراجع إلى الخلف، وقد شعر بأنّ مكيدة غادرة صارت تحاق عليه، وربما على وشكِ أن تُنفَذ، غطاء ثوب من نعاس يغشى جوارحه، شعر بأنّ الهمد قد أصابه، لكنّه قاوم متعثرًا والاختناق يلاحقه، مسامّات جلده قد امتلأتْ بدخان الحريق الذي نشبَ في داره وقد اندلع بمجرد أن وصل.

تساقطتْ ذرّات الندى لتغلّف رمال الصحراء ببرودةٍ لم تستمرّ طويلًا، فقد سطعت عليها شمس النهار الحارة، فبخرت ماءها وصار الندى ضبابًا يعجز السّائر بداخله عن الرؤية، وجراح الملّاح تزداد عمقًا، وألمه يشتدّ قسوةً، بينما لم تفارق خطوط الدّمع وجنتيْه منذ أنْ خرج هاربًا بصحبة جلاب الذي حاول أنْ يبدو متماسكًا ليمدّ يده بين وقتٍ وآخر كي يعيد رأس الملّاح إلى الخلف، فقد كانت تفقد القدرة على الانتصاب فتقعُ على مقدّمة جواده حتّى كادَ على وشك أن يسقط وقد يدقّ عنقه بجسدٍ صار متهدّمًا، نزل جلاب تاركًا فرسه مطلقًا سراحه، صعدَ خلف الملّاح ممسكًا إيّاه خوفًا عليه من سقطةٍ قد تصيبه بالأذى في أثناء غيابه عن الوعي، تعاملَ معه كطفلٍ صغير، يمرّ النهار حارًّا مؤلمًا حتّى يجنّ الليل عليهما مختبئين في مغارةٍ أو كهفٍ في طريقهما للفرار.

- أتأسّف منك سيدي.

قالها جلاب ولم يعدْ قادرًا على أنْ يحبس دموعه النادمة أكثر من ذلك.

- لن أعصي لك أمرًا ثانية، رمانة كانت تريدُ الخروج ولم أكن أريد أن أغضبها.

مسحَ عينيه، حاول أن يتماسك قليلًا، لا يراه أحد، والصحراء ممتدّة أمامه فتمتلئ بصخبِ بكائه.

- سأحافظ على حياتك ولن يمسّك أحدٌ مهما حدث.

ثمّ نظر إلى الأفق قائلًابصوتٍ متقطّع من كثرة البكاء:

- سنذهب جنوبًا.

همسَ في أذن الملّاح الفاقد للوعي بتلك الكلمات.

- سنحتمي بقريتي.

ابتسم متذكّرًا معالمها:

- تقع على ضفة النهر، نخرج صباحًا لنرعى ماشيتنا ونحرسها من هجمات الحيوانات الضارية، ونعود لنجدَ الأكواخ وقد صعدت منها أدخنة ما تمّ طهْيه من طعام شهيّ، وفي المساء نجتمع حولَ النار لنتحاكى ونتسامر حتى يغلبنا النعاس فيعود كلّ واحد منّا لكوخه....

سمع جلاب أنينًا يصدر عن الملّاح فتوقّف عن الحديث لبرهةٍ قبل أن يقول مجددًا:

- بمجرّد أن نقترب ستستمع أذناك إلى دقّ الطبل وكأنّها سكّين يغرس في أديم الأفق، فترتجّ له أعماقك.

مجدّدًا نظر نحو الأفق، استعاد بضعَ ذكريات صبّت على روحه وجعًا لم يكنْ في عوز له، بكى من جديد إلّا أنّه حاول أن يكتم صوتَ بكائه لئلّا يتألّم صاحبه، ثمّ أردف بعيونٍ تغشّيها دموع حارة:

- أكواخنا مبنيةٌ من الطين والقش، الحرارة شديدة لكنّ الدّاخل رطبٌ ذو برودة ستجعل الراحة تدبّ في أوصالك.

ردّد بعض الأنغام قبل أن يواصل همسَه قائلًا:

- بمجرّد أن نصلَ سترى استقبالًا حارًّا يليق بابن حكيم القرية الذي هجرها طيشًا منه باحثًا عن استكشاف نفسه وإثبات أمر لم يكنْ يدري ما هو، وحتى الآن لا يدري، سيلهو الأطفال مِن حولك، وسيهدون لك بعضًا من طعامهم، في قريتي نصطاد التّماسيح ونأكل لحومها بعد أنْ نطيبها بزيت الزيتون، سترى أفراس النهر تلهو في الماء، عليك أن تكون حذرًا في التعامل معهم فهُم ذوو ملامح بسيطة طيبة بريئة، وعيون تشعّ حنانًا، لكنّهم مثل بعض البشر فلا تنخدعُ فيهم وتقترب منهم كثيرًا، فقضمةٌ واحدة بأنيابهم كافيةٌ لاقتلاع رأسِك، بل قد تشطرك إلى نصفين.

عاد الليل مجدّدًا ليُنزل جلاب الملّاح مِن على ظهر حصانهما، أشعل النيرانَ فالبرودة لا تحتمل، فتح فمَ سيده وأنزل فيه بضع قطراتٍ من الماء، وحشر بعضًا من الخبز المضموع، يحاول أنْ يجبره على الحياة، وعلى ضوء النار يواصل همسه قائلًا:

- كوخُ أبي لن تشعرَ فيه بالإزعاج، أعرف أنّك تميل إلى الانعزال، أبي كذلك، لقد بنى كوخه بجوار النهر، هو مثلك لا يشعر بالراحة سوى إنْ

كان وحده، تجارب دوائه وأعشابه جعلت منه حكيمًا وطبيبًا يداوي العلل والأمراض.

بصعوبةٍ فتح الملّاح عينيْه، في حركةٍ دائرية نظر حوله، تذكّر ما مرّ به، بكى حتّى أسبل عينيْه من جديد، وضع جلاب يده على جبين سيّده، وعاود همسه:

– سترى أخي الأصغر إدريس، لا يكفّ عن اللهو، واكتشاف الأماكن الجديدة، في يومٍ ما قد يصبح زعيمًا للقرية، سأريك حيوانات لم ترها من قبل، سأصحبك في جولة داخل الغابة.

ابتسمَ الملّاح ببطءٍ، وكأنه قد سمع لبعضِ كلمات جلاب، ثمّ عاد وجهه واجمًا....

شعرَ جلاب أنّ سيده لن يموت اليوم، فقال له بدموعٍ غلّفت وجهه تصارعُها ابتسامة سعادةٍ لبقاء سيده حيًّا:

– عليك أن تتحمّل لدغات متنوعة من حشرات الغابة.

ثمّ صمت ليعود بذاكرته إلى الوراء قليلًا حين ترك قبيلته مراهقًا صغيرًا وآلَ به الحال هاربًا من القتل والتّنكيل في إسبانيا ليجد نفسَه أسيرًا ينتقل من سيّد لآخر، فوصل به الحال أنْ وقف بجسدٍ نصف عارٍ في سوق الجلّابين

بالقاهرة، كان اسمه قد تغيّر وصار «جلاب» بدلًا من «سِنار»، رآه الملاح، أراد أنْ ينتقي خدمًا لمنزله الجديد؛ مكافأة رشيد له على رأس آخور التي قدّرت بثمن باهظ، فوقف رامقًا في ازدراء للمتفحّصين في جسده، عيناه لهما بريقٌ مثل عيني أيوب، ذلك العبد الذي كان خادمًا وكاتمًا لأسرار أبيه في فاس، رآه الملّاح فاقترب منه، وسأل التاجر عن ثمنه، كان الردّ مفاجئًا:

- خذه لك بأي ثمن.

ثمّ زفر قائلًا:

- لا أريد سوى أن تخلصني منه....

تاجرٌ لا يعي كيف يبيع.. أو يرى أنّ بضاعته على وشك أن تفسدَ فيريد أن يتخلّص منها بأي ثمن، هكذا حدّث الملّاح نفسه قبل أن يسأل العبد قائلًا:

- ما اسمك؟

في غلظةٍ ردّ عليه بعد أن أشاح بوجهه بعيدًا:

- لا اسم لي.

تعجّب الملّاح من ذلك الردّ، لكنّه وفي داخلة نفسه أراد أن يتمادى معه في السؤال، فقال له بنبرةٍ تهديد مازحة:

- إن شئت جلدتك حتّى الموت.

فاقترب منه العبدُ حتّى كاد وجهاهما يتلامسا، وقال له بنبرةٍ تملؤها الغلظة، ونظرةٍ بها الكثير من التحدّي:

– وإن شئت أنا وأحللت قيودي لأصارعك حتّى تستغيث قبل أن تموت، فأخيرك بين أن تهلك أو تتوسّل مني الرحمة.

– وهل تراني أتوسّل من عبدٍ مثلك؟!!

– لو كنت ترغب في الحياة ستفعلها.

في سخريةٍ قال له الملّاح:

– يعجبني إصرارك على أن تُقتل.

في ذاتِ الغلظة أكمل العبد وكأنّه لا يعطي لما قاله الملّاح وزنًا، فقال:

– وقبل أنْ تمسّ عرقًا بي سأكون قد وطئتك، ولو كان لك أهل سيكونون متاعًا لي.

استشاط الملّاح غضبًا، لكنّه تماسك قائلًا:

– قريبًا يا أسودَ اللّون والقلب سأذيقك بعضًا من لسات سوْطي المغموس في زيتٍ له رائحتك النتنة.

ثمّ نظر تجاه البائع الذي كان قدْ أيقن بأنّ الصفقة على وشك أنْ لا تتم:

– ائتني به لأؤدّبه.

فوجئ البائع بالملّاح، وقد أصرّ على أن يشتريه، تمّ البيع سريعًا، سعادةٌ غمرت التاجر، وبمجرد أن انتهى حتّى ناول سوطًا للملّاح قائلًا:

- وتلك هديتي لك لتؤدّبه وقتما تشاء.

نظرَ له الملّاح بازدراء، ثمّ غادره دون أن ينطق، استغرب جلاب إصرارَ السيد على شرائه، وازداد ذهوله عندما رآه يسير به بضعَ خطوات مبتعدًا عن السوق بقليل، ثمّ يقوم بفكّ قيده قائلًا له:

- هل تقرأ؟

عاد جلاب إلى رشده وقال:

- أقرأ وأكتب لغاتٍ لا علم لأمثالك بها.

- لو كنت كذلك لما صرت عبدًا!!

- لأنّ الحياة تقسو في لحظة دعةٍ وخمول.

- وهل قست عليك بما يكفي لتسعى حثيثًا للموت؟

- أكثر مما تتخيّل.

- حسنًا، أصبحت سيدك منذ اللحظة.

شعر جلاب بنبرةٍ من الحزن قد ظهرت في حديث السيد ذي البشرة المائلة للسّمرة، فلم يتحدّث بل ظلّ يتبعه في صمت، وما أنْ خطا بضع خطوات حتّى التفت له الملّاح قائلًا:

– لا تتحدث عن قسوةٍ لا تعي لها معنى، لو كانت حريتي ثمنًا لأنْ يبقى أحدهم على قيْد الحياة لدفعتها.

ثمّ أردف قائلًا:

– لِمَ سمّوك جلابًا؟

– لأنني كنت أعمل في صنعة الجلابة.

– في قنا؟

– نعم، مع تاجرٍ من هناك، اشتدّ عليه الحال فباعني كما باع دكانه وأشياء أخرى.

– حسنًا، اتبعني.

صمت جلّاب، توقع الملّاح أنه قد يحاول أن يهرب، ورغم أنه تعمّد أن يسير أمامه بمسافة تسمح له بذلك، لكنّه لم يفعل.. بل فوجئ به يتبعه في هدوء.

تساؤلٌ طرقَ رأس جلاب دومًا؛ لمَ اشتراه الملّاح، ولِمَ لمْ يدقّ عنقه جزاءً له بل وعده بأن يمنحه الحرية لكنْ دون ميقات محدّد، أي كرم هذا قد أغدقه السيد على عبده، سمح له بأنْ يتزوّج إلّا أنه رفض ليكرّس نفسه لخدمته، صار يصحبه في كامل أسفاره، ثلاث سنوات مرّت، أصبح لجلاب

حظوةٌ ومكانة، شعر أحيانًا بأنّ الملّاح أمانة في عنقه يحميه مفتديًا إيّاه بالغالي والنفيس حتّى لو كانت روحه، في كثيرٍ من الأحيان كان ينهض على صوته، صرخاته كانت تدوّي تستنجد ببعض الدفء لشخصٍ يدعى يونس، قبل أن تزيدَ هلوساته فيردّد: «أنا لن أموت يا أنجاس». حاول أن يستسفر منه لكنّه كان يرفض أن يتحدّث، والردّ أحيانًا كان عنيفًا بل وصل إلى الأمر بأنْ لا يخرج أبدًا كعقاب له، لم يكنْ لجلاب أن يعتبر ذلك قسوة، بل كانت حالة من تلك الحالات التي يمرّ بها سيده بين حين وآخر.

الحياة كموجِ البحر بعضها هادئ والبقيّة عاصفة، هجمت عليه ذكريات القسوة والألم، فتذكّر حين خرجا معًا منذ بضعة أيام هاربين عبْر دروب الصحراء، أرسل رشيد رجاله، هاجموا منزلهم، كانوا كثر.

الملّاح يصرخ:

- الموت، الموت، هلمّ إليَ، الموت، الموت.

التفّت النيران حولهم، حاوطت المنزل من كلّ اتّجاه، الريح كانت مواتية لتزيد حدّة الاشتعال، فجذوات الشرر تتطاير حتّى طالت كلّ ركن، والملّاح مازال يصرخ:

- الموت.. الموت.

دافع بكلّ ما أوتي من قوّة وضعف ويأس لكنّ الوَلَس كسر الملّاح؛ فحرّاس البوابة تركوا أماكنهم، كانوا جواسيسَ عليه لا حرسًا ورجالًا له، تمّت رشوتهم، فتظاهروا بأنهم يحاربون قبل أن ينسحبوا فارّين، والملّاح يصرخ:

- الموت الموت، هلمّ إليَّ... الموت الموت.

حُفرت تلك الأحداث في رأسه، رأى سيده يعود إلى الخلف بضع خطوات باهتًا شاحبًا بلا حراك، سهمٌ اخترق ظهر رمانه نفذ عبره، تأوّهت لثوانٍ قبل أن تسلم روحها، أحاطت بهما نيران الغدر، تهاوى مقبض السيف من بين أنامله، تشتت بين صدمتِه ومحاولته أن يحمل جسدَ حبيبته على ظهره، بقسوةٍ تتابعت الأحداث في تسارع وحدّة، حتّى بلغت بهم النيران حدّ الجحيم، رمانة تحترق مسجية في دمائها، سهام نشبت في جسد الملّاح، اندفع جلاب مفاديًا سيّده، أصيب هو الآخر لكنه أمسك بدرعٍ يقي به نفسَه وسيده الذي يصرخ:

- الموت الموت، هلمّوا إليّ لأزهق أرواحكم.

أمسك به جلاب، حاول أن يقيّده كي يهرب به، الملّاح يأبى إلّا أن يبقى، ضربة على مؤخّرة رأسه فغاب على الوعي، حمله على كتفه وعبر بابًا سريًّا لم يكن يدري أحد عنه شيئًا سواهما، هربا باتّجاه الصحراء.

يلملم نفسَه كي لا تجرفه تلك الذكريات إلى الخلف فيضيعا في طريق الموت فيه أقرب من الحياة، فنهض كي يجمع بعضًا من الأعشاب الجافة ليزيد من قوة النيران، المغارة التي لجئوا إليها أضفتْ له بعضًا من السلام والطمأنينة بعد أن كان يرتجف بردًا وخوفًا، ضباعُ الليل قد تهاجمهم، لكنّها لن تجرؤ مادام هناك حاجز بينه وبين النوم، عليه أن ينتبه ويرعى سيده الذي يفيق أحيانًا قبل أن يفقد وعيه ثانية، ثمّ يفيق مجددًا لينهض على قدميْه واقفًا تحملانه بعد أن كانتا عاجزتيْن عن الحركة، النار قد خمدت جذوتها، ويبدو أنّ «جلاب» قد ذهب ليبحث عن حطبٍ لها وصيد يسدّ به جوعًا ألمّ بهم، تحسّس رأسه فوجد عليها قلنسوته، نظرَ إلى جسده الذي كان مدرّعًا بالحديد من ملابس الحرب المعتادة المختلطة ببعض الجلود التي تلتف على ساقه كحماية لها، الحرارة صارت خانقة، الملابس يزداد ضغطها، حاول أن يتخلّص منها دون جدوى، رأى أثيرًا يخرج من جسده، يتشكّل بصورته، يسير هائمًا مبتعدًا عن جسده، خرقت أصوات الطبول أذناه، فحاول أن يحميها بوضع يده عليهما، لفتت نظرَه قادمة من فوق ربوةٍ بعيدة، تلك هي رمانة تدثّرت بالسواد، هاله ما رآه عندما اقترب منها أكثر، تحمل طفلًا على كتفها وتمسّك آخرُ باليد الأخرى، شعرها الكستنائي صار غجريًّامشعث ذا لون أحمر، والأطفال يبكون دون انقطاع، وقف أمامها مرتجفًا، تبكي وتشير إلى بطنها ليرى النار تخرج منها فتحرقُ الكون بأسره فيعود إلى سيرته الأولى، ثمّ تطلب

ثانية أن تمتلئ بطنها بالطعام، فيبكي الملّاح مجدّدًا، عادت له الحياة مجدّدًا حين رأى من بعيدٍ قطيعَ غزلان يرعى، «فاس» على مرمي البصر والبحرُ يموج بالسفن، هُرع نحو القطيع، عليه أن يصطاد ليعود قبل أن يموت يونس، رمانة مازالت تتألم جوعًا، يسمع نداءاتها من بعيد، رفع حربته وهزّ ذراعه كي تكون الضربة في موضعها، غزالٌ شارد وضربة نافذة، هُرع نحوها، أخرج سكينه وذبحها، وقبل أن يفصلَ الجسد عن الرأس هاجمه ضبعٌ جائع، حاول أن يصدّه، فشل، جرح ونزفت دماؤه، هرع الضبع حاملًا صيده، وجدَ أمامه شجرة وارفة مورقة، أغرته بأن يحتمي بها، استظلّ بأغصانها من القيظ، نام أسفلها، فتح عينيه بفعل شمس حارقة أصابته، بحث عن مأوى آخر، وجد كهفًا أمامه، صعدَ إليه بضعَ درجات نحتت أحجارها بعناية، هاجمه ذئبٌ ضارٍ، غرز أنيابه في عنقه، انتفض مفزوعًا، فتح عينيْه فوجد جلابًا يغفو بجواره، حاول أن ينهض، لا يعرف لمَ شعر بأنّ الموت سيكون ضيفًا قريبًا، هو لا يخاف الموت، لكنّه يخاف أن يدفن في أرضٍ غير أرضه دون ذكرٍ يبقيه، قدره لن يكون كما حدث مع يونس.

- انهض يا جلاب، انهض يا جلاب.

نهض جلاب وكأنّه لم يكن نائما، ارتمى على قدمي الملّاح، قبلهما والدّموع تبلل الأرض من تحته:

- سيدي، سيدي، شكرًا لله.

فنظر له الملّاح، وقال بهدوء كان يفتقر إليه وسط صخبٍ روحي كان يغمره:

- سنعود إلى فاس.

صمت جلاب، توقّف عن الاحتفال.

- لكن.....

وقبل أن يكمل قال له الملّاح، وقد بدأ يسير ببطء من فرط إصاباته:

- لن أموت هنا، ارحلْ إن أردت، لكنني عائد إلى فاس.

دون تردّد قال جلاب:

- لن أتركك ترحل دونَ أن يكون لك ساعد يحميك، أصحبك حتّى أموت.

- أو أموت أنا.

قالها الملّاح فصمتَ جلاب قبل أن يردف الملّاح قائلًا:

- أيوب كان دائمَ الحديث عن طريقٍ تقطعه القوافل محمّلة بالملح، هكذا وصل إلينا، سنعبر الصحراء ونحاول أن نلتحق بركب واحدةٍ منهم فنتجه جنوبًا.

نظرَ له جلاب بنظرةِ استفهام فبادره الملّاح بالقول:

- لا تقلق، قريبًا سترى أين كان أيوب هذا ينام.

منخفضة كغورٍ عظيم، تقع خلف جبل يخفيها، ليكون بينهما حاجز، هي سبخة بيضاء مالحة لا تمتدّ كثيرًا لكنها تخفي أرض الواحة خلفها فلا يصل إليها إلّا مَن كان بصحبة واحدٍ من أهلها، يعرف طرقها، أو مجرّد تائه قاده حظّه العثر إلى هناك، أرضها منبسطة، وجبل آخر يلتفّ خلفها محاوطًا إيّاها كحاجز طبيعي يحميها ويمنع الشاردين عن ولوجها، منازلها مربّعة ذات أسقف مقبّبة، تميل للون البني الغامق، وربما يعود ذلك إلى لوْن الطين الذي تصنع منه، في منتصفها بئرٌ يميل نحو الاقتراب من مبنى لم يتبيّن المختار كنهَه، لكنّه يظهر من بعيد وكأنه قد بني بعيدًا بعض الشيء عن منازل أهل المكان، على ربوة مرتفعة يشرف على كافة ما يقع تحته، حقل نخيل يظهر من خلفه، يمتدّ إلى أن يلامس الجبل، كانت ساعة الغروب حين خطا فيها أولى خطواته بصحبةِ رمّاح الذي مالَ عليه وقال:

- لا تخبر أحدًا أنني عثرت عليك.

بدهشةٍ قال المختار:

- وماذا أخبرهم!!

- عليك أن تخبرهم بأنك ضللت طريقك، وقد بعثني الله لك عندما كنت أجمع بعض الأحجار من الجبل.

أومأ المختار برأسه قائلًا:

- حسنًا، لا تقلق.

ثمّ واصل سيرَه بجوار رماح الذي نظر إلى جرحِ صاحبه ليقول باسمًا:

- ألم أقل لك إنّك ستشفى، بضع أيام قلائل ولنْ تشعر بأدنى ألم منه.

- أنقذتني يا رماح، لا أعرف كيف أردّ جميلك.

- لا تقلق، هناك طرق كثيرة منها أن تصمت حتّى لا تسبّب لي السبّ واللعن من جراء خروجي الذي حاولت دومًا إخفاءه عنهم.

ليقاطعهم واحدٌ من أهل الزمام مخاطبًا رمّاح:

- أتائه هذا أمْ أنّك عصيت الرب وخرجت كما يشاع عنك دومًا.

لم يفهم المختار مغزى السؤال، لكنّه رمّاح، مازح الرجل قائلًا:

- لست مثلك لأكون من العُصاة يا مَن حاولت أن تشرب الماء دون إذن.

ضحك الرجل متقبّلًا دعابة رماح ليقول له:

- حسنًا، يبدو أنّه أحد العصاة الذين شاء الله أن يهديهم بأن يضلّ طريقه إلينا.

قالها ثمّ غادرهم بعد أن همّ بالتوقف. رأى رماح دهشةً على وجه المختار، فحاول أن يخفّف منه بالقول:

- لا تستغرب أقوالهم، فمزاحهم سيئ لكنّ أغلبهم ذوو قلب طيب.

- لم تخبرني، لِمَ تخرج سرًّا؟

تنهّد رماح قبل أن يقول:

- أرغب في أن أرى الأرض من خلف الجبل، وأنْ أطلق ساقاي للريح.

كانوا قد وصلوا إلى منزل رمّاح ليصمت المختار بعد أن امتلأ بالدهشة للوهلة الأولى لدخوله الواحة.

- ادخل، لا تقلق ليس لي أحدٌ هنا.

جلسا لوقتٍ قليل، طلب المختار من رمّاح أن يصحبه في جولةٍ داخل الزمام كي يرى بعضًا منه، إلّا أنّ «رماح» قد قال:

- تلك أيام احتفالية، من طقوسنا أن لا يكون غريبًا بيننا، لذا عليك أن تبقى وسأفعل معك.

بسعادةٍ قال المختار:

- أي احتفال تقيمون؟

- احتفال المواليد.

- وماذا يعني؟

- هو أسبوع وُلدت فيه عطايا من الرب.

استغرب الملّاح اسم هذا الاحتفال، ربما كان الأمر يتعلّق بمحصول ما، أو حتّى ابن أحد أعيان، ففضّل المختار الصمت قبل أن يقول:

- حسنًا.

وقد أضمر في داخله أن يحاول أن يتجهّز للرحيل في أسرع وقتٍ ممكن ليعود لأبيه.

اختبأ في بستانهم ذي النخيل الوافرة جرائده، اعتاد أن يذهب إلى هناك من حينٍ لآخر متتبّعًا جاريتهم الحبشية ذات الجسد الملفوف عودُه، دائمًا ما تحضر لأمّه بعضًا من التّمر الطازج يوميًّا، لم يعدْ يقوى على أنْ يقاومها، عاشرها مرارًا في أحلامه حتّى صار لا يستغني عن النوم بمفرده، استغلّ انحناءها، انقضّ عليها محتضنًا إيّاها من الخلف ملتصقًا بمؤخرتها المكتنزة، فوجئ بها ضاحكة تتمنّع في دلال، زاد التهاب جسده، فصعدَ بيديْه ممسكًا ثديَيْها حتّى التفت إليه مُطبقة بشفتيها على شفتيه، استسلم لها حتّى ابتعدت ضاحكة في تغنّج، وقالت له:

- أنت صغير يا ولد، لا تملك ما أحتاجه.

بعصبيةٍ اندفع قائلًا:

- أصبحت رجلًا منذ زمن.

فضحكت لتبرز أسنانها البيضاء وقالت:

- يبدو سأنني سأحتاج إلى برهان.

تلاعبت مخيّلته بما دار بينهم حين كان مايزال صبيًّا، نظر خلفه إلى ذلك السّتار المخملي الذي كان من المفترض أن يستره بعروسه، نهضت وقد تناثر

شعرها، غطّت جسدها البكر بقميص أبيض اللون، كان يجب أن تتقاطر عليه بضع قطرات من الدّم، حاولت أن تهدّئ روعه، بعد أن رأت غضبًا ممزوجًا بقهرٍ وحزن ظهرَ على محياه وهو يتجرّع بضع كاسات من مشروب أعدّه له صاحبه احتفالًا بزفافه، نظر لها وقد غاصت عيناه في محجريهما باحثين عن الهروب منها، صمت قاتل حضر خلوتهم الأولى، صيّاد كان ذا شغفٍ بصيد فريسة استسلمت له خانعة مجبرة دون حراك، يكبرها بثلاثين عامًا، انتزعها من أبيها بعد أنْ أغراه بالمال، مهرها كان أغلى مهور الواحة، عشرُ نخلات من أجود ثرْوته، مضافًا لها ثلاثين أطيب من أشجار الزيتون.

«أتلك لعنة أخرى تضاف لقائمة تطارده مؤخّرًا؟!»

أمسك رأسه متسائلًا، صعوبات واجهها مؤخّرًا، كاد عقله يجنّ حتّى انفجر صائحًا:

– لِمَ أنا بالذات؟ أعقابٌ أم ثأر تلطّخت يداي بدماء ضحية دون أن أدري؟

هالها صوته، ارتعدت، رغم أنها أجبرت علي، إلّا أنها مجددًا حاولت أن تخفّف عنه، وقد ارتسمت على وجهه أعتى معاني الشر، ليس هناك مجال لمداعبة بينهما، أو ملاطفة اندفع نحوها مجنونًا ممزقًا ثيابها، حاول أن يغزوها ثانية، تذكر أولى تجاربه الجنسية في جرنِ دارهم، فكرّر ما فعله وكأنّه صبيّ

يحاول أنْ يبرهن على بلوغه الحُلم، ظهرت بشائر نصرٍ التعمت عيناه على إثره، بينما عروسه تراقب ما يدور في خوفٍ، تحاول أن تمنع دموعها من التّساقط، لحظة فارقة في حياته، اندفع نحوها، أرقدها على ظهرها، تعالت أنفاسُها لتزيده عنفًا وإثارة، تشمّم رائحتها، جيش على وشك الانتصار وخيانة قاسمة ناحرة عنق قائده، انكسرت شوكتُه سريعًا، وهزم في معركة لم تبدأ بعد، انتفض مفزوعًا خائفًا وسط لعناتِ غضب صبّت جامَها عليه حين استعمل أحد أصابعه ليفضّ بكارتها، ثأر من ضعفه بأن مزّقها، وفي جنون كتم أنفاسَها قائلًا لها بنبرة تهديدٍ صارخة:

- بوحي بما دار بيننا الليلة، ولنْ يكون لك عندي سوى منجل أحصد به رأسك يا لعينة.

صمتت بينما لملم حطامَ ليلته وارتدى ثوبه خارجًا، وعقله لا يتوقّف عن النزف بكلمات قاسية على نفسه:

- غوار فارس الواحة، سيّد الأسياد، صار عاجزًا دون رجولة تسري في أوردته وعروقه، غوار لن يبقى ذا قوة بعد الآن، غادرته عزّةُ نفسه التي كان يختال بها، ظلّ سائرًا على غير هدى، مشاعلُ عرسه مازالت مضاءة، وليلة سمر سيكون هو محورَها، حوّل فحولته التي يظنّ الجميع أنه يتمتع بها، وصل إلى مقرّ الحراسة، ويبدو أن صديقه لم يغادر بعد.

تطنّ بجوار رأسه التي طفحت بالعرق المنهال عليها، وحرارة النيران لا تنقشع أبدًا، بينما يقف والدُه عاجزًا أمام برهام النوقي متوسّلًا له أن يبقيه على قيد الحياة، فيأتي ابن عمّه ويركله مُبعدًا إيّاه، ثمّ ينهال بالسّوط عليه فيتمزق جلده، فتعود تطنّ من جديد، لتزيد من أرقِه وكوابيسه التي أصابته وسط طرقِ طبول حربٍ وجبل ينهدم، ودار أبيه على النيل وقد أغرقته المياه ونالت من أهله، ليستيقظ وقد بلّل الماء كاملَ جسده، يبدو أنّ أصوات الطبول والاحتفالات كانت حقيقيّة فلم تغادر أذنه وكأنّها قد غرست فيها، نهض باحثًا عن رمّاح ليجده قد دلف عبْرَ الباب حاملًا في يده مشنّة قد حيكت من خوص ليقول له:

- فضل من يوم المولود بالأمس.

وضعها أمام المختار الذي كان ظمآنًا، بحث عن الماء ليناوله رمّاح قربةً قد عُلقت على باب الدار لترطيب ما بها، فتحها المختار وكاد يسكبُ على نفسه لولا أنْ أمسكه رماح قائلًا له:

- لن نشرب إذا فعلت ذلك، حصّتنا من الماء سنستلمها غدًا، اكتفِ الآن بغسل وجهك وغدًا تغتسل.

- حسنًا.

قالها وقد أصيب بالسأم فالتقط تمرةً صغيرة قبل أن يقول لرماح:

- هيّا لنخرج قليلًا، أريد أنْ أستنشق بعض الهواء.

خرجوا معًا وقد انتصف النهار، أنباء غريب في الواحة لم تمكث قليلًا حتّى صارت على ألسنة الجميع، التقطت أذناه عبارة «القادم من خلف الجبل»، لم يغضب المختار لسماعها، يبغي بعض الراحة قبل أن يغادر عائدًا لأبيه عسى أن تكون أحلامه مجرّد كوابيس تحمل بين طيّاتها أضغاثًا، مرّوا على مبنى التفت له المختار، ولفت نظرَه، وبخاصّة حين وجد تجمّعًا كبيرًا من النّاس حوله:

- ما ذلك البناء يا رماح؟

- هو إحدى أهمّ البقاع المقدّسة في إقليمنا.

- إحدى أهمّ البقاع المقدسة في إقليمنا!!

ردّدها المختار وراءه دلالةً على ما اعتراه من دهشة، قبل أن يواصل رمّاح شرحه:

- ذلك مكان لا يخطوه سوى مَن هو مطهر من كلّ رجس.

اقتربوا منه كثيرًا ليظهر أمام المختار كبناءٍ ثماني الأضلاع، ولكلّ ضلع بابٌ أمامه مظلّة يقف أمامها الناس، فينال الأول منهم ظلًّا يبكي فيه حتّى ينفتح الباب فيمدّ يدَه واضعًا صحفة من جرائد النخل بها بعضُ التمور، ويغادر ليحلّ محلّه آخر متمتعًا ببعض الظلّ باكيًا تحته، حتّى اعتقد المختار

بأنّه واحد من تلك المقامات التي تنتشر في الصعيد والمحروسة بأسرها، لكنّ رماح الذي كان قد توقّف عن الحديث تاركًا المختار ليستكشف ما يحدث، عاود القول:

– هي عرش إلهنا الأرضي، والذي هو أدنى مرتب من إله السّماء، نسمّيها كعبته وأحيانًا يطلق عليها البعض البيدر؛ فمنها ترفع أعمالنا إلى السّماء إلى الرب العلي الأعلى، فائق القوة والبطش والرّحمة واللين، ثمانية أبواب، أعظمها هو الأول.

وبفخرٍ قال:

– زرته صغيرًا، وصلت للباب الأول، باركني الربّ حينها.

كان الاندهاشُ قد بلغ من المختار مبلغًا عظيمًا فصاح في رماح:

– أي خبلٍ تقول؟!! وعن أيّ إله أرضي تتحدث؟!!

أثارت جلبته سخطَ مَن كانوا واقفين من أهل الزّمام، نظروا له مزْدرين إيّاه لصوته الذي كاد يخرجهم من حالة الهيام بربّهم قبل أنْ يقول له رماح هامسًا بسخطٍ عليه:

– لك أنْ تحمد الربّ لأنّ أحدًا لم يستمع إلى تجديفك.

ممسكًا إيّاه من ذراعه جاذبًا إيّاه عائدين لكوخ رماح.

شتات يطاردنا، الشتات كدود القبر ينخر في أجسادنا، أشعر بأنّ الكون لم يعدْ متقبّلًا لاحتوائنا.

نظر له جلاب قبل أن يردف الملّاح مجدّدًا:

- أتعلم لِمَ اشتريتك رغم محاولاتك أنت أن تثنيني عن ذلك؟

حرّك جلاب رأسه متسائلًا، فردّ عليه الملّاح:

- لأنّ عينيْك بهما خوفٌ رأيته بمجرّد أن نظرت إليهما، أنت هو أنا بصورةٍ أو بأخرى، وصلت إلى مرحلتي من الخوف وعدم الاطمئنان، حاولت أنْ تداريه كثيرًا وراء كثبان من الصمت والتبجّح كي يهابك الناظرون إليك.

- سيدي ملاح، أعرف ما يدور برأسك، قد تكون تلك هي كلماتنا الأخيرة، غدًا سيحتوينا الثرى.

قاطعه الملّاح:

- لستُ خائفًا من الموت، لم أخفْ منه أبدًا، لكنّ الحياة ظالمة، أدركت ذلك حتّى صار عندي يقين بأنّ السماء لا تعطي سوى لعاصيها.

ارتسمتْ على وجهه ابتسامة لثواني حتّى تحوّلت لقهقهات عالية الصوت ممّا أثار استغرابَ جلاب، فسأله عن السبب ليردّ عليه الملاح:

- تذكّرت حين كان ينادي التاجر لبيعك قائلًا: مَن يشتري هذا العبد على عيبه وأكون له من الشاكرين.

رجل بزيّ بدوي، يرتدي حزامًا جلديًّا يتدلّى منه سيف مقوّس، اقترب مطلًّا برأسه لينظر لهم عبْر قضبان باب خشبي كان سدًّا بينهم وبينَ الخروج من محبس كجبٍّ لا نورَ يصل إليه إلّا عبر كوّة في أعلى سقف ذات ضياء لا يثمن ولا يغني من جوع، قال لهم ساخرًا:

- أتدرون أنّ كلماتكم وتلك الضحكات العالية الصوت هي الأخيرة لكم يا أنجاس.

نهضَ جلاب، خطا نحوه وبثقةٍ قال له هامسًا:

- ومَن يدري أيّ منّا تلك هي لحظاته الأخيرة؟

توتّر الحارس، ناداه قائدُه فغادر في سرعة مغلّفة بالخوف، التصق جلاب بالباب، حاول أن يخرقَ القضبان بعينيه كي يرى ما يحدث في الخارج، جلبة وصلتْ أصواتها إليهم، عاد إلى الملّاح، واصل مزاح لحظاتهما الأخيرة من الحياة فقال:

- يبدو أنّ الحارس على حقّ فيما يقول، اليوم هو الأخير.

دلّى لسانه خارجَ فمه وكأنّ روحه قد غادرتها، بنبرةٍ جديّة مشوبة بالسخرية قال:

– علينا أن نستعدّ للرحيل إلى الجانب الآخر، إلى اللقاء يا سيدي، أراك هناك.

لم يتمالك الملّاح نفسه، ابتسم مجدّدًا رغم معاناته، قاطعه جلاب وقال له مستغربًا:

– أتعرف مَن لمحت عبر شرفة الباب؟ شخصًا ما يشبه «غوار».

فردّ عليه الملّاح متسائلاً في سخرية:

– أيكون قد انتهى من عروسه؟ّ

– يبدو هذا يا سيدي.

قال ساخرًا:

– ما أقواه من فحل!!

عاد ليجلس على الأرض مستندًا بظهره على حائط الزنزانة، فوجئ بالحارس يصرخ فيهم بقوة دون سببٍ كي يصمتوا، فردّ عليه جلاب:

– أنموت غدًا ونصمتُ اليوم، أيّ عذاب هذا؟!

– يبدو أنّ موتك غدًا يا أفطس سيكون أحسن حالًا من كثيرين غيرك.

– كيف يا أرعن؟!

قالها جلاب مستفزًّا إيّاه كي يسبر أعماقه، فردّ عليه:

– لو تدري ما به سيدي غوار، والذي سيأمر بشنقكما غدًا لتمنّيت أن تموت في الحال.

قالها شامتًا فيهم ليردّ عليه جلاب:

– وهل تجسّست عليهم يا وضيع؟

في خوفٍ وحذر نظر الحارس خلفه، ثمّ أخفض صوته وهو يقول:

– ليس تجسّسًا يا غبضان.

– وماذا تسميه أنت؟

مطّ شفتيه ليقول:

– مجرّد صدفة قادتني لأسمعهم.

أظهر جلاب الاهتمام، بينما نهض الملّاح من على الأرض ليستمع إلى ما يقوله الحارس لهم، الذي بدأ حديثه بالقول أنّ أمورًا سريّة سوف يحكيها لهم، لأنّه يضمن بأنّهم لن يبوحوا بشيء، وسيموتون قبل أن يحاولوا حتّى أنْ يفعلوا ذلك.

تمايلتْ أغصانُ بعض الأشجار المتناثرة لتعبر عن نسيم بارد حلّ ضيفًا غير اعتيادي في ليلة صيفية كان من المفترض أن تكون حارّة، توارى القمر محتجبًا، قلّت درجة الرؤية، استعاض الناسُ عن ضوئه بمشاعل تناغمت مع نجومٍ تلألأ ضياؤها في خفة لتضفي جوًّا ذا راحة للنفس، فتتناثر من بعيد بعضُ أصواتٍ لدفوف يتمّ الدق عليها لتشكّل ألحانًا منتظمة تتشابك مع تلك المزامير التي تُعزف ألحانها، وما بين حينٍ وآخر تتوقّف الموسيقى فتُتاح الفرصة أمام بعضِ أصوات هتافات من أناس تعلو لتبدو وكأنّهم يقيمون احتفالًا ما، بعض لحظات بسيطة قبل أن تعود الألحان مجدّدًا لتصدح وسط أيادٍ تتشابك وترقص حول تلك الجوقة الموسيقية المكوّنة من ضاربي دفّ وعازفي مزمار، وحول تلك الدائرة الرّباعية دائرة أخرى دائرية الشكل، يجلس النّاس فيها على الأرض، تتناثر أمامهم أطباقٌ من الفخار التي امتلأت بالبلح، وبعض أنواع أخرى من الفواكه كالتين، يمرّ الوقت والاحتفال لا تنطفئ أبدًا أضواؤه، حتّى وقف واحدٌ منهم، كان ذا طول متوسّط، ربعه في جسده، عينان بارزتان للخارج بعض الشيء، ذا شارب ولحية شذّبتا بعناية، يرتدي ملابس بدوية كإخوانه من أهل الواحة، لكنّه يختلف عنهم في أنه يرتدي «جردًا» غطّى رأسه، له ألوانٌ تختلف عن ذلك اللّون الجملي

الذي يرتديه الباقون، فكان يميل إلى لون الغسق، ذا وقارٍ وهيبة، ويبدو أنّه صاحبُ جلالة بينهم، فمبجرد أن رفع يدَه حتّى صمت الجميع، نظر إلى الخلف، مدّ له أحد هؤلاء ممن لم تكن إضاءة المشاعل قد وصلت إليهم لفافة أسطوانية من خوص النخيل، نظر لها في بهجة، قبّلها محتضنًا إيّاها قليلًا، سار بها حتّى وصل إلى منتصف دائرة الحاضرين، حاول الجميع أن يفسحوا له مكانًا للمرور متجنّبين لمسَه وكأنّه شيء مقدس لا يجب أن يدنّس، نظر نحو السماء الخالية من أيّ ضياء، ابتسم ثمّ رفع بيده تلك اللفافة إلى أعلى، كرّر فعله ثلاث مرّات متتالية في هدوء، وكأنّه يحافظ على قدسيّة تلك اللفافة، ثمّ تراجع للخلف بظهره وقد احتضنها في شيء من الحنان، ويْكأنه يخشى عليها، وما إنْ خرج من تلك الدائرة حتّى هلّل الحضور بشدّة، تقدّم بعض العاملين بالخدمة ليزيحوا أطباق التمر والفاكهة ثمّ دخل خمسة رجال يحملون قعودًا قد تمّت تسويته ووضعه على طبقٍ ضخم من فخار محاط، جميع الظروف مواتية، فالقمر الغائب قد ساعده على أن يتوغّل في طرق لم يخطوها من قبل، لم يكنْ أمامه سوى بضع خطوات حتّى يصل إلى البئر ليلتفّ من حوله ذاهبًا نحو طريقه، تكاثروا حوله، شعرَ بألم في مؤخّرة رأسه انتزعه من دنيا اليقين، ليصاب بدُوار قبل أن يفقد الوعي، لا يدري كم من الوقت مرّ به على هذا الحال، لكنّه استيقظ ليجد «رماح» ينظر له في غضب:

- ما بك؟ أتريد أن نهلك بسببك؟!!

رفع المختار رأسه قليلًا وقال:

- لا أدري ماذا حدث.

تجاهل رماح كلمات المختار، وقال وكأنه يحادث نفسه:

- مذ أن دخلت الواحة وقلبي يحدثني بمكروه سنصاب به جميعًا من ورائك.

- لكنّني...

بغضبٍ صرخ رماح:

- لا أريد أن أسمع شيئًا منك، في المرّة المقبلة عليك أن تنجو بنفسك، فلولا أنّ رجال الكعبة كانوا ذوي مراتب منخفضة نوعًا ما؛ لكان عقابنا شديدًا.

حاول أنْ يهدأ إلّا أنّه قال محذرًا:

- توقّع أن تقابل المصاعب حتّى تغادر، إن غادرت.

- اهدأ قليلًا، فحتّى اللحظة لا أفهم ما حدث.

بانفعالٍ تطاير على إثره لعابه، قال:

- لا تفهم، حسنًا، لقد حاولت أن تتعدّى على الماء المقدس، الماء الشريف الذي لا يقرب أحدٌ منه، مهما كانت علو منزلته حتّى لو كان أحد رجال الكعبة وخدّام الإله.

- لكنني لم أرغبْ في الذّهاب إلى هناك، أردت فقط أنْ أقترب من الاحتفال لأرى ما يحدث، لم أكنْ أدرك أنّ البئر موجودة.

- حتّى إنْ كان هذا قصدك فكان لا بدّ أن لا تذهب، لقد حذّرتك من الولوج إلى مناطق محرّمة حتى على أهل الواحة، إلّا بإذن إلهي.

هزّ المختار رأسه يمينًا ويسارًا..

- لا أفهم منك شيئًا، منذُ أن تاهت بيَ الدنيا وألقيت أمامك وأنا أرى وأسمع منك الكثيرَ من الأمور الغريبة التي لا يتقبلها عقلي.

بحركةٍ سريعة توجّه رماح إلى زاوية من مسكنه، حفر قليلًا في الأرض، أخرج صندوقًا خشبيًّا، قام بنفْض ما عليه من أتربة مستخدمًا أحدَ أكمام ثيابه، ثمّ قام بفتحه مخرجًا لينظر المختار متأملًا تلك اللفافات التي كانت محفوظة بعناية، يخرج رماح واحدًا تلو الآخر حتّى قام برصّها على طاولة أمامه، حاول المختار أن يسأله عن ما يفعل، اتّخذ الملّاح وضعَ القرفصاء، انثنى بجذعه إلى الأمام:

- لقد كنتُ حينها صغيرًا في الخامسة من عمري، في ذلك المكان الذي بنيت فيه الكعبة كان الفضاء مسيطرًا على المكان عدا مجلس كبير ذي أعمدة من النخيل، بأضلاع أربع متساوية، أمامها كنّا نستظلّ حين نذهب إلى الدرس مع انتصاف شمس النهار، لا أدري ما تعلّمنا لكنني أذكر وجهًا أراه كثيرًا

في أحلامي، عجوز اصطحب شابّة في مقتبل العمر، كان عابسًا، وكانت تحاول أن تتفادى قدر الإمكان لكماِته التي كان يسدّدها من الحين للآخر على ظهرها، دلفوا إلى الداخل، سمعنا صوتًا عاليًا كلماته لم تكنْ واضحة، أتذكّر منها فقط أنّ شخصًا كان يصرخ «أنا الإله لا الكذب، أنا النّماء لا الجدب» اختفى الصوت تدريجيًّا، خرج العجوز مبتسمًا يجرّ خلفه تلك الفتاة الشابة، حينها كانت تلك هي أولى المرات التي نستلم فيها لفائفًا نتعلم أن نقرأ ما فيها، ونرتّل الكلمات المقدسة المستحبّة أن نستعين بها.

ردّ عليه المختار:

- أصبح يقيني بأنّ أمورًا أجبرت عقولكم على اعتناقها.

بهدوءٍ لم يكن حاضرًا، منذ لحظات ردّ عليه رماح:

- هو اختصّنا ليكون بيننا حاميًا ومرشدًا وإلهًا.

دهشة اعْترت وجه المختار:

- إله! كيف هذا، أي...

قاطعه رمّاح محاولًا أنْ يفهمه في هدوء:

- نحن لا نكفر بربّ السماء، لكنّ ملائكته يساعدونه في سمائه ورفيقه الإله الأرضي كُلّف بأنْ يرشدنا على أرضه، الأقاليم كثيرة، وعنايته بنا

تتطلّب أن يكون له خدّام وأعوان، وإلّا فكيف حمل الملائكة عرشه، وكيف اصطفى البعض منهم مقربًا إيّاهم إليه، هذا كان تطوّره الوحيد، سمعنا عن أقاليم لم يُبعث بها إلهٌ بعد، ذلك اختياره وتلك طاعتنا.

- تناقض كلماتك تشي بأنّ الأمر مجرّد مزحة.

بثقةٍ قال رماح:

- ربما لأنّ الرّب لم يرسل إله الأرضي بعْدُ إلى إقليمكم، فلنْ تفهم.

– حاولتْ دون جدوى، ينتصب بعيدًا عنها، وبمجرّد أن أقترب جالسًا على جحرها، أشعرُ بعدم وجوده، حتّى ظننت أنّ شللًا ما أصاب نصفي السفلي من جسدي.

قاطعه قائدُ الحراس ملاطفًا إيّاه كي يهدأ قليلًا:

– هل جرّبت شرابي؟

– بدأت به ليلتي، فانتكست رأسي وسقطت رايتي.

شبح ابتسامةٍ ظهر على وجْه القائد، حاول أنْ يداريه بالنّظر في اتجاه الزنزانة ليقول للحارس في حدّة مُصطنعة:

– أخبر السجينين أنّ غدًا هو يومهم الأخير.

– أمرك يا سيدي.

قالها الحارس، بينما عاد القائد ليقول لغوار:

– لا تقلق، تلك حالة عرضية ليس أكثر، فأنتَ غوار ابن صلد الأرض وكبير الجبل مروّض سباعه.

بأسًى قال غوار:

– يبدو أنّني صرت من الماضي، ولن أصبح بعد الآن.

– لا أريد أنْ أسمع كلمات يأسٍ منك، واظب على مشروبي، وأنا أثق أنّها حالة عرضية وستنتهي.

وبنظرةٍ خبيثة قال:

– لن يمرّ أسبوع حتّى ينهدم الجدارُ وتساويه بالأرض تحت وقع ضرباتك.

التمعت عينا غوار، تمنّى أن يحدث ذلك، التفت تجاه الزنزانة، وكأنّ طاقة قد بثّت فيه، فقال بصوتٍ عال مناديًا للحارس:

– جهّز حبالك جيدًا، سأحضر مراسم شنقهم بنفسي.

عادَ جلاب والملّاح مقهقهين ثانية حتّى وقعا على الأرض قبل أن تنتقل حمّى السخرية إلى الحارس الذي كان يقصّ لهم ما حدث مع قائده وسيّده غوار، فابتسم رغمًا عنه ثمّ حاول أنْ يتماسك كي لا ينتبه القائد لصوته إذا ما حضر على حين غرّة قبل أنْ يقول الملاح:

– يأمر بشنقنا وهو لا يملك أنْ يسيل بضع قطرات دم.

اغرورقت عينا جلاب بالدّمع من شدّة الضحك، وغمز الحارس بعينه قائلًا:

– وربما أسال ولكنْ بطريقة أخرى.

غادرهم الحارس سريعًا قبل أنْ يفتضح أمره وقد شعر بارتباك تسلّل إليه، حياته قد تكون على المحكّ، إنْ باح أحدٌ منهما بأنه قد قصّ عليهم ما دار بين غوار والقائد.

مرّ الليل سريعًا، وعاد النهار طازجًا تتجلّى فيه الشمس، لم يذقِ الملّاح وجلاب طعم النوم، سعيًا لأنْ يطيلا أمدَ حياتهما فالنّوم الأبدي قادم، فتح الحارس أبواب الزنزانة، أمر الجنود بأن يوثقا قيدهما، ففعلا بعنف وسط مقاومة لم تجدِ نفعًا، ثمّ تقدم منهما وقام بنفسه بتكميم أفواههما، وفي موكب جنائزي أُعدّ دون تجهيز أو اتفاقٍ مسبق سار السّجينان محاطين بصفّين ممّن حضروا باكرًا ليشهدوا مراسم الشّنق التي لم يروها منذ أمدٍ بعيد، وربما عاش منهم مَن لم يرها طوال حياته، وصلا إلى نخلة ذات جمارة ذابلة بلونٍ أصفر باهت، جذعها طويل منحنٍ، تنبعث منها روائح كريهة، ألقى أحد الجنود عليها حبلًا، ربطه مستوثقًا منه كي لا ينقطع، وتوجّه لقائده قائلًا:

– المشنقة صارت جاهزة يا سيدي.

على حين غرّة خرج غوار بصحبة قائد الحرس العام سائرين بهيبةٍ وسط الجموع التي صارت تشكّل لهم طريقًا للوصول إلى الدّائرة التي تجمّعوا حولها، أوقف الحارس قائلًافي سخرية:

– لهم طلب أخير قبل أن يموتا.

جلبة أحدثها الحاضرون بهمهمات من جرّاء ما قاله غوار منتظرين ما سيحدث، في حين تقدّم غوار بنفسه نازعًا كمامةَ الملّاح وسط قلقٍ من

الحارس، فحاول أن يثني غوار عن ذلك، إلّا أنّه ردّه بنظرة ازدراء واحتقار، وقال:

- ألك أمنية أخيرة؟

لم يدرِ الملّاح ما السبب وراء التزامه الصمت، على وشك أن يشنق، عليه أن يتمسّك، ربما بالقشّة الأخيرة علّها تنجيه من الغرق في غياهب بحرٍ مظلم لا شطآن له، لكنّ الأوان قد فات، شعر غوار بأنّ الملّاح لا يرغب في أمنيات أخيرة، فابتعد عنه حتى دون أن يلتفت إلى جلاب الذي صرخ بضع صرخاتٍ مكتومة، فعاد له، تردّد قليلًا قبل أن يتقدّم نحوه نازعًا كمامته في سأم مَن يريد أن ينهي أمرًا صار يسبب له الملل:

- كيف تتمنّى أن تنهي حياتك؟

بأنفاسٍ متسارعة قال جلاب:

- ليست أمنيتي لكنّها أمنية سيدي.

وأشار بعينه إلى الملّاح الذي أصيب بالدّهشة قبل أن يميل جلاب نحو غوار، وقد صار أكثر الحاضرين ذهولًا حين قال له جلاب بصوت خفيض:

- سيدي، ينبغي أنْ تسمح له بأن يفكّ وثاقك.

بتعجّبٍ نظر إليه، وفي قراره نفسِه يقول:

- أوجز العبد عن سيده، وقال ما رغبت وعجزت عن قوله.

حينها فقط، شعر بغيرةٍ لم تطرق قلبه تجاه جلاب من قبل.

وضع كفّ يده اليمنى على صدره، وقال:

– هنا ننفذ إلى صميم الحياة الروحية لدينا، فنحن لا نُعرض عن الظّاهر الساذج المستقيم من الأمور، وندلف إلى الباطن الشائك الزّاخر بالمتناقضات، بل ينصب تقديس الإله لدينا حول تبجيل فكرة التزاوج والتوالد، فالروح قد خلقت من ربّ السماء العلي ذي البسطة واليد التي لا ينضب خيرها.

قالها وقد أشار بسبّابته إلى الأعلى، ثمّ أردف قائلًا:

– أمّا النّطف فأمرُها بيدِ الواحد ربّ الإقليم وإلهه، إن شاء الله يكفيها وإن شاء وصلها، حتّى زاد الفساد وكثرت جرائم الخلائق، فصار عليه أن يئدَ الشّر قبل أن ينبت، فحلّت ملائكته في جسد الرجل ينتقص منه فحولته فيصير عنينًا، أو يباركه ويكافأ عبادته وتنسّكه فيصير ثورًا لا قِبل للبوءة أن تواجه شراسته، هكذا كان عقاب المفسدين وجزاء المحسنين، وليرجع العالمين إلى ربّهم، طالبين الصفح والغفران عن معاصيهم.

– وبعد؟

تساءل مختار ليردّ عليه رماح.

لذا كان على الرجال أنْ يتعبّدوا، وعلى النساء أن تقوي الواحدة منهنّ عضدَ رجالهن ليوفوا ما عليهم من تقديس إلهي، وإلّا صار بعلها عقيمًا، وصارت أنثاه أضحوكةَ أهلها بأنّ الله قد ابتلاها بالزّوج العاصي.

- وهل يقمْنَ بذلك؟

نظر رمّاح متأمّلًا ضوءَ الشّمس الذي تدهور آخر خيوطه فوق تخم هضبة سفلية من الجبل الواقع أمام حقل النخيل المتّسعة مساحته ليبدأ الظلّ رحلة البحث عن مأوى له، فتبدأ خيالات الصبّار المزخرفة بالأشواك في الاختفاء تدريجيًّا، ليصير الجوّ ملائمًا لسمر عصري الميقات رفع قربة الماء على فمه متجرّعًا بضع رشفات قبل أن يقول:

- عوز الحاجة يضنيهنّ، والرغبة قاتلة حين لا تجد مَن يلبّيها.

فبادره المختار قائلًا:

- وما أدراكم بذلك، لربما كانت نساؤكم لا يستثيرونهم، أو أنّ أرحامهنّ لا تحتمل أنْ تأوي بداخلها ماءً ليصير عظامًا؟

نكزه رماح في كتفه ممازحًا إيّاه، ونظر له بخبثٍ قائلًا:

- لا تقلق، فنساؤنا بارعات في تلك الأمور.

ظهرت علامات من عدم الفهم على وجْه مختار، يبدو أنّ هناك أمورًا بعد لم يدرِ عنها شيئًا، وهو الذي كان يعتدّ بنفسه وسط أقرانه، نظر ليجد أنّ عينا رماح بهما من الشماتة ما لا يخفى عن الناظر إليه، فسأله قائلًا:

- وما حالك بينهم؟

ابتسم ساخرًا وقال:

– إلى أنْ يأذن الله بذلك فليس أمامي سبيل إلّا الصبر.

ثمّ تنهّد الرجل وقال:

– أيّ فرج هذا الذي يرتضي لنفسه أن تقتحمه نطفة فقير مثلي.

فنظر له المختار مندهشًا، فقال ساخرًا:

– الفقيرون للفقيرات.

– أتعلم أنّ تلك هي أحد ذنوبنا التي تؤخّر ارتحال الربّ نحو السماء؟

حاول المختار أن يسايره، فقال مستفهمًا:

– كيف هذا؟

يأمرنا الربّ أن لا يكون بيننا كبيرٌ سواه، وأن نحيا بسمتٍ واحد دون اختلاف، فلا يكون منّا الغني الفاحش أو الفقير المدقع، ومع ذلك فأغلبُ أهالى الواحة يفضّلون أن تتزوّج بناتهم من ذوي أكبر عددٍ من النخيل.

– ألّا يتدخّل؟

– بلي، يرسل وعّاظه.

قاطعه المختار سائلًا:

– أمثل ذلك الرجل الذي رأيته بالأمس؟

- لا.. لا، هذا من المبلّغين.

دون فهم نظر له مختار ليقول له رمّاح:

- حسنًا سأشرح لك، رجالُ الكعبة ينقسمون لثلاثِ فئات، لا نعرف مَن قسّمهم، لكنّ التدبير يعلو ويحكم، أعلاهم معمّمون، وأدناهم وعّاظ، وأوسطهم مبلّغين، أمّا رجل الأمس فكان مبلّغًا نعرف على لسانه كلمات الربّ التي يكتبها معمّموه.

- حسنًا، وكيف يصعد ربّ للسماء؟

حين نطيع كافة أوامره، وتتمّ صلاة الغروب على الوجْه الأكمل، تلك هي أقدس العبادات، فالإله قد بدأ من هناك، وإليها سيعود، حينئذ يقرّر ربّ السّماء تكريمه، فيصعده ملكًا بجواره حاكمًا مغارب الكون بأسره.

- مادمت ناسكًا لهذا الحدّ، لم لا تكرّس نفسك لخدمة الكعبة وربّها.

بأسًى قال:

- نحن لا نطلب، بل هُم يختارون مَن يتوسّمون فيه الطاعة، لو كان قلبي سليمًا معافى يحمل كلمات الربّ عن آخرها؛ لكنت قد انْضممت.

- أمور واحتكم تدعو للدهشة....

مكملًا حديثه قال رماح:

- حتى أنّنا نعصيه حين نسمح لك بأنْ تقول عليها واحة، هي زمامه وليست مجرّد واحته.

بتهكّم قال المختار:

- تعصونه أكثر من طاعته.....

ولم يكدْ يكمل حديثه حتّى وجد أنّ عيون رماح حادت عن النظر إليه لتتأمّل في شغفٍ بدا واضحًا عليها، تلك الفتاة التي تمرّ بجوارهم، فضمّ سُلاميات يده، دقّ بها على رأس رماح الذي تاهت عيناه، فردّ عليه دون أن يتلفت له:

- أتدري مَن هي؟

- يبدو أنّها ذاتُ شأن عندك، وإلّا ما أطلت النظر إليها.

- بالفعل، هي بثينة، آية جمال الربّ.

استغرب المختار وصفَه حتّى اندهش من تعلّق رمّاح الشديد بالنظر لها، ليسأله:

- مَن هي حقًّا؟

انجعص رماح بصورةٍ أثارت ضحك المختار ليقول:

- بثينة تلك التي خلقت من ضِلع الجمال ذاته، نحتوها كحوريّة فصوّرت فاتنة وفتنة للضعفاء منّا، يراها البعض ماجنة لا تقرب الصلاة أبدًا، وآخرون يقسّمون بالربّ وأبوابه الثمانية بأنها ناسكة عابدة متبتّلة، بل يقولون إنّها كثيرًا ما تطوف منفردة حتّى وهبها الله هيئةً لا مثيل لها بين أقرانها.

حيرة ودهشة وغموضٌ أصيب بها المختار من كلمات رمّاح الذي واصل قائلًا:

– هي بتولنا وعاصيتنا، غانيتنا وربيبة ربّنا، هي....

قاطعه المختار قائلًا:

– وأنت، أتعشقها؟

وكأنّ المختار لم يستغرب سؤاله فردّ عليه:

– دعْك منّي فهناك أُوار، ذلك الشاب الذي يرى أنّ الخالق لا قدرة له على خلقٍ مثلها مجدّدًا.

– لهذا الحدّ؟!

– بل وأكثر من ذلك، يدعوها عروسه، يعشق رائحتها، على استعداد لأنْ يموت مقدّمًا نفسَه قربانًا على أحد أبواب الكعبة، فقط من أجلها.

– وأيّ ربّ تقصد، أربّ الكعبة أم ربّ السماء؟

أثار السؤال انتباه رمّاح الذي غابت عيناه، ربما تتخيّلان بثينة بين أحضانه ليردّ عليه:

– في الماضي كان علينا أنْ نختار واحدًا، حتّى ظهرت لفيفة تحدّثنا عن اختيار ربّ السّماء للربّ الأرضي بعد أن تعذّب الناس بعصيان الكافرين منهم.

لم يشأ المختار أن يطيل في حديثٍ رأى أنّه لا طائل منه، أيام معدودات ويعود إلى دواره، سيحارب ابن عمّه، أقسم على أن يسمل عينيه ويقتله، ثمّ يسير حاملًا رأسه على حربته بعد أن يسلخ الشّعر منها، فقال لرمّاح ممازحًا إيّاه:

– أريد أن أرتاح، أعرف أنّ أبناء الصحراء ذوي كرم لا ينتهي.

قال رماح ضاحكًا:

– بالفعل، لكن لا تطمع في أكثر من كسرة خبزٍ مبلّلة بالماء بعد أن انتهى طعام الاحتفال.

إذًا.. هيّا بنا قبل أن تجوع بطني أكثر.

بمجرّد أن رأى وجهها حتّى أصابته حمّى الشعر، فأنشد بصوتٍ مسموع:

وإنِّي قَد عَشِقتُ لَما شِفاكِ
أخَاها نَجمًا يستبيحُ قِماري
وكلّ العشقُ في خَلجَات نبضي
يعانقُ شَوقهُ بأجيجِ ناري
ويأتي طَيفُك المُختالُ ليلا
يعانقُ غَفوتي ويُضيءُ دَاري

ردّدها أُوار مليًّا، كان متمسكًا بالنخلة كي لا يسقط، بينما كان يجمع بعضًا من التمر، هزّ واحدٌ من أقرانه الحبلَ المعقود به جزعه، فوقع على رأسه، لكنّ صلابتها حالت دون أن يصاب، نهض سريعًا متألمًا غاضبًا، تملّكته رغبة في لكْمِ ذلك الذي كان سببًا في إيقاعه، تماسك في اللحظات الأخيرة، تذكّر نصيحة أبيه؛ قوتك لا تكون سوى مع مَن لديه مثلها، ودون ذلك ظلم وتجبّر بيِّن لا يرضي الله، فاكتفى بابتسامة واثقة على أثر ألم شعرَ به صاحبُه بعد أن ضغط بقوّة على أصابعه..

- لا تحاول أنْ تخرج غضبي عليك.

برجاء ردّد:

- لن أفعل، لن أفعل.

بألمٍ قالها صديقه، ثمّ فرّ من أمامه بمجرّد أن أفلت أوار الذي عاد إلى رشده أصابعه، بثينة أضاعت عقله، أصابته بسكرٍ، ترنّح على أثره كلّما رآها، فكانت كلمات الشّعر تخرج رغمًا عنه، رغم أنه لم يكنْ يومًا شاعرًا، نظر إلى الطريق الذي سارت عبْرَه، استلهم من آثار قدمها الضئيلة شعرًا ظلّ يشدوه، فكان كلّما مرّ على مجموعة من الشباب يجسلون في ظلّ نخلة أو شجرةٍ من أشجار الزيتون، تهامسوا عليه خوفًا على أنفسهم من عقابه إنْ وصلت إلى أذنه كلماتهم.

- أوار، أوار.

التفت ليرى مَن ينادي، فتاة صغيرة بمجرّد أنِ اقتربت منه حتّى قالت:

- بأنفاس متقطعة من فرط الجري.

قالت:

- والدك يرغب في أن يراك.

بقلقٍ سألها:

- هل به شيء؟

- لا تقلق، لكنّه في انتظارك تحت نخلته التي يجلس عندها دومًا.

أطلقت ساقها لتلحق بركب رفيقاتها، وهي تقول:

- يقول لك أن لا تتأخّر.....

نظر إلى آثار أقدام بثينة، تردّد في اللحاق بها، لكنّه لا يجب أن يتأخّر أبدًا، حوّل وجهته، فسار حتّى وصل إليه:

- ادخلْ يا أوار.

قالها الأب فانضمّ له أُوار تحت ظلّ النّخلة.. تساءل في قلق:

- ما بك يا أبي؟

- لا تقلق علي.

ثمّ ابتسم وقال:

- ينبغي عليك أن تقلق على نفسك.

حدّث أوار نفسه بأنّ أباه سيحدّثه مجدّدًا عن بثينة، هو نفسه لا يدري ما حدث له، استيقظ من نومه وكأنّ نصلًا قد غرس في قلبه بشغفٍ صار حبًّا فهيامًا:

- يا أبي! بثينة....

وقبل أن يكمل قاطعه أبوه بأنْ أمسك بيدِه مستندًا عليه لينهض، وقال له:

- سرْ معي قليلًا.

تلطّف الجوّ بعض الشيء، عادت نسمات الريح مجدّدًا، في صمتٍ سارا معًا بضع خطوات:

- رأيتك بالأمس تعدو.

فتح أوار عينيه استغرابًا، لكنّه فهم أنها إحدى تلك الرّؤى التي لا ينفكّ أبوه يراها له من حينٍ لآخر، جميع الآباء والأمهات في الزمام يرون أبناءهم حين يسيطر القلق البالغ على عقولهم.

- كنت تعدو نحو البئر الشرقية، ممسكًا جريدة نخلٍ في يدك اليمنى، تبعد بها الحشرات عن وجهك.

ثمّ صمت قليلًا، وكأنّه يحاول أن يتذكّر، قبل أن يقول:

- قلقت عليك كثيرًا، نهضت وكان الضوءُ على وشك أن يستسقط من غفوته، خرجتُ لأقف في الباحة أمام المنزل، الأجواء كانت معتمة، وخلتِ السّماء من النجوم، ازداد قلقي، صرخت بشدّة مناديًا عليك، لكنه كان مجرّد حلم آخر.

قطّب أوار جبينه، حاول أنْ يداري قلقه بابتسامة متعثّرة، ثمّ ألقى مزحة قائلًا:

- حسنًا، سوف أحكم الواحة، وأهشّ بجريد النخل مَن سيعترض عليّ مِن حشرات.

ابتسم له الأب، وقال:

- تمزح كثيرًا، قديمًا ارتبط لدي أنّ قصار القامة ضئيلي الجسد هم فقط مَن تمتعون بروح مرحة وحسّ دعابة وذكاء، لكنك كسرت تلك القاعدة.

بحنانٍ حاول أوار أنْ يطمئنَ أباه قائلًا:

- لا تقلق.

قاطعه أبوه:

- بل سأظلّ أفعل، اعتنيت بك بعد وفاة أمّك، وليس لي أحدٌ غيرك في الزمام بأسره، وأنت تدري ما بهم، لا شأن لأحد منهم بالآخر.

بأسًى قال:

- أعلم، لكنها شيمهم ولا تغيير فيهم.

- حسنًا لنتبتل للربّ علّه يحدث تغييرًا فيهم.

- لن يحدث.

صمتا وعادا إلى السّير مستنشقين الهواء التي يحمل رائحةَ حدائق النخيل والزيتون التي اقتربت خطواتهم منها، فحاول أوار أن يستنشق عبيرها، علّها تساعده على أنْ يعيش قليلًا، فجدائلُ شعره قد استطالت ملتفةً على عنقه، وعيناه برزتا من محجريهما، بينما تدلّى لسانه وتحوّل للون الأزرق، وقف الناس أسفل النخلة التي علقت بها رقبته، يبكونه في أسى، لكنهم لا يسعون لإنقاذه أبدًا.

وَدِيَّة فروعها تتدلّى، تلامس الأرض وكأنّ شيطانًا قد أسقط جريدها فتكون متقزّمة لا شامخة ذات هيبة كمثيلاتها، طيب التّمر لا ينبت منها، فقط تظلّل وتخبئ تحت فروعها الوارفة من بحث عن الاختفاء عن العيون، اقترب منها خالعًا ما عليه من ملابس، راقدًا على ظهره، مريحًا رأسَه دون خشية من الأذى، فقد ظلّ محتفظًا بعمامته تلك التي كانت ملفوفة بدقة، طويلة فائرة، بيضاء ممشوقة، جسدها سمهريّ متناسق، عودها جذع ملفوف، شعرها تطاير خصلاته المغلفه بالسواد الذي يظهر من تحت غطاء رأسها، حيّة رقطاء تسعى لتنال ما تريد، نظرت له بعيني لبوءة قد وجدت مبتغاها، فسارت له منقضّة عليه، ومع كلّ خطوة تقترب فيها كانت قطعة من ملابسها تتساقط على الأرض لتصير عارية، فتنال منه ما تريد، صارت أنفاسها حارة، عميقة الشّهيق، مندفعة بقهقهات وآهات متوجّعة مستمتعة، امْتطته كبغلٍ ليرتطم اللحم لا يفصل بينهما سوى طبقة لزجة من العرق يتقاطر مبللًا رمال الخطيئة أسفلهما، نارٌ صارت على وشك أن تخُمد، وعينان تراقبان في فزعٍ وثمل، اقترب منهما في هدوء، أنفاسها تتهدّج، وصوت صرخات مكتومة تخرج بين الفينة والأخرى، ليعقبها صوت آمر زاجر بأن تخرس كاتمة صوتها، انتبهت

فانتفضت هالعةً صارخة تحاول أن تستر نفسها، أمّا صاحب العمامة فقد حاول أن يتخلص من ذلك الذي قطع خلوتهم، تعارك معه حتّى استخلص نفسه بعد أن أيقن أن لا قبل له بمواجهته فجرى عريانًا يحمل بيده اليمنى ملابسه، ويحاول بالأخرى أن يتشبّث بعمامته التي صارت على وشك أن تنخلع، انهالت دموعها، حاول الفاضح لهما أن يهرع تجاه الواحة على وشك أنْ يصرخ بأنّ النجاسة صارت تسير على قدمينْ مستنهضًا أهلَ الواحة ليهبّوا عليهم:

- يا أبناء الواحة! يا أبناء الواحة! هلمّوا، هلمّوا، لنطهّر الأرض من رجس شيطان آبق.

ازدادت دموعها حدّةً فسجدت أمامه دون حياءٍ أن تستر جسدها الذي تلطّخ، حاولت أن تنقذ نفسها، أغرته، جاذبته إيّاه إليها ليجد رأسه ما بين ثديين ذوي دفءٍ لا يقاوم، شبقها صار بركانًا ذا حمم، ورائحتها نفّاذة استشعر الخدر منها حين أنزلت رأسه ليلامس بفمِه قطرات من الماء صارت تتساقط منها، فشعرت بأنفاسه حارّة تخترقها، وبكلمات ساحرة ملهبة قالت:

- ماؤك يشتهي رحمي، لترجمنا السّماء إن لم تكمل ما بدأه هذا المعمّم النتن.

لثوانٍ كاد ينهلها، لكنّه تراجع بعد أن شعر بالاشمئزاز منها ليجدَ عصًا أخرى انهالت على رأسه من الخلف، لم يكدْ يستدير ليرى مَن الغادر حتّى كانت ضربة أخرى على مقدم رأسه قد أفقدته الوعي تمامًا، وسط صرخات مختلطة ما بين ملتاعة وشبقةٍ وأخرى صارخة، وعبارة أخيرة تردّدت في أذنه: أين الله؟

قمرٌ شحيح الضوء يضنّ بعطائه رغم كونه قد اكتمل، تهاوت صفعةٌ قاسية على خدّه، لم يدخّر صاحبها جهدًا أو غلًّا في توجيهها، فحاول المأسور أن يقاوم لكنّ محاولاته باءت بالفشل، وقفت عاجزة أمام يدين مقيدتيْن من الخلف، مربوط جسده بجزع إحدى أشجار الزيتون التي ملأت رائحتها أنفه، عافر كي يتحرّر، ابتسامات ساخرة من خلف لُثُم قد أخفت وجوه ثلاث رجال قد أحاطوا به، لم يمهلوه وقتًا قبل أن يجدّدوا الصفع واللّكم على أنحاءٍ متفرّقة من جسده الذي صار عاجزًا عن الحركة، اكتفى بأن يصرخ متألّمًا وسط ذئابٍ تلتهم لحمه في نَهَمٍ، حتّى توقّفوا عن الحركة، شعر بهم، بصعوبة حاول أن يفتح عينيْه، الجوّ معتم إلّا من بعض شُعلٍ أظهرت ملامح وجهٍ مخفية لتنعكس عليه بعض الشيء، حاول أن يبقي على وعيه، لكنّ القادم قد أشار بعينيه لأحد الواقفين، ليستوثق من القيد، بينما تكفّل آخرون بإشعال نارٍ في قدر وضع أسفل جسده الذي رفعوه برافعةٍ عبر سلاسل التفت حول جسده الذي يقاوم الغياب عن الوعي وسط كلماتٍ آمرةٍ تتردّد:

- أوقدوا النار سريعًا، ولننتهي منه قبل أن يفيق مجدّدًا.

التفت إلى الرجل الذي قد غاب عن الوعي كليًّا ليقول:

- لا تقلق، نحن لا نقتل أحدًا بالحرق، لكنّك ستبقى إلى أنْ تموت تستنجد بنا، وسؤال ستظلّ تردّده كثيرًا، أين هو الله؟ أرشدوني إليه.

لفيفة النكاح والفلاح

لتوفوا حقوقَ الأرباب، لقد كتبنا عليكم كتابًا واحدًا بابُه ريّان، طينة مسك وعطر وريحان، نكاح عفّة وزواجكم طاعة، فلا تجاوزا الواحدة ليكون الزوج منكم لزوجته ربّ بيت وعبادة، تعاشروها وتعاشركم، لكنّ الإخصاب من الله، فلا تنجب إلّا بإذنٍ رباني، فيكون المولود أحدَ أبنائه، يرعاه حافظًا خطواته حتّى يحين الأجل، والعرش له صاحب ذو فضل وكرم وعطاء نافذٍ ونقاء حاضر وجدب وقحط ممسكًا إيّاه عنكم، فالجُبّ لا يحوي بداخله غير الماء الغدير ينبت النسل ولا يهلك الحرث، وبعشرين مثقالًا من التمر والزيتون ومثلهم فضة تناكحوا ولاتزيدوا فإنّ الله لا يحبّ المتباهين، وكونوا أرحامًا بينكم بودّ إلهي ونور رباني، معصيتي نار، فالحذر أنْ تمسّوها فتكون لكم عذابًا لا قِبَل لكم بالبقاء تحت طائلته، أقبلوا بالحبّ تحيوا، تتعبدون خيرًا، وتطيعون دون معصية، النكاح فلاح، والفلاح أن تيسّر طرائق الجنة إليكم، وتلك هي الغاية الأسمى لكلّ عباد الإله.

لم تتحْ أمام الملّاح فرصة لأن يشكّل ملامح عامّة لوجه غوار، رآه للحظات معدودة، كانت أوّلها وسط عاصفة اقتلعته وخادمة جلاب، بدأت ذرّات حبيبات الرمل تخترق ملابسَهم في قوّة، وكأنّها جراد يهاجم بستانًا فلا رادع لها، حاولا أن يتكوّرا حول نفسيهما لكنّهما فشلا في عراء لا ساترَ فيه، الصحراء ممتدّة إلى ما لا نهاية، ساروا متخبّطين على غير هدى، ابتسامة لاعنة ظهرت على مُحيّاه، بينما يحاول جلاب أن ينقذهم بأيّ طريقة ممكنة، غطّت رمال الصحراء خصريهما، انسدت مسامّ جلدهم، تأبّت روح الملّاح على الموت وكأنّ حائطًا لا مرئيًّا يظلّل جسده محيطًا إيّاه حاميًا له، سكنت عاصفة الموت التي كادت تهلكهما، حفر جلاب حتّى خرج، ثمّ قدّم العون للملّاح وساعده، طفقوا يبحثون عن ملجئ، وجدوا أمامهم راعي ماعز تائهًا مثلهم، طلبوا منه شربة ماء فرفض، طريقه طويل حتى يعود، بآخر قطرات عافيته، انقضّ عليه جلاب، انتزع منه قربة الماء عنوة، هرب الراعي مستنجدًا، ليجدوا نفسيهما وقد أحاط بهما بضعَ فرسان على رأسهم غوار، يطالبون برأسيهما، فكانَ الشّنق مصيرًا محتمًا لهم جزاءً لما اقترفوه من جرم في حقّ راعيهم، دقّق النظر فرأى أنّ ملامح غوار لا تناسب سنّه، وسيم.. وربما يعود ذلك إلى أمّه تلك التي عرف أنّها كانت من خارج واحتهم، فعرف أنه يُلقّب أحيانًا بابن

الحضرية، بل صار مشهورًا بذلك، وجهه مشرب بالحمرة، مستطيل لا يطاله ملامح الكبر سوى في خطّين على جانبي فمه عمقهما الزمن، يبلغ الخمسين من العمر، إلّا أنّ قوامه مازال ممشوقًا دون ترهّل، دبّ الشيب في لحيته فزاده جمالًا وهيبة، دعاهما ليمكثا في منزله بعيدًا عن منزل عروسه الجديدة، فدلف الملّاح، ومِن خلفه جلاب الذي سار بقامة شبه منحنية ليظهر أنّ سيّده ذو شأن يُهاب جانبه، بضع خطوات حتّى وصلوا إلى «المربوعة»، قاعة مربّعة الشكل ذات نوافذ مطليّة بطلاء فاتح اللون، يمدّها ببعض البرودة لمواجهة قيظِ الشمس وحرارتها اللافحة، وجدوا «غوارًا» جالسًا على مقعدٍ يرتفع عن المحيطين به، فبالغ جلاب في إظهار الاحترام للملّاح بأن أمسك نعله بنفسه، يساعده على خلعه، وبمجرّد أن أصبحوا أمام غوار نهض مادًّا يده، مسلمًا عليهما، داعيًا إيّاهما للجلوس، ويأمر خادمه بأن يمرّ بأطباق التمر وغيره ليضعها أمامهم، قبل أن يشير له بأن يحضر إبريق الشّراب ليسكب لهما بعضًا منه وهو يخبرهم بأنّ الشّراب الذي صار مفضّلًا له، ويتكفّل صديقه قائد الحرس بإعداده، ليفاجئه الملّاح قائلًا بعد أن أخفض كوبه:

- ما بك! لَمْ تعدْ مرتاحًا في فراشك؟

صمت غوار، وظهرت علامات الضيق على وجهه، فحاول الملّاح أن يخفّف من وطئة كلماته قائلًا:

- جميعنا معرّضون لما تمرّ به.

– أعرف ذلك لكنّني غوار، يكفي أن يردّد أحدهم اسمي ليرتعد الجميع أمامه.

أمسك جلاب طرفَ الخيط مكملًا غزل الشبكة وقال:

– قصّ لنا ما حدث، فربما شفاؤك على يدي سيدي.

انفجرَ قائدُ الحرس على وقْع تلك الكلمة، وبتحذيرٍ قال:

– ليس لدينا «ربما» فإمّا أن تفعل ما تقول إنّه سيدك أو لتتأرجح أجسادكما على المشنقة.

– سنفعل، ولربما ننال الحُظوة.

قالها جلاب مبتسمًا، وتعمّد أن يشير بيده إلى غوار كاسبًا ودّه قبل أن يغادرا، ليقول جلاب هامسًا للملاح:

– اسمحْ لي أن أرافق القائد لبضع الوقت.

علامات من عدم الفهم ظهرت على وجْه الملّاح، لكنّه أشار له بالموافقة، سارا قليلًا ليصلوا إلى المكان الذي خرجوا منه صباحًا للشنق، وبمجرد أنْ دخلا حتّى قال جلاب دون حتّى أن يجلس:

– شرابك ذو نكهة لذيذة، كلّما تجرّعت منه بضع رشفات حتّى أصبت بالظمأ، فأعاود الشّرب مجدّدًا، هل لك أن تخبرني عن تركيبته؟

في حدّة ردّ عليه:

- تلك أمورٌ سريّة لا شأن لأمثالك بها.

- إذًا، دعني أروّح عنك بعضًا من الوقت، وأحكي لك أمرًا.

دون أن يتلقّى موافقة استرسل جلاب بالقول:

- قرية صغيرة، اقتاتت على ما يجودُ به النهر الواقع بجوارها، الغابة تقع على تخومها، وكما تعلم فإنّ الليل ذو هوام من ضباع وسِباع تستيقظ باحثة عن فرائس، فقدوا الكثير من الأطفال وبعض الكبار ممّن ساقهم حظّهم التعس لأن يشتمّ أحدُ تلك الوحوش رائحتهم، حتّى اجتمع أهل القرية، قرّروا أن يدرّبوا أطفالهم على مواجهة تلك المخاطر، وبمرور الزمن صارت مواجهة ليثٍ جائع أو واحدٍ من السباع المضراة بالوثوب والتغلب عليه؛ اختبارًا للشجاعة ولإثبات البلوغ، لكنّ الأمر لم ينتهِ عند هذا الحدّ، الآفة الناخرة في عضد أيّ قبيلة أن يموت أحدُ أبناء علْيتهم، أو يُهزم حينها تنقلب الأمور رأسًا على عقب، فقد خرج أحدُ أبنائهم مبلّلًا سرواله من شدّة الرعب، انهارَ وكاد الأسد يفصل رأسَه عن جسده، حتّى أنقذوه في الرمق الأخير، ولم تكنْ مرّة وحيدة بل تكرّر الأمر كثيرًا، وبالطبع يا قائد تعلم أنّ الكثيرين يعيشون في ترفٍ وتدلّل، وكان الحلّ في يد طبيبهم المقرّب، مزج بعض أعشابٍ وقُدّمت للأسد قبل أن يدخل إلى حلبة النزال.

لوهلةٍ رمقه قائدُ الحرس بنظرةٍ متنمّرة توحي أنه قد بلغ منه السّيل الزبد، وقد صار على استعدادٍ تامّ لأنْ يفتك به دون أن تحميه يد غوار التي تحاول التعلّق بالقشة الأخيرة قبل الغرق، ساوره الشكّ فيما يرنو له جلاب الذي بادل عينيه النظر فأحالَ تلك الشراسة إلى توتّر صاحَبَه احمرارُ وجهٍ وسط محاولات من قائد الحرس لابتلاع ريقة ليواصل جلاب قائلًا:

– وما يحدث يسهل تخمينه، فيمرّ الاختبار دون أيّ دماء تسفك، بل يقام احتفال بالشجاعة.

أطرق القائد ناظرًا في الأرض، وصدمه ما سمع إلى الحدّ الذي ألجم لسانه، للحظاتِ صمت ناظرًا تجاه الجبل الذي يظهر من أيّ نافذة لأيّ منزل في الواحة وكأنّه يحيطها من كلّ اتّجاه، تمالك نفسه وقال:

– حسنًا، أدعى كرار، تربّينا في أحضان هذا الجبل، غوار هو صديقي وأخي، أرضعته أمّي حين انقطع اللبن عن ثدي أمّه، تدور بيننا الدنيا دون ترتيب لأجدَ نفسي أجلسُ على مقعد وثير أمرًا ناهيًا لحرسٍ أنا قائده، بينما صار هو سيّدَ الواحة فيحميني وأحميه، ولك أنْ تتخيّل كيف كنّا.

قاطعة جلاب قائلًا:

– ولِمَ خنته؟

بانفعالٍ ردّ:

- لم أخنْ أحدًا، هو مَن تجبر، ازداد عتوًّا دون رادع أو كاسر، أتت لي منتحبة، رغبة غوار فيها كانت سيلًا جارفًا، حاولت أنْ أثنيه عنها، أغري أباها بمهر لا يقوى غيره على دفعه، حين ارتمت تحت أقدامي متوسّلة كانت في مثل عمر ابنتي، رأيت أن أنقذها، لكنني فشلت فقرّرت الانتقام منه، ساعدني في ذلك انشغاله بذلك السّوس الذي نخر عظام نخله فخسر الكثير منه حتّى صار مرتعبًا من فكرة أن لا يعود سيدًا على الواحة، فازداد جنونًا وغفلة.

صمتَ جلاب، بينما حاول كرار أن يفرّ من مواجهته بأن يتظاهرَ بمراقبة تلك العقاعق تشكّل دائرة شيء ما ربما تكون جيفة قد تحلّلت، ليفاجأه جلاب قائلًا:

- إن اتّفقنا يعيش كلانا.

بدهشةٍ ردّ:

- كيف ذلك؟!

أكمل دون ردّ قائلًا:

- لن أبلغ غوار بما علمته عن شرابك.

تنفّس كرار الصّعداء، فأردف جلاب محذّرًا:

- الخائن منّا يخونه الآخر دون أن يعلم، لتكون الدائرة على الجميع حربًا تدور رحاها.

انقطع الحديث بينهم، داروا في فُلك سكون صامت هو مِن أعمق أنواع الصمت، يحوي بين طيّاته اتّفاقًا صار واقعًا، ليكون أقوى اتّفاق ذلك الذي يتمّ دون اتّفاق.

- أين الله؟ أين الله؟

جنّ جنون الولد، دار حول نفسه، هامَ جسده دون مستقرّ له أو مستودع، بحث عن ربّه، خلف النخلة، تحت الشجرة، داخل ملابسه، قال صائحًا متردّدًا ما بين رفع رأسه إلى أعلى، والنّظر إلى أسفل:

- أين الله؟ أين أنت؟ أين...

تحشرج بصرخاتٍ مكبوتة بالدّمع ليحاول أن يتماسك قائلًا:

- أين أنت يا الله، لتظهر أمامي أو لتأخذني عندك، أين أنت يا صاحبَ الإقليم وملك جميع الأمكنة؟

أطلقت لساقيه العنان لتحمله هابطة به دون إرادة أو تحكّم أو سيطرة، تدحرج واكتسى جسدُه بلون غبارها الأتربة التي عفّرته، هبّ واقفًا في وجَلٍ صارخًا من جديد:

- أين الله، أين الله؟

تنبّه إلى صوتِ ربّه ينادي إليه..

«اصعد لي ها هنا، أداوي جُرحك النازف، وألمك الذي يحتاج إلى تطهير»

شبح ابتسامة ارتسمَ على وجهه، فالربّ قد استجاب لتوسّلاته قبل أن يتكرّر النداء:

«اصعد إليّ يا عبدي المحبوب المرغوب الخائف المرتعد، بجواري أنت في مأمن، ستصير إمامًا لي، لا يُخالف أمره، أن يخشاه الجميع كما هي عادتك يا بني»

ضحكة مجلجلة تدوّي لتملأ عليه الفضاء ما بين أرضه وسمائه، فقال بدموعِ فرح وفرج تملأ عينيه:

- أنا قادم إليك، اغفرْ لي يا ربي وربيبي وإلهي ومليكي.

مسح عينيْه بطرف ملابسه، وقال بكلمات فرحة:

- طريقي إليك قد بدأته منذ أنْ قرّرت أن تستمع إلى كلماتي العاشقة والدؤوبة رغبة في رؤيتك.

سوادٌ مُعتم غلّف كوْنه، وطُبع على وجهه ومحيّاه بعد أنْ طرق رأسه تساؤل لا يجدُ له إجابة، فظلّ يردّد إيّاه بصوت مرتفع:

- وكيف أصعد إليك دون درج يحملني؟

كيف الطريق إلى وصولك؟ دلّني!

تسلّطت شمس الظهيرة على عينيْه لتلمع ببريقِ النشوة قبل أن تنطفأ لتلتقط أذناه صوتًا يقول له:

- أنتقي أطول النخيل وأرتقيها..

اخلع ما عليك وتحرّر من أحمالك...

فعلَ دون مناقشة، فمَن ذا الذي يملك الجرأة على أن يناقش ربّه في أمر إلهي اختصّه به، وصل إلى القمة، أمسك الحبل الذي تشبّث بواسطته بجذع النخلة ليساعده على الصعود، لفّ طرفًا حول عنقه، وعقد الآخر حول النخلة قبل أن يقول له الصوت مجدّدًا:

- لتقفز كي نفتح لك طاقةَ النور وتصل إلينا.

ففعلَ، وفي لحظات كان جسدُه قد تدلّى متأرجحًا منازعًا للموت ليحيا لحظاته الأخيرة، يرى الناس في الأسفل، وقد وقفوا يبكونه في ألم وجزع، والكلمات تتردّد خارج أفواههم:

مات الولد، ألقى بنفسه في التهلكة

«لقد حاول أنْ يتألَّى على الربّ ويعلو عليه، لكنَّ الموت كان جزاءه بعد أن جنّ عقله، وطارت رأسه، تلك التي كانت رشيدة فصارت مهبولة»

قالها أحدُ الواقفين لشخصٍ بجواره، تاهت كلماته وسطَ أحاديث الناس التي اخْتلطت بصياح قائل:

الربّ يبلغكم أنّ أوار قد حاول أن يتجبّر ويكفر، فحلّ به العذاب العظيم.

لم يعدْ قادرًا على الرؤية والتمييز، فالاختناق يزيد من ألمه، تلك الأحداث تتكرّر، والكلمات ترتسم أمامه مدوّية بصوتٍ ناعق في أذنيه، وحروف معلقة تتدلّى من باطن السماء بخيوط لامرئية.

ويأتي طَيفُك المُختالُ ليلًا .... يعانقُ غَفوتي ويُضيءُ دَاري........

يعانقُ غَفوتي ويُضيءُ دَاري...........

البرودة تغزو أطرافَه لتحلّ محلّ الدم الدافئ الذي انسحب إلى مخّه في محاولةٍ أخيرة منه لإنقاذه، لا مناص.. لا مناص، لا فكاك من الموت مهْما طال عذاب الاختناق، يحادثه عقله بأنه سيظلّ يرى تلك الأحداث تتكرّر منذ أن سقط من على النّخلة، لِمَ لَمْ يقتل مَن أسقطه، لِمَ ذهب إلى أبيه، ولِمَ سار وسط الدروب والأزقة هائمًا وراء بثينة، يردّد عقله أبيات شعره، سعل مسلمًا روحَه معطيًا لها فرصة الخروج، والكلمات مازالت تدوّي في أذنه:

يعانقُ غَفوتي ويُضيءُ دَاري..............

تدلّى لسانه خارج فمِه مختلطًا بلعاب لم يعدْ لشفتيه أمرٌ عليه، حان الأجل، وصار عليه أن يستسلم في هدوء وإجلال مستقبِلًا الموت.

في اليوم التالي، مثُلَ غوار أمام الملّاح الذي قال له أمرًا:

- أحضر لي طيرًا كلّما طار ارتفع، وشمعة مازالت في بدايتها.

صاح غوار على خادمه بأنْ يفتح أقفاص الحمام، وينتقي الأكبر سنًّا منها، فوزنُها أخفّ ليساعده على أن تطير بسهولة، ثمّ أردف الملّاح محادثًا جلاب والقائد:

- اخرجوا، غلقوا الباب من خلفكم ولا تدعو أحدًا يقترب.

فخرجوا وسط توتّرٍ وقلق بدا واضحًا على كرار، فهو لا يدري ماذا قد يحدث، وبمجرّد أن انفردَ الملّاح بغوار حتّى قال له أمرًا:

- اُبركْ كجمل.

حاول غوار أن يعترض بعد أنْ أزعجه الأمر، لكنّ نظرة زاجرة من الملّاح جعلته يبرُك في الحال، دار حوله الملّاح، وبعد أن تأكّد أنّ الجوّ صار معتمًا بعد أن أغلق بنفسه كافّة منافذ الضوء للغرفة، أمسك بالشمعة وأشعلها كي يستأنسوا بضوئها، ثمّ قال:

- تنكح يدك ولا تنحكها؟

اكتفى غوار بإيماءة بسيطة من رأسِه بأنّ الملّاح على حقّ.

- حسنًا، لن أطلب منك الكثير من الأمور لتفعلها، ستكتفي بأن تشذّب لحيتك التي أرى أنها طالت.. ثمّ تخلص من كافة خصلِ شعْر جسدك، وبخاصّة عانتك، اجعل جسدَك أملسًا.

حاول غوار أنْ يقاطعه، لكنّ الملّاح أكمل قائلًا:

- وقبل كلّ ذلك، عليك أن توقن بأنّني يد لله المانح للعطاء.

صمتَ قليلًا ليحاول أنْ يتبيّن تأثير كلماته عليه، فكان متوتّرًا خائفًا كما لم يره من قبل، فأردف:

- انهض على ركبتك.

أمسك الملّاح بكتفي غوار من الخلف مدلّكًا إيّاهما بطريقة ألحقت به الألم بصورةٍ تدريجية حتّى صرخ لشدّته:

- أنت الآن جاهز.

قالها، ثمّ نادى على جلاب، فدخل مسرعًا ليقول له:

- ائتني بعروسه، وأجلس غوار واجعلْه يتناول بعضًا من شرابنا الشافي الذي تعدّه بنفسك.

بمجرّد أن خرج حتّى دخلت غدي ليقف الملّاح أمامها مشيرًا لها بيده بأنْ لا تخطو للأمام خطوة أخرى إلّا بإذنه، وبنظرةٍ منه أجلسها على الأرض قائلًا:

- اعلمي أنّ أمر الله نافذ، وقد بثّ فيّ مِن روحه أنْ أقرأ أفكار عباده.

فردّت عليه:

- وكيف قبضوا عليك؟

بذهنٍ منتبهٍ، ودون أن يفكّر قال:

- ومَن قال إنّهم فعلوا، عليك أحيانًا أن تكون أرنبًا لتدخل إلى جحر الثعلب.

قالها ليخبو لهبُ الشمعة قليلًا، فتشعر بالخوف والقلق بعد أنْ كانت راغبة في أن تتحدّاه، استلسمت له مصدّقة إيّاه، كلماته قوية لا خبلَ فيها، نظرت له وهو يقول لها:

- الْزمي الطاعة والصدق.

في خوفٍ هزّت رأسها مستجيبة ليقول لها:

- أعلم بأنّك لم تكوني راغبة فيه.

فتحت عينيْها مندهشةً ليتجاهلها وأكمل:

- لجأت طلبًا للرحمة فلم يقوَ أحدٌ على أن يغيثك.

بأسًى قالت:

- بالفعل، لقد حدث هذا.

- أتريدين له الشفاء؟

- في الماضي كنت أتمنى أنْ يهلك، أمّا الآن فلا أرغب في رؤيةِ مكروه يحلّ به، صار زوجي.

لا يدري لِمَ ذكرته برمانة رغم الاختلاف الكبير بينهم، نفضَ عن رأسه تلك الأفكار كي يستمرّ في إنقاذ رأسه، استجمع نفسه قائلًا:

- هل علم أبوك؟

- لو علم ما فعلت بنفسي هذا!!

قالتها ومدّت يدها نحو ضوء الشمعة لتكشف عن جرحٍ مازال غائرًا في ساعد يدها اليمنى:

- ألم يفضك؟!

في خجلٍ قالت:

- فعل، لكنّه لم يكن كليًّا.

للحظاتٍ صمت الملّاح ثمّ نادى على جلاب الذي دخل وقد أتقن الإيحاءَ للجميع بأنه العبد الطائع لربه، وليس خادمًا لسيده، فقال منحنيًا خافضًا عينيْه من شدّة التقديس، فقال له الملّاح:

- هل انتهيت من غوار وشرابه؟

- نعم يا وليي.

- وعلاج غدي؟

- أتممت تحضيره.

فغادر لبعض الوقت قبل أن يعودَ مناولًا الملّاح لفافة صغيره ذا غطاء قد شُكّل من جريدِ النخل، المجدولة ضفائرُه قبل أن يخرج ليختار الملّاح كرسيًّا مرتفعًا، طلب من غدي أن تقتربَ ففعلت، وضع يده على رأسها، أغمض عينيه، غاب في ملكوته، لم يستغرق وقتًا طويلًا، ارتجفَ للحظة، فتح عينيْه وقال:

- ضعي هذا الشيء بداخلك دون أن تمسّيه، يعاشرك الليلة، إن شعر بشيء يدغدغ أعماقك لا تقلقي؛ فروح طيبة باتت تسري فيك كالهواء لا يراها أحد.

أرادت أن تستفهم لكنّه أنهى جلستها بأن نهض ليفتح نافذة لغرفة فيغمرها ضوء الشمس، خرجت لتجد غوار في الانتظار، سألها عن ما جرى، لكنّ جلاب جذبه ليهمس له في أذنه:

- لا تسأل عن أمرٍ لا يخصّك، واعلمْ أنّ الليلة ستكون أنت السبع تلتهم نعامة.

في فرحٍ ابتسم غوار، غادر ليدخل جلاب على سيّده الذي قال له:

- صلّ ليفلح الأمر.

ردّ جلاب ساخرًا:

- بل غدًا سيصلّون لك، تلك أمور مجربة، ألم أقل لك من قبل أنّ حكمة والدي تسري بداخلي.

فمازحه الملّاح:

- ولِمَ غادرته يا أسودَ اللون؟

بابتسامةٍ أظهرت بياضَ أسنانه قال:

- لكي أنقذك من مآزق حياتك التي لا تنتهي.

تزاوج شاذّ للطبيعة أنجب كائنًا؛ لا هو بالكلب أو الذئب، بل هجينٌ بينهما، متعطّشة للدماء أنيابُها فصارت مثارَ قصص رعب تخيف بها الأمهات أبناءهم، إيّاك أن تعصي الرب، وحاذر أن تقابل سلعوةً فتفتك بك دون رحمة، طاردها الصبي بلا وعي قاذفًا إيّاها بالحجارة، عناية أنقذته من الافتراس لتهرع بعيدًا باحثةً عن فريسة تنجيها من ذلك الجوع الذي صارت له فريسة، التقط خطمها الطويل رائحة تتبّعت مصدرها، وصلت إلى بقعةٍ ظلّت تحفر فيها حتّى وجدته أمامها، وقد غطّته صخور تساقطت على وجهه محطّمة وجنتيْه غارقًا في دماء حاولت أن تلعقها، وحين انتهت بدأت في تمزيق لحمه ملتهمةً إيّاه، فلم يتبقّ منه سوى بعض الملامح التي استطاع مَن وجدوه أن يتعرفوا عليها، وإنْ كان سواد وجهه كافيًا لأن يجزم مَن وجده أنّ هذا سيدهم جلاب، قد غاصت مدية في صدره وتكفّلت سلعوة استطاع إبعادَها بأن تتناول أكثر من نصفه.

حملوه على نعشٍ نحو الكعبة، فُتحت جميعُ الأبواب، أسبوع عزاء، الجبل غادر حتّى بخادم الربّ المقدّس وحامل سرّه، لتبكي نسوة الزمام حزنًا، ولينتحبْنَ متّشحين بالسّواد عامًا كاملًا.

افْسحوا مجالًا للسكون بينهم بعد أنْ صمتا على إثر رواية رمّاح للمختار عن ما حدث مع الخادم الأوّل للرب، ترجّى مِن وراء ذلك أنْ يبرهن له صدق معتقده وعبادته، ربّ السماء يملك الأجلَ والرّوح، بينما لربّ الإقليم أن يبعث الحياة في الأجساد فيحْييها بعد أن كانت مجرّد نطفة هالكة.

حادث رمّاح نفسه: «أراه عبدًا صالحًا ضلّ طريقه، يا ليتني كنت هو، لو آمنَ لاختاروه على الفور واعظًا، ومَن يدري فربما ترقّى وزادَ إيمانه فصار مُعمّمًا»

بسأم عبث المختار ببعض الحصى، قضى وقتًا في الواحة أو الزمام كما يحلو لأهله أنْ يُطلقوا عليه، صار عليه أن يعود، حتمًا جفّ الماء الذي أغرق المدق، حتى إن لم يجفّ سيحاول أن يبحث عن طريقٍ يخرج من خلاله، قاطعة رمّاح مقتربًا منه قائلًا:

«هلّا أيقنت حقيقة ما أخبرتك»

صمتَ الملّاح، تنهّد بضجر قائلًا:

- حسنًا، هل عرفتم قاتله؟

- تلك حكاية مرّ عليها زمن، لم أعاصرها بنفسي، لكنّها متداولة بكثرة، وحقًّا لا نعرف حقيقتها.

بنفاد صبرٍ ردّ عليه المختار:

- ألم يكنْ خادم الرب الأوّل؟!! ألا يعطي هذا قدسيّة لموته، وللبحث مطوّلًا عن قاتله؟

بهدوءٍ وثقة قال رمّاح:

- وما العجيب في ذلك؟ اعتنى الربّ به حتّى حان أجلُه بقرار من الربّ السماوي فليس لإلهِ الأرض سوى أن ينفّذ، تلك هي روحُ الربّ في تحقيق مشيئة ربه السّماوي الأعلى.

- حسنًا، لك أن تعتقد ما شئت.

فاض به الكيل، صار راغبًا في العودة، ولا يريد سواها، ولرمّاح وأهل زمامه أن يفعلوا ما يشاءون، مازحه رمّاح قائلًا:

- أتعرف أنّك قد صرت مكنيًا باسم القادم مِن خلف الجبل؟ يبدو أنّ الله قد اختار قدومَك إلينا لسببٍ غير معلوم.

قال المختار منفعلًا محاولًا أنْ يزيح مثلَ تلك الأفكار عن رأس رمّاح:

- كيف تؤمنون بهذا!! أيّ خبل أصابكم ليصل الأمر فتقدّسوا بشرًا مثلكم؟!!

بمجرّد أنْ قالها حتّى وضع رمّاح يدَه على فمه مانعًا إيّاه من هرطقات ستصيب الواحة باللعنة..

أزاحه المختار ليقول له:

- أيّ عقل هذا الذي يقبل مثل تلك الترهات؟

ليجيبه رمّاح بنظرةِ تحدٍّ:

- مجدّدًا سأقول لك نحن لا نؤمن بشيء لا وجود له، الله يقبعُ في السماء يراقب عبيده في الأرض، حين بعث لهم أنبياءً من عنده كفروا وتجبّروا، حتّى كادوا يقتلونهم، ألم يفعل أجدادُك وأجدادي ذلك لكنّ الربّ رحيم بعباده أعطاهم طرقًا عدة للاقتراب منهم، وعندما كاد ييأس ليخسف بهم كما كان يفعل سابقًا أرسل لهم إلهًا من لدنه، واحدًا ذا قدرة لا استغناء عنها؛ النّسل هو طريقنا للبقاء، والماءُ الشحيح لا يسقي حرثًا ولا ينجب نسلًا، لذا كان مفتاحُ العبادة أن يمسك عنّا إنجاب عباده حتّى نرتدع، وبالفعل قد حدث.

- وهل تصدّق مثل تلك الأمور؟! وإن كنت تصدّق لما تخالف أمرَه في عبور الجبل، ألم ينهاكم عن ذلك!؟

بكى رمّاح، إلّا أنّه حاول أن يتماسك ليقول:

- مجدّدًا سأعترف أمامك بأنّ نفسي أمّارة بالسوء، أعرف أنّي خطّاء، لكنني لا أجد سلوى من الحياة سوى أنْ أطلق ساقي عبْر رمال الصحراء أستنشق هواءها.

صمتَ لبرهةٍ قبل أن يردف قائلًا:

– عليك أن تحمد الله أنّني عصيته في لحظةٍ كنت في حاجةٍ لمن ينقذك كي تبقى على قيد الحياة.

بيأسٍ قال المختار: حسنًا يا صديقي، لكنّ سؤالًا أخيرًا تلحّ على إجابته.

بنظرةِ نصرٍ قال له:

– اسأل ما شئت.

– كيف تلقّيت تعاليمك الأولى، كيف صرتَ ناسكًا لتلك الدرجة؟!

بأسًى قال رمّاح:

– يا ليتني كنت ناسكًا زاهدًا كغيري، لكنّني مجرّد عبدٍ عاصٍ يحاول أن يكفّر عن أخطائه.

– حسنًا، كيف تلقّيت تعاليمك الدينية الأولى؟

– جميع أطفال الواحة يجب أن يتربوا على يدِ رجال الكعبة، مهمّة يتولّاها الوعّاظ منهم، فعلنا ذلك صغارًا، مع نهاية كلّ أسبوع وعندما تقترب صلاة الغروب من إقامتها، كنّا نتلقى لفافة ترشدنا، فنحفظها فتسير أمورنا، أمور الحياة كافّة محفوة في تلك اللّفائف، بعضها تحمل كلمات الإله التي يتلقّاها من السماء، وتلك هي الأقدس، يحملها فقط معمّمو الكعبة، وكما أخبرتك

سابقًا الإله الأرضي، كالأرض للإنجاب والعطاء، أمّا إله السّماء فله الروح يأخذها متى شاء.

- وهل رأيت هذا الإله؟

باستغرابٍ ردّ عليه:

- ومَن ذا صاحب المقام الرفيع الذي يراه، قدسيته في احتجابه عنّا.

سأم وضجر تملكا كليًّا من المختار ليقول له:

- حسنًا، لتفعل ما تريد، غدًا سأرحل عائدًا، شفيت وصار عليّ أن أطمئنّ على والدي لأرى أيّ كارثة في الانتظار.

- ألن تذهب لتحضر الذهب لعروسك؟

- ذهب دون جاه، لا طائل لتقديمه.

شعر رمّاح بأنّ المختار قد شعر بالضيق، رغم رفضه لحديثه إلّا أنّ جانبًا خفيًّا فيه كان يشعر بالقرب منه، أراد أن يخفّف عنه فدعاه لأنْ يسيرَا لبعض الوقت كي يختلط بأهل الواحة قبل أن يغادر، «وقد يصادف الإيمان طريقًا إلى قلبه، مَن يدري!» هكذا حدّث رمّاح نفسه مجدّدًا قبل أن يقاطعه المختار قائلًا:

- كيف تحيون يا رماح؟

- نحيا بأمر الربّ.

- لا أقصد ذلك، بل أريد أن أعرف مِن أين تحصلون على طعامكم، ألَا تحتاجون شيئًا من خارج الزمام؟

- يرعانا الربّ، فتخرج قافلة سنويًّا من كعبته تلك.

صمتَ متمتمًا ببعض الكلمات قبل أن يردف قائلًا:

- فيكون الدواء من لدنه وكذلك الطعام، لكنْ تبقى نعمته الأسمى علينا أنْ يملأ أرحام النساء بالنّطف لنتناسل ولا ننقرض كغيرنا من الأمم التي قريبًا جدًّا ستعاني من جرّاء عصيانها، فنحن ما علينا سوى الذّهاب إلى هناك حيث يقبع ربّ العطاء والمنح فنتجرّد له راكعين سائرين في الظّلام دون رؤية ثقة فيه ليباركنا بيدِه متماثلة في أجساد أتباعه ذات القدسية الملائكية الإلهية.

صمتَ مجدّدًا مستحضرًا بضع كلمات، تمتمَ بها سريعًا ماسحًا على جسده، وكأنّه يتبرّك بها قبل أن يكمل قائلًا:

- عشرُ جِمال محمّلة بالتمور والزيتون، ترحل وتعود عامرةً بخيرات توزّع علينا بعدالة وإنصاف بعد أن نبدي له صلاة الحاجة.

- لكن، ألا تذهبون خارجها؟

- بالماضي كان الأجدادُ يفعلون، حتّى شعر الربّ أنّ طُهر الأرض قد يتدنّس؛ فمنع وصول القوافل إلينا، وقرّر لنا قافلته السّنوية عبر طريقٍ نعلمه جميعًا.

- لكنكم لا تخرجون عبرَه.

- بالطبع، فمَن منّا يريد أنْ يحلّ عليه غضب الله!

- لكنّك خرجت دون إذن.

زفَرَ وقال:

- حسنًا سأقطع للربّ وعدًا أمامك؛ لن أعصيه ثانية.

وضع يدَه على وجهه نحو السماء، ثمّ التفت نحو الأرض قبل أن يستفيق قائلًا:

- أمّا الآن فاذهب وتجوّل في الواحة.

- وماذا عنك؟

- سأذهب إلى الكعبة كي أمسح جسدي فيها علّها تطهرني من دنس المعصية.

بتهكّم قال مختار:

- حسنًا، لا تتأخّر؛ فربّك لا يحبّ المتأخرين.

- أين هو الله؟ أين هو الله؟ أروني إياه، لا أري له طرفًا.

ذهب رمّاح تجاه الكعبة كي يتطهّر، بينما توغّل المختار في الواحة قليلًا، راعه ما سمع فظلّ يبحث عن مصدره، أزقة ومنازل متلاصقة، متاهات ودروب، وصوت يعلو كلّما اقترب فهو كأيّ تائه يستغرق مليًّا ليستكشف مكانًا جديدًا عليه..

- أين هو الله؟ أين هو الله؟

صار أمام شابّ ضخم الجثة، ذي طولٍ ظاهرٍ للعيان، عيناه تلاشت منهما كافّة معاني الوعي بالموجودات مِن حوله، مخدّر قد يكون، أو قد مسّه جنّ، كذلك الذي كانت تقصّ عليه أمّه عليه أخبارها، إن تلبّست إنسانًا سارت به بين الناس مخبولًا محمومًا بالجنون، وها هو أحدهم ويبدو أنّ تيهه كان ذا صبغة خاصّة، فهو يبحث عن الله، نظر له المختار في أسًى على حالة فقد كان مازال شابًّا في مقتبل عمره، وأقسم بداخله بأنّ عقله لو كان سليمًا لكان له شأنٌ آخر غير تلك الجلباب الممزقة يقذفه الأطفال بحجارةٍ تدمي جسده، تتبّع خطاه التي أوصلته لأن يمدّ يده ليفتح بابًا لا يراه أحد، حتمًا أصابت عقلَه لوثة، يدور في حركاتٍ بطيئة باحثة عن محراب حتّى وجد ضالتَه ليقف صارخًا بصوتٍ أعلى ممّا كان من لحظات:

- أين أنت يا الله؟ أين أنت يا هو؟

ولمّا ظهر الإعياء واليأس، صاح باكيًا مرتجفًا:

- أنا الربّ هنا، أنا الربّ هنا يا ملاعين، يا أبناء القحاب والزّواني.

حتّى خاف المحيطون به مِن أطفال، فهُرعوا بعيدًا عنه، ليجد المختار صوتًا قد أتى مِن خلفه قائلًا:

«لقد حاول أن يتألَّى على الربّ ويعلو عليه، لكنّ الموت كان جزاءه بعد أن جنّ عقله......... تلك التي كانت رشيدة فصارت مهبولة»

التفت المختار ليجدَ رمّاح وقد كانت ملامحُه محتفظة بخشوعٍ ربّاني غاص فيه ليسأله:

- ومَن هو؟

- هو أوار، وبالفعل اسمًا على مسمّى، كان بالحجر في صلابته، صلد كأرضه التي آلتْ له مِن والده، فلم يكن يُكسر.

- ماذا حلّ به؟

- لا نعرف، لكنّ أخبارًا وإشاعات تناثرت حول معصية ارتكبها، حتّى أبلغ أحدُ المبلّغين بأنّ أوار قد تمكّن شيطان الغواية من عقله فآذاه وقلبَه ليصير عاصيًا.

- وهل صدقتموه؟

– إنْ كان واعظًا لحاولنا جداله، لكنه مبلّغ ذو مرتبة أسمى، الأمرُ جلل حين يظهرون فهُم لا يتكلّمون إلّا نادرًا.

– أليس له أهلٌ كي يحاولوا أن يقدّموا له علاجًا أو ما شابه؟

– ليس له سوى أبٍ كفيف، وعلى أيّ حال لن يجرؤ أحد على علاج مَن عاقبه الربّ بالجنون جزاءًا وفاقًا على كفره.

باستغرابٍ سأله المختار:

– ما هذا الشيء الذي تحمله في يدك؟

بسعادةٍ ردّ مهللًا:

– إحدي لفائف المغفرة والطاعة.

بنفادِ صبرٍ ردّ عليه المختار:

– مِن أين أحضرتها؟

– أكرمنا الله بكتابتها، وبعث مَن يوزّعها على المصلين، يبدو أنّ اليوم هو يوم حظي، فذهابي للكعبة كان للتكفير عن معصية فرزقت بتلك لتكون حياتي مباركة، قليلون مَن يحظون بذلك الشرف.

في قرارة نفسه أيقن المختارُ صوابَ ما فعل منذ قليل بالامتناع عن المجادلة، فكرّر الأمر واكتفى بإيماءات صوتية بسيطة من حينٍ لآخر، بينما قام رمّاح بفرد اللفافة قارئًا سطورَها في خشوع وإجلال:

اللّفافة الثانية

خلق الإله الأرضي

«سبع حبّات من تمر الجنّة، غرست جذورها في أرض الإقليم المباركة طينته، رعاها الربّ، أحاطها بيديه، حتّى حلّ الطوفان بمائه الهائج، حاول آخرُ العصاة، واختلفنا في كنيته حتّى صار لقبه (المارق الأخير)».

توقّف موجهًا حديثه للمختار قائلًابنبرةٍ معاتبة: أرأيت عقاب المارقين عن الطاعة منذ بداية الزمان؟ لا تستكثر ما به أوار.

ثمّ أردف قائلًا: دعنا نكمل القراءة..

«حاول أن يتمسّك بهم علّها تنجيه، أغشاه الله عن العثور عنها، فغرق مع الغارقين الكافرين المشركين، حبّة واحدة كانت لها القدرة على أن تصمدَ في وجه الريح فلم تحيلها لحطام، صارت تطعمَ الجائع وتسقي مَن لا يجد الماء ليرتوي، أربع قرون والجذور تغزو الأرض حتّى تثبت نفسها، أنبت الله بداخلها نطفةً صارت علقة حتّى تفسّخت مِن حوله ليخلق الله كائنًا لم يرَ البشر مثله من قبله، فتنوا به وبقوّته حتّى ملكوه عليهم، تجبّر وملك واحتجب عن الناس وسار بينهم بالطغيان، أرسلت له السماء طيرًا أبيضَ، حمامة وقفت على رأسه، تأبى أن تغادرها إلّا إن غاص في سباتٍ فلا يشعر بمَن حوله، رأى أنّ جبل الزغاب قد استطالت قمّته، وشقت على حافته

درجات صعد عليها وظلّ يعلوها حتّى هاله ضياءُ الربّ وقوّةُ نوره، أصيب بالعمى والعجز، هُرع نازلًا والصوت يتردّد صداه، اخلعْ ما عليك من رداء الاحتجاب، وكنْ لهم خليفة لي في الأرض، إلهًا يُعبد ويمنح وتسود ذريته، استيقظ ليجد أنّ الحمامة قد صارت عقابًا يرتفع ويهبط، خرج من مجلسه وكان خلف الجبل، التفّ النّاس حوله، نوره قد سطعَ عليهم، وتردّد الصوت ما بين السماء والأرض صادحًا بأنّ الملّاح ملّاحكم و مرشدكم في بحرٍ مظلم لا نهاية له، ربّ الإقليم المصطفى من الربّ الأعلى، فلا تعصوه كما عصيتُم النبي من قبله؛ لأنّها ستكون نهايتكم وبداية حسابكم».

فاض الكيلُ بمختار ليجد نفسَه، هبّ صارخًا في وجه صاحبه ليوقفه عن ذلك الذي يراه هراءً قبل أن ينتبه كلاهما لحركة غير عادية، وأناس يُهرعون في اتّجاهٍ واحد فهبّوا خلفهم ليرون ما الحدث.

دخل إليهم مهللًا فرحًا، تلوّن وجهه بإشراقة تنبّؤ بأنه قد شفي من علّته، بمجرّد أن دخل حتّى انْهال على الملّاح احتضانًا وتقبيلًا لكتفيه، ليبعده جلّاب وسط ضحكات خبيثة منه قائلًا:

- يبدو أنّك قضيت أسبوعك في الجنة.

- بالفعل لقد حدث.

- وهل شعرت بالفارق؟

قالها الملّاح بوقارِ تاجرٍ لا يخالطه الشكّ في جودة ما يبيع، ليردّ عليه غوار قائلًا:

- غدي صارت حُبلى.

تهلّلت أساريرهم وهنّئوه، بينما ظلّ الملّاح على وضعه الواثق من نفسه ويْكأنه على علم بذلك.

أخرج غوار صرّةً من المال صُنعت من قماش حريري الملمس أحمر اللون، قام بفكّها ناثرًا دنانيرها الذهبية على الملّاح الذي نظرَ له غاضبًا قبل أن يلتفت إلى الجلاب آمرًا إيّاه بجمع تلك الأموال حالاً ليهبّ مستعدًّا ليخرج مغادرًا إيّاهم:

- كيف لك أن تفعل ذلك! أَخَبَلٌ أصاب عقلك!

في دهشةٍ تساءل غوار: وماذا فعلت؟

- سيدنا لا يلمس المال أبدًا، يراها دنسًا له.

في توتّر باعتذارٍ خائف قال:

- أعتذر منك يا ملّاح.

ليظلّ وجه الملّاح متمسكًا بجموده بل زاد غضبه، حتّى قال له جلاب معاتبًا إيّاه:

- يا غوار، تعلّم أنْ لا تنادِه إلّا بسيدنا، أطال الله بركته لا يحب أنْ يناديه أحدٌ باسمه مجرّدًا، وبخاصّة بعد أن اطّلع على بركته، وحلّت عليه، وإلّا زال سرّه، ورددت لسيرتك الأولى.

في قلقٍ وخوف قد زادا قال غوار:

- حسنًا.. حسنًا، أعتذر عن جهلي واسمحوا لي أن أكفّر عنه بأن أضع تحت قدميه تلك الصّرة الأخرى.

أخرج صرّة ذات حجمٍ أكبر، انحنى مقدّمًا إيّاها ليحيط بهم جوٌّ من التقديس والمهابة لم يقطعه سوى ذلك العجوز، يقتحم عليهم جِلستهم، يبكي

بكاءً يُقطّع نياط القلب، يرتجّ جسده باضطرابٍ شديد وكأنّ نفخة الصور قد سرت فيه، يقترب منهم منحنيًا هو الآخر حتّى كاد يسجد للملّاح معفرًا رأسه بالتراب، لكنّ الملّاح نَهَرَه عن ذلك فاستوى ليصمت لبرهةٍ قبل أن يتحسّس بيديْه الحانيتيْن، كفوف الملّاح ووجهه وسط استغراب عمّ ثلاثتهم، بينما حاول غوار أنْ يبعده كي لا يزيل بركة سيده، فالتفت له متوسّلًا إيّاه أن لا يفعل في حين أمر جلاب غوارًا بأن لا يتدخّل، ثمّ هُرع محضرًا بعض الماء علّها تساعد العجوز على أنْ تهدأ ليقول بشفتيْن مرتجفتيْن:

- سينقطع ذكري ويهلك حرثي.

فسأله الملّاح عن السبب ليردّ عليه الرجل:

- ليس لي وريث، بعتُ حياتي بأكملها لأنجب، سافرت كثيرًا، أموالي تسيل أنهارًا بين يدي، لكنّني لا أشعر سوى بالحزن حين أتذكر أنها ستؤول جميعها إلى إخوتي وأبنائهم مِن بعدي.

رمقَه الملّاح في هدوءٍ يداري ما يشعر به من سعادة، نظر إلى غوار وأمره بأنْ يغادر، بينما قال مخاطبًا «جلاب»:

- أدخل كريمنا إلى الصومعة من بعدي، وابعث من لدنّا رسولًا كي يحضر زوجته علّنا نشفيه.

- منذ متى وطئتها؟

في حسرةٍ قال:

- للأسف منذ وقت طويل.

- حسنًا، لا تقلق، فعلاجُك عندي.

انضمّ للحاضرون أحدُ الوعّاظ بملابسهم التي ميزتهم بألوانٍ مختلفة عن أهل الزمام، صاح في المحتشدين قائلًا:

- الربّ يبلغكم بأنّ أوار حاول أن يكفر ويعصى؛ فحَلّ به العذاب العظيم.

مالَ رمّاح على أذن المختار قائلًا:

- ألم أقلْ لك؟ يريد الله أن يمثِل لنا عظاته وعبراته حتى لا نعود سيرتنا الأولى.

ببكاءٍ قالها رماح، صمت المختار لبرهة، لوهلة تأمّلَ وجه صديقه، ردّ عليه بتحدٍّ ظهر على عينيه:

- إذا كانت رغبة ربّك أن يشنق الفتى نفسه فليحاول أن يمنعني من إنقاذه.

تجهّم وجهه وارتسمت عليه ملامحُ غضب لا تقف هامات الجبل أمامها قبل أن تصاب بالهدد ليخترق زحام الواقفين ممّن انقسموا ما بين شامتين وآخرين يبكون بكاءًا حارًّا، لكنهم ذوو تديّن وعبادة تمنعهم من أن ينقذوا أوار، وصل المختار إلى النّخلة، خلع ما عليه من ملابس علوية قد تعيقه، وبدأ

في تسلّقها حتّى وصل إلى قمّتها، حاول أن يفكّ أنشوطة الحبل التي كانت قد عقدت بعناية، وعندما فشلَ قام بجزّها مستخدمًا أسنانه حتّى قطعها وسط صيحات عالية ممّن كانوا حاضرين ليقع أوار على جسده ويغمى عليه فتدور رأسُه في أفلاك ما مرّ به، وكان لا يعي كنهَها فلم يدرِ كيف أُلقي في هذا الجُبّ، عمقه سحيق ضيق مظلم يحيط به العدم، شعر بالألم جرّاء تلك الأشياء التي رآها تتسارع نحو رأسه مُدمية إيّاها، حيرة تنتابه وشعور بالضياع، فأنّى له أن يعرف- وهو الضعيف المتهالك المكبّل- كيف وصل إلى هنا، تدريجيًّا شعر بأنّ غشاوة على رأسه تنقشع ليرى السّماء بلون الدم النازف يأتي ضوؤها عبْر كوّة ضئيلة الحجم في نهاية البئر الذي ودّ أن يصعد منه هاربًا، توقّع أن لا يفلح وصدق حدثُه، لكنّ رجاءه ربما كان مسموعًا لقوّة خفية لا يراها، فانشقّ جدار، نظر إلى جسده رآه يحلق في الوجود مبتعدًا نحو السماء يخرق حجابها لكنّ الألم عاد له مجدّدًا فتلاشت أفكاره عدا واحدة منها دقّت رأسه بعنفٍ وقوة:

أين الله؟! أين أنت يا الله؟! أين هو؟ أرشدوني إليه.

تراب طريّ نديّ غاصت فيه أعضاؤه التي صارت غيرَ ذي قدرة على الحركة، رأى دارًا أمامه، سار لها، وكلّما طرق بابًا تحوّل إلى جدارٍ من حجارة لا ينفتح، يبحث عن محرابٍ ليصلي فيه، وسط همهمات من عقله:

أيّ فريضة سيؤدّي؟! وأين هو الله ليصلي له؟! ليعود السؤال صارخًا في عقله من جديد:

أين هو الله؟ أروني إيّاه، أبلغوه عني إنْ كان لا يراني؟

هوى جسدُه حتّى أحاطت به ظلمة، فضاق الكون على أنفاسِه النادرة، حتى أتى رجلٌ ذو هيئة قريبة الشّبه من أبيه، اقترب منه، عيناه قد ابيضّتا من دموع حفرت خطًّا على وجنتيه لحرارتها وكثرة انهمارها، أمسك بحنفة من التراب، سكب عليها بعضًا من مسكٍ وصلت رائحته إلى أنفه، ثمّ اشتمّ رائحتها، نثرها على لحده ففوجئ بأنّه ميت وقد دُفن وسط صرخات من أناس حضروا مراسم دفنه، وصلت ذرّات تراب إلى كفنه، ففاحَ شذاه حتّى أُذكمت أنفه برائحتها، وتحوّلت حبيباته إلى اللّون الأبيض.. أنْ أغلقوا القبر على جسده لتصاب أذناه بطنينٍ عالٍ.

صار بكاؤه حارًّا رغم أنّ أنفاسه مثلجة، وقد أُصيب بالعمى، صرخاته مدوّية بلا صوت يسمعها لتتطاير جدائل شعره التي استطالت وصارت مجدولة دون تدخّل منه، التفت حول عنقه خانقة إيّاه، فاستفاق على الألم، وتلك الحشود أسفل منه ينظر البعض له باكيًا، والبعض شامتًا، وفريق ثالث لا يبالي، «ليموت كما مات العاصون من قبل».. ردّدها أحد الواقفين رافعًا عصا يشير بها إلى أوار، ازداد اختناقه، حتّى كانت صيحة واحدة فإذا بهم فزعين لا يدرون ما يحدث، أتى من العدم، صاح فيهم، حاول البعض منعَه،

عيناه على وشك أنْ تغيبا، تمنّى أنْ لا يموت الآن، أصبح على شفا حفرةٍ من الهلاك، عاد له رشدُه، تذكّر ما حدث، فات الأوان؛ فالموت صار طريقه مجبرًا، تخلّص الغريب منهم وتسلّق النخلة، حاول أنْ يقطع ذلك الحبل الذي كان ملتفًّا حول جيد أوار، في طريقه للفشل، وأوار في طريقه لأنْ يرحل، قاوم عثرته حتّى تهاوى جسده على الأرض، عادت نعمة الشعور بالألم تغزوه، تأوّه قليلًا، «لا وقتَ الآن» قالها بعد أنْ هبط سريعًا ليتّكأ عليه، بينما يحمله بعيدًا عن الجمع الذي ارتسم الذّهول على وجوههم وسط لعناتٍ صبّوها علينا» كافرٌ مَن ينقذ الكافر»، ومجدّدًا غاب عن الوعي ساقطًا على الأرض.

– هل عاد له وعيه؟

– ليس بعد، يفيق محملقًا دون استجابة.

– سيشفى، أظنّ ذلك قريبًا.

– ادعُ له بذلك.

– سأمرّ عليه لاحقًا.

– ابقَ هنا، فالخارج صار خطرًا عليك.

وقبل أن يهمّ بالردّ أكمل ذو الصوت الذي كان معروفًا لأوار قوله:

– لا أريد أن يفتح عينيْه دون وجودك.

– لا تقلق يا أبي.

بمجرّد أن قالها حتّى انهار الأبُ على ركبته باكيًا، وقف على قدمه، اتّجه نحو ابنه، بحث عن يده، لثمها، قال للمختار شاكرًا:

- كاد جسده أن يكون الآن تحت الثرى.

فتح أوار عينه، غمرتهم سعادة بعودته، بادره المختار بالقول:

- حدّثني.. أخبرني بأنّك لم تكن مجذوبًا، عقلك كان تائهًا.

لحظات سرح فيها أوار متذكّرًا ما حدث، تنهّد رافعًا نصفه العلوي قليلًا، ثمّ قال:

- رأيتهما معًا؛ بثينة وأحد المعمّمين، عصاة زناة أفّاقون.

سأل المختار بلهفة:

- ماذا حدث بعدها؟

- ضُربت على رأسي، فلم أعدْ أشعر بشيء إلّا حين وقعت على الأرض بعد أن فككتُ الحبل عني.

همّ المختار أن يسأله، وقبل أنْ ينطق كانت حركة غير طبيعية قد أتتْ من الخارج، ارتجفت قلوبهم، ليجدوا شُعلًا من نار تُلقى عليهم محرقةً ذلك المكان الذي كان يأويهم، وأشخاصًا يقتحمونه مكمّمين أفواههم ضاربين رؤوسهم حتّى فقد ثلاثتهم الوعي.

- اقتلوا الكفار العصاة.

عاد لداره، انتظرَ أن يلحق به المختار، عقله صار شعلة ملتهبة، وضع رأسَه على الأرض متوسّدًا ذراعه، تفكير قاتل يغزوه، استيقظ دون قدرة على الوقوف، ثلاثة أيام منذ أن اختفى المختار، أيكون قد غادر الزّمام بعد أن أنقذ أوار، لا يدري، لعن نفسه قائلًا: «مثل هذا العاصي ما وجب أن ينقذه من الموت؛ لو علم بذلك لتركه»، تأوّه بشدّة من ألم أصاب رأسه حتّى جعله غير ذي قدرة على أن يرفعها، باضطراد مستمرّ ارتفعت حرارة جسده، تسارعت نبضاتُ قلبه، شعر بأنّ جسده قد أُلقي في جوف الأرض لتزيد حرارته، وكأنّه يرقدُ على حممِ بركان ملتهبة، أصابته الحمّى، دوّار صار لا يغادر رأسه، رمالٌ تعبث بعينيه فلا يقوى على أن يفتحهما من الألم، بتثاقلٍ نهض إلى طستٍ أفرغَ فيه بعض الماء، جلس فيه باحثًا عن خفض حراراته، تناهى إلى مسامعه صوتُ جلبة قادمة من الخارج، ارتدى جلبابه على عجلٍ دون أن يهتمّ بنفض الماء من عليه فابتلّت، لكنّ حرارة جسده المرتفعة قد جفّفتها، رآهم في حشدٍ مجتمعين يتقدّمهم واعظان اثنان، يسيرون في غضب، يرفعون مشاعل تنير الطريق أمامهم، سأل أحدهم عن وجهتهم فردّ عليه، وكان مهرولًا كأقرانه، ليقول لاهثًا:

- أوار وأبيه.

ثمّ تماسك ليردف قائلًا:

- العصاةُ قد عاقبهم الربّ بالقتل، هو انتقامٌ لا كذب فيه.

تساءل في دهشة عن أيّ انتقام يتحدثون عنه؟

تفصّد جبينه بالعرق لكنّه لحق بهم غيرَ مبالٍ بمرضه المحموم به، ليجدوا أوارًا وقد شجّت رأسه طولًا، تورّمت وجنتاه، غزت كدمات كاملَ جسده ليتجلّط الدم ظاهرًا فيه، وسط بقع زرقاء داكنة اللون، أمّا جدّه فقد أصيب وجهه بالتشوّه، وكأنّ أحدًا ما قدْ أجهز عليهما، وتعمّد أن يؤلمهما في لحظاتهما الأخيرة.

تقدّم أحدُ الواعظين، خطب فيهم خطبةً قصيرة مقتضبة قائلًا:

- هو الانتقام من العصاة.

حاول البعض أن يحملهما ليصيح فيهم أحدُهم:

- العصاة لا جنازة لهم، لهم منّا النار والحرق، وفي الآخرة عذاب الجحيم.

قالها أحدُ المتعصّبين ملوّحًا بشعلته التي صارت غير ذات فائدة بعد أنْ جرّ الليل ذيوله أمام جحافل النّور، ثمّ أردف آخر:

– علينا أن نشعلَ النيران فيهم لنخلّص أرضنا الطاهرة من دنسهم.

وافق الحاضرون، حتّى أنّ صوت رماح وهو يحاول أنْ يقنعهم بأنّ هذا الأمر لن يرضي ربّ الكعبة لم يصل إليهم، فخلعوا ما على أوار وجدّه من ملابس، صارا عراة بينما تكفّل واحدٌ بإعداد سرير من جرائد نخل مُلقاة انتقاها جافّة، ثمّ قرّب ثالث شعلته ليصرخ رمّاح بصوت مبحوح بأنّ أوارًا مازال على قيد الحياة ويتأوّه، حاول أن يستمطر بردًا يطفئ به جمرَ خبالهم، لكنّه فشل فقد كانوا قد استسلموا منذ دهرٍ لمرآة شيطان ينعكس عليها جهلهم الروحي متزيّنين أمامها بالحماقة، تقدّم ليعبر صفوفهم لكنّ التحامهم حالَ دون ذلك، انتهى الإحراق وتمّ القتل وسط صدمةٍ أصيب بها رمّاح، ونشوةٍ غطّت عقولهم، لينتبهوا إلى صوت أحد رجال الكعبة من المعمّمين، مرتديًا عمامته وقدِ اقتحم صفوفهم وسط هالةٍ من تقديس ومهابة أحاطته، الأمرُ جدّ جلل ليخرج عليهم واحدٌ مخاطبًا إيّاهم، صمتوا بينما رفع إلى السماء صحفةً من جريد النخل، ليقول بصوت رخيم فيه ترتيل عبق:

«تجلّى فضل الله على أتباعه المساكين، علم بما كابدوه من مشقّة وعبادة، سمع أصواتكم الحبيبة، فصوت العابد كزئيرٍ يصل عنانَ السماء، لذا أرسل

إشارةً ربانية لربّ إقليمكم بأن ترتاحوا قليلًا، وليكن أسبوعَ مرح وفرح دون أن تدنوا نحو الكعبة أو تحملوا همّ معاصي قد تزيد ذنوبكم»

التفتوا ينظرون لبعضهم البعض، مهنّئين بعضهم؛ فطاعتهم قد وصلت حدّ الكمال، فكافأهم الرب بما وعد أن يكون في جنته بأن يحقّقوه على الأرض، ساروا فرحين مستبشرين عازمين على تحقيق أمر الربّ وتحقيق الانتشاء.

نهض قابيل من على الأرض وقد لوّثت الدماء التي تناثرت من فمه كاملَ وجهه مختلطة بالتراب، شعر بأنّ الرب لن يفعل شيئًا سوى أن ينصر هذا الهابيل، فأيقظ ذلك الشعور في نفسه قوّة مطلقة، اندفع كأسدٍ جريح، لمحت عيناه فكّ حمار أحالته عوامل التعرية إلى عظم لا يكسوه اللحم، أمسك به وفي غدر مصحوب برغبة قتلٍ رفع يديه إلى الأعلى مسدّدًا بضع ضرباتٍ على رأس هابيل الذي نظر له في اندهاش مِن هذا الفعل الذي لا يعرف له اسمًا، نظراته لم تطلْ فقد أغمض عينيه مسلمًا إيّاهما للموت، أمّا قابيل فقد رفع الجسد الملُقى ميتًا إلى الأعلى في تحدٍّ واضح، بصقَ وألقاه على الأرض مغادرًا المكان، متمتمًا بأنّ البقاء للأقوى، والقوي فقط هو القادرُ على تحقيق رغباته.

صمتَ الملّاح، كشف عن غطاءٍ مخملي كان يغطّي وجهه، كهلٌ عجوز، قامته ليست مُنحنية وإنْ كانت مائلة إلى الأمام قليلًا، سمارُ بشرته قد صار خمريًّا لندرة تعرّضه إلى الشمس، اقترب نحو المختار الذي قيدت يداه بإحكام خلف ظهره، قال له بهدوء:

– الأمر ليس شخصيًّا، هو للبقاء أقرب.

بينما يتحدّث كانت نظراته تعطي أوامرَ صامتة لأعوانه، ليسدّدوا اللكمات تلو الأخرى إلى جسد المختار، فيتأوّه ألمًا قبل أن يحاول أنْ يرفع رأسه فتخور قواه على إثر ضربةٍ أخرى.

- ولِمَ قتلت أوارًا؟

سأله المختار قبل أن ينفجر فمه بسوائل مندفعةً من معدته على إثر لكمةٍ قد سدّدت إليه بإحكام، فردّ عليه الملّاح:

- بثينة لم تكن سوى فتاة آويناها صغيرة، حظّها التعس ساقها لتعشق واحدًا من معمّمينا.

تنهّد وأردف قائلًا:

- كان من الرّتبة الأولى، فلم يكنْ يجب أن يُفضح، مسكين أوار، جلّ ما أردناه أن نحفظ بقاءنا بعد الشّتات، كما هو الحال معك.

قالها ليشير بعينيه إلى واحدٍ من رجاله فانْهال على ظهر المختار بعصًا غليظة ليصرخ من شدّة الألم قبل أن يكمل الملّاح:

- صدّقني، إنّ فلسفة الوجود تكمن في أن تكون خالدًا ظالمًا لا مظلومًا، الحياة تكافئ القاتل بأن تمدّ في عمره، بينما يندثر المقتولُ تحت التراب، وترمّل زوجته وييتّم أبناؤه، الحياة ليست عادلة.

صمتَ لبرهةٍ أشار فيها بعينيه إلى أحدِ رجاله الذي تحرّك مقتربًا من المختار ليستوثق من قيْده قبل يخرجوا جميعًا تاركين إيّاهما ليقول الملّاح:

- لا علم لك طبعًا بما حدث لي، لم أكنْ خائفًا من الموت، لكنّني لم أكن راغبًا في أن أموتَ مظلومًا، بل واقفًا على قدمي معفّرة بالتراب، لذا صار

عليّ أن أسايرهم حتّى أصبحت على قناعةٍ تامّة بأن أبسط الكلمات قد تغزو عقولَ أعتى العتاة على شرط أن تظهر إيمانَك، ويظهر بعضُ مَن هُم حولك اقتناعهم.

ترقرقت دمعة كانت محتبسة لتسير بخطّ متعرّج على وجنتيه، تماسك، ثمّ أردف:

- أن تكون أميرًا فهناك مثلك الكثيرون، لكنّ كوْنك إلهًا فتلك قوّة مطلقة؛ يدٌ تبطش وترعى، وقوّة خفيّة لا يدركها سوى المؤمنين من أتباعك، ستعلو على الجميع من البشر، ستزال من أمامك عوائقُ البقاء على قيْد الحياة أبَدَ الدهر، هذا إن كان الموت يعني لك فقط فناءَ الجسد دون الروح، أنت واحدٌ فردٌ صمد، ولن يعلو من فوقك أحد.

أتدري حكمة ما أقول، أتدري أنْ تكون أنت الله، حسنًا.. أحيانًا عليك الاختيار أن تكون أنت الإله ولو لمرّة واحدة، حينها ستموت كما رغبت أن تفعل.

بصوتٍ متهدّج من قسوة الألم وشدّة التّعذيب:

- كيف أقنعتهم بتلك الخرافات؟

- كانوا على استعداد، ما كان على جلاب سوى أن يطئ مواطنَ جراحهم، ليس هناك أقسى من رجلٍ عُرّي أمام قومه!! حينها يكون على استعدادٍ لأن

يعبد الشيطان ذاته ليستعيد مجدَه وكرامـته، والحقّ أنّ عبدي جلاب قبل أن يموت قد أدّى الدور الأكبر، المعادلة بسيطة وسهلة، وهمٌ نثرناه بينهم، ماءٌ صرنا نتحكّم فيه، والنهاية ما تراه أمامك الآن، طاعة لا تقبل الرفض.

حينئذ تذكّر مختار ما حدث معه حينما اقترب من الماء الذي أطلق عليه حينها رمّاح «الماء الشريف»، وكذلك ما حدّثه عن ذلك الجثمان الذي وجدوه مشوّهًا، فقال متفحّصًا عيني الملّاح:

- مادام قد ساعدك لِمَ قتلته؟!

ضحك الملّاح بشدّة، وقال:

- يعجبني ذكاؤك الحادّ، لو كنت رفيقًا لي منذ ثلاثين عامًا لكنت قد ملكت المحروسة بأسْرها، وليس مجرّد هذا الزمام.

ثمّ أردف قائلًا:

- الإله لا يحبُ أن يكون لأحدٍ فضلٌ عليه أو اطّلاع على أدقّ أسراره.

- لكنّه كان عضدك، يبدو أنّك قد جننت أو رغبت في التخلّص من شريك ألوهيّتك.

انفعلَ الملّاح بشدّة، اقترب من المختار، لكمَه على فمه حتّى أطار إحدى أسنانه قائلًا:

- هكذا صرت خالدًا، أصبح لي كعبة يتقرّبون فيها إلي، أي حياة أفضل من تلك؟

قالها ثمّ رفع يدَه لأعلى متباهيًا، نظر نحو الباب الذي خرج منه رجالُه ليدخلوا دون أن يأمرهم، هدأ وأومأ إلى واحد منهم، فدلف إلى مكان مخفيّ عن نظر المختار، صمت قليلًا ريثما عاد الرجل، إيماءاته وإشاراته كانت دون حديثٍ فكانوا يستجيبون له وكأنّ تخاطرًا قد نشأ بينهم من طول الالتحام العقلي بينهم، وضع الرجل سائلًا في القِدْر، ومِن ركن أحضر بعضًا من الحطبِ وجريد النخل الجاف، وصار يقلّبهم بالسائل، بينما عاد الملّاح ليقول للمختار:

– هل تعلم أنّ أحدَ المخابيل كاد يشنقنا.

ثمّ همس في أذنه قائلًا:

– هو والد هذا المعمّم.

أشار إلى أحد الرجال ممّن كانوا حوله، ثمّ عاد لصوته الجهْوري قائلًا:

– لكنّ العقل إذا قرّر البقاء على قيد الحياة غزا العالم حتّى لو كان لا يملك سوى ثُمامةٍ.

أتمّ الرجل تغريق الحطب والجريد في السائل، وقف منتظرًا أوامر الملّاح الذي نظر له ثمّ عاود النظر للمختار:

– جاء البعض تائهًا لزمام الملّاح، ولكنهم كانوا يغادرون دون أنْ يسبّبوا لنا الأذى، أمّا أنت فحين عرفت أنّ أقدامك النجسة قد حطّت في زمامنا وقد

رأيت حلمًا كمثل التي اعتدت عليها، رأيت نفسي كاهنًا أقف أمام تمثالٍ ضخم تشتعل النار من تحت أقدامه، ألوّح بالعصا فيتمايل الناس من حولي متقرّبين لي، حتّى جاء أحدهم واقتحم علينا خلوتنا معفّرة ملابسه ممزقة، ظلّ يصيح فينا، يصرخ دون أن نفهم، أزاحه الناس خارجًا، استيقظت حينها من نومي، شعرت بالراحة، وبعد أن قرّرت أن تعصاني وتنقذ أوارًا من عقابه حتّى جاء الرجل لي ثانية، كان الناس قد انفضّوا من حولي، كلّ لشأنه منصرف، رفع حجرًا من الصّوان، انْهال على رأسي فتوسّلت منه الرحمة لكنّه لم يرحمني، قتلني وهدمَ التمثال، وصار يزهو ويفتخر حتّى فتحت عيني وقرّرت أنّ نهايتك لا بدّ أن أتأكّد منها.

أشار للرجل بجوار القدر، أزاحه مجرجرًا إيّاه لثقل وزنه، فأصدر صوتًا عاليًا من جرّاء احتكاكه بالأرض، اقترب الملّاح إلى المختار كثيرًا، قال له:

- قريبًا ستواجه أسوأ مخاوفك وأقساها.

وبابتسامةٍ واثقة أردف:

- لنا في التّداوي بالأعشاب وصناعتها خبرة، فنكاد نحي الموتى بواسطتها.

ناوله أحدُ معاونيه كيسًا من القماش، قام بحلّه وأخرج منه شيئًا ملأ به قبضة يده، ثمّ اقترب نحو المختار واضعًا إيّاه بالقرب من أنفه، قائلًا:

- شُم ذلك.

حاول المختار أن يبعد أنفه، بينما ضحك الملّاح ومَن معه، وقام بدعكها على النار وهو يقول:

- تدعى «الإيبوجا» أحضرها جلاب من أقصى الجنوب، وضعت لك مقدارًا يكفي لأنْ تغيب عن الوعي لمدّة عشرين يومًا، وحين تعود لا تقلق لن تشعر بشيء أبدًا، كلماتك الوحيدة التي ستردّدها هي الاستنجاد بنا، وسؤال ستظلّ تردّده كثيرًا قبل أن تختار أن تشنق نفسك... أين هو الله؟ أرشدوني إليه.

حادث نفسه، شعر بالحزن على حاله، أمسك رأسه، وحاول أن يسكتها..

«أصابك الجنون يا رماح، كيف طاوعتك نفسُك على أن تستسلم لشيطانٍ غزا عقلك، كيف تشكّك في ربك، أحزين أنت على أوار وأبيه، حسنًا لقد كانوا عُصاة استحقّوا غضب الرب فحُطموا بيدِ عباده، يبدو أنّهم حاولوا الهروب ومخالفة الأمر الإلهي»

نهض على قدميه، وقف مسندًا رأسه على حائط الدار، أفكاره لا تنتهي...

«أين هو مختار الآن، لقد اختفى، ذهب بصحبة أوار ولم يعدْ، كان عاصيًا أيضًا، وتمادى في غيّه حتّى وصل إلى درجة أنْ خالف مشيئة الرب في عقابه لأوار»

«ما بال عقلي لا يقتنع؟ يبدو أنّ مخالطتي لهذا المختار قد زعزعت إيماني، لكنّني لن أستسلم»

توجّه نحو صندوقه، جثا على ركبتيه، فتحه مقلّبًا في لفائفه، أخرج واحدةً كان يبحث عنها، دموع النّدم تتقاطر على وجنتيه، فتحها وبدأ في قراءة ما فيها:

«لفيفة الاستنجاد والاستغاثة

عذ بربكمُ من الأسقام والعلل، عذْ بربكمُ من الدّقع والمهالك، عذْ بربكمُ من الزّيغ وغدر الطريق والصديق، عذْ بربكمُ من بوائق الدّمار وزوال الوجود وتناسى الكلمات، تقرّبوا، تعبّدوا، استعينوا به، استهدوه وهادوه وهادنوه، ولتعلم يا عبدي الفاني أنك بي ناجٍ، وبتقواى ترتفع، فتأمن عذابي، فتعلو درجات البقاء والنقاء، نقّ دغَلَ روحك، واصطَفِ لنفسك النّسك بعيدًا عن شرور المعصية، وليهلك العاصون في النار».

انتهى، وقد شعر بأنّ تقواه قد عادت إلى قلبه، أيّ تجديف هذا الذي كان سائرًا نحو غياهبه، «ليكن أسبوع الراحة وقتًا للتقرّب والعبادة، الربّ لا يرفض أن نتعبّد حتى لو أمرنا أن نروّح عن أنفسنا» قالها قبل أن يقرّر أن يتوجّه نحو الكعبة، سيتلمّس حائطها، سيذهب إلى الباب الأوّل، منذ فترة من الزمن لم يزرْه، منذ أن انشغل بنزواته وعبوره الجبل حتّى التقى هذا العبد العاصي، قد يمنّ الله عليّ بلفافة يختصّني فيها بالدعاء فيصبح طريقي إلى رحمة ربّ السماء مختصرًا، سأموت وأنا على يقين بأنني صرتُ من روّاد الجنة، سأتزوّج هناك، سأعوّض حينها ما حُرمت منه، راودته تلك الأفكار حتّى اقترب من الباب، رفع يده باكيًا حتّى أصابته النشوة، وكاد يغشى عليه من فرط إيمانه.

أوشكَ على أن يغيب عن الوعي، لحظات معدودات ويصير مجذوبًا، سيأسَى الناس على حاله، لكنّه سيصير عبرةً لمن تطاول على الربّ وتسلطنَ عليه، فكان الجنون جزاءه، لفافاتُ إيمان ستتمّ كتابتها، سيطغو رجال الكعبة بصورة أشدّ وأعنف، طغيانهم سيكون ذا صبغةٍ ربانية، شعارهم أنْ تعصي لنا أمرًا هو عصيان لله وكفر به، عليك أن تطيع وإلّا صرت كغيرك من العصاة مجذوبًا، حاول أن يبتسم فتلك هي آخر لحظاته العاقلة، أيام قليلة ويشنق نفسَه، صرخات تأتي من بعيد، حتمًا تلك سكراتُ حياته الأخيرة، وجنونه قد بدأ، لكنّ أغواره قد سبرت حين رأى رجال الإله يهرعون بخوف حتّى أن واحدًا منهم وقع على الأرض يتلوّى محترقًا بعد أن نشبت فيه النيران، دوّت هتافات عديدة صارخة لتنبّه عقله:

«أنقذوا المختار، أنقذوا المختار»

اقتحموا المكان، التفّ بعضهم حوْله، أزاحوا قِدر النار من أسفله، قطعوا قيده، أنزلوه في رفق، نال الإرهاق منه، تماسك قليلًا، وتلقائيًّا نظر نحو الباب الذي قدم منه الملّاح، وجده مفتوحًا بعد أن كان مغلقًا أثناء تعذيبه، فالتقط من أحدِ المهاجمين عصًا غليظة وهُرع ليلحق بالإله الذي صار له معارضين وانتفضوا ثائرين عليه، يسير نحو مكانٍ مجهول ليجد بضعَ درجات من سلّم ملتوٍ حول نفسه، صعدَه في حذر حتّى وصل إلى نهايته ليجد بابًا موصدًا،

حاول دفعه لكنّه كان محكم الإغلاق فاستعمل كاملَ قوته منهالًا عليه بكتفه حتّى انفتح، ليجد أمامه الملّاح، وقد وقف متأهبًا لقتاله الأخير، إمّا أن ينتصر أو يهبط كربٌ فيعلن غضبه عليهم بعد أنْ يركعوا أمامه، تلك معركة فاصلة، أخرج الملّاح خنجرًا ذا نصلٍ مقوّس، ثمّ أمسك بقنينة قرّبها إلى أنفه، اشتمّ رائحتها وهو ينظر في شراسةٍ إلى المختار يحاول أن يبثّ الرعب فيه، غمس الخنجر فيها، ثمّ ألقاها لتتهشّم، خطا نحو المختار في ثقة، وفي سرعة خاطفة حاول أن يطعنَه إلّا أنّ المختار تفاداها متراجعًا إلى الخلف رافعًا عصاه ليهوي بها على رأس الملّاح لكنّها ضلّت طريقها، إلّا أنّ الملّاح قد فقدَ توازنه، فاستغلّ المختار تلك الفرصة ووجّه لجانبه الأيمن ضربة أولى لمست ضلوعه ليتأوّه الملّاح على إثرها فيلاحقه المختار بثانية على رأسِه انفجرت الدماء على إثرها، وقع الملّاح على الأرض، خارت قواه، سالت دماؤه غزيرةً دون انقطاع، كان بعض الثائرين- وعلى رأسهم رماح- قد وصلوا إلى قدس أقداس ربّهم السابق، وجدوا جسده غارقًا في دمائه، وبصوتٍ لاهث يحتضر متمسكًا بآخر تلابيب روحه قال:

- أنا جزء من مشيئته على الأرض، لو لم يكن عالمًا بعصيانهم لما فعل، أنت لم ترَ ما مررتُ به.

نظر له المختار وقد صار متحفزًا لتوجيه ضربة أخيرة قاضية، بينما سعل الملّاح محاولًا أن يتماسك، وقال:

- أنا اختبارٌ لهم، فربما صارت جنته ممتلئة.

نظر المختار للثائرين المتوجّسين خيفة من عذاب قد يحلّ عليهم، فصار عليه أن ينهي هذا العبث، ألقى عصاه جانبًا، مال إلى أذن الملّاح الذي ظنّ أنّ كلماته قد أتت ثمارها، همس في أذنه قائلًا:

– صدّقني الأمر ليس شخصيًّا، هو للبقاء أقرب.

ثمّ نهض من عليه وقال:

– إنْ كانت مشيئته أن يرسلك إليهم؛ فلتكن إرادته أنْ أرجعك له كي تستطلع الطريق.

وفي حركةٍ خاطفة أمسك تلك القنّينة التي كانت قد هشّمت، وبطرف مدبّب حادّة كنصل المنجل غرسَه في عنقه ليخمد جسدَه نهائيًّا على الحركة والحياة.

نهض المختار، نظراتُ تقديس وإجلال أحيطَ بها، كان الإرهاق قد بلغ به مبلغه، نظر إلى الأبصار الشاخصة نحوه وقد توقّع أنْ يكون الأمر قد انتهى، بالفعل لقد انتهى، أي سخف هذا!؟ لَم حملوه على أكتافهم بل وطافوا به، انْهال رماح على قدميه تقبيلًا، نظر له بتمعّن غير ذي استيعاب، تبعه البقية، ليهلّل مَن انتهى قائلًا:

«إلهنا واحدٌ أحد، إلهنا فردٌ صمد»

تساءل في قرارة نفسه، هل فعلوا ما رآه، بل مجرّد خيالات خرقاء؟ فأجابته: نعم. هل انفعل عليهم؟ لا.. لم يفعل، لم يجرؤ ولن يجرؤ، والأرجح أنه لم يكنْ

راغبًا في أن يمتلك تلك الجرأة، طاقة تدفّقت عبر شرايينه، أين والداه الآن؟ تساؤل طرق عقلَه ليجيب على نفسه بأنّ مشيئة الله آمرة، ولتكن نافذة في مصيرهم، فرفع يدَه نحو السماء، صمتوا متلهّفين كأي مجذوب خَبِل، راقه الأمرُ كثيرًا، فأنزل يدَه وتنفّس بعمق وبوجه قد الْتمع منفرط ذرات العرق التي تراكمت عليه، قال بنبرة حانية مطمئنة ذات فحيح:

– هلمّوا، فقدس الأقداس قد فسد، وعلينا أن نرمّمه موسّعين رقعته رافعين من شأنه، ونمدّ بُسط الحرير الأحمر إليه لنيسّر طريق الوصول للعباد والنساك.

كببغاوات عقولهم في آذانهم، نهضوا في جدّ ونشاط يخلعون ما عليهم من ملابس مشمّرين عن سواعدهم ليعيدوا البناء والتجديد، في حين مال عليه رماح ليقول:

– هناك ذراري كثر يرغبون في التكاثر، وعليك أن تمنّ عليهم ببركتك.

ولم يكدْ يكمل عبارته حتّى هُرع أمامه رجال دين الكعبة ممّن كانوا كهنة لاهوت الملّاح، وداعين لعبادته، ركعوا أمام المختار، نظر لهم في ازدراء، فجلسوا أمامه القرفصاء مصطفّين في صفوفٍ ثلاث، رفع كلّ واحد منهم لفافةً فوق رأسه، بصوت متناغم نقيّ متعبّد متهدّل قالوا:

– إلهنا واحدٌ أحد، إلهنا فردٌ صمد.

تحوّلت نظرات ازدرائه لتعجّب ودهشة، وبخاصة حين أعادوا تكرارها بصوت ارتفع تدريجيًّا حتّى وصلت أصداؤه إلى أهل الواحة ممّن كانوا يرمّمون

كعبة المختار فزادوا حماسه وضاعفوا العمل والمجهود، قبل أن يصمتهم بنظرةٍ منه، فسكنوا وساد بينهم صمتُ قبورٍ مهجورة، بأنظار متعلّقة بالمختار، قال لهم:

- هلمّوا لتكتبوا.

انتفضوا منفّذين أمره، أخرج كلّ واحد منهم من طيّات ملابسه طرسًا ودواة وقصبة على أهْبة الاستعداد لتنفيذ ما يأمرهم به..

لكنّه الإرهاق قد أصابه، وثمّة الكثير من الأمور الأكثر أهمّية مازالت مجهولة أمامه، فنظر نحو رماح سائلًا إيّاه:

- كيف وصلت إلى هنا؟

ردّ عليه وقد انحنى أمامه ليكسبَه هيبة وطاعة في نفوس الجميع:

- صدفة ربانية جعلتني أبالغ في العبادة.

نظر له المختار باندهاشٍ ليكمل رمّاح:

- لا تندهش، هناك أمور كثيرة تحدث دون سبب، مجرّد أقدار حيكت بعنايةٍ لتنجو، قرّرت أن أنتزع المؤمنين منهم بواسطة إيمانهم، أقنعتهم كما أقنعت نفسي بأنّ الربّ حتمًا لا يبالي براحتهم، بل هو مجرّد اختبار لهم، كدت أن أفشل لكنّ واحدًا منهم أظنّ أنه هذا الذي يتقدّم صفوف المرمّين قد صاح فيهم.. هيا بنا للكعبة، وليكن أسبوع للصلاة والعبادة، أشارت عليهم بالباب الأول ولينظموا أنفسهم حتّى وصل إلى مسامعهم ما وصل إلى حين أُوحي

إليَ بأن أمدّ يدي فاتحًا الباب لأدخل حتى دون إذن، تظاهرت بالدّهشة، هاجمتك، لكنّ عقولهم كانت قد سيقت لطريقٍ آخر، وصار من المستحيل أن تعود، كلما كنا نقترب كان صوت الربّ يتعالى في تعذيبك ليصيح فيهم نفسُ الشخص كيف للربّ أن يتحدّث! أليس له أن يوحي لمخلوقاته حتّى العاصين منهم؟ ذهل المتعصّبون وثارت في عقولهم تساؤلات جمّة، فكان صراعك هو الفيصل، يحتاجون دومًا إلى ربّ، لا يبالون مَن هو، لكنهم لا يقبلون إلّا بوجوده، أطفال هُم من دونه، سائرون كالموتى على غير هدى، والنتيجة جليّة أمامك، أصبحت أنت إلههم ومرشدهم.

تنفّس المختار بعمق، استجمع قواه، رسم على وجهه ملامح الهيبة، قال آمرًا:

– لتكبتوا لفيفة الإيمان، ودستور الرّحمة والعذاب، ولتكن كلماتكم منبعها وحيٌ، فتلك هي آخر ما ستسمعون مني.

بكوا بغزارة، وانكبّوا يكتبون، بينما التفت المختار نحو رمّاح قائلًا:

– ليكن اسمها لفائف وليس لفيفة؛ تعظيمًا لها ولتختصّ بالإيمان والطاعة لربهم العلي.

مجدّدًا قال لرمّاح:

– ولتكن آخرُ اللفائف مستبدلين إيّاها بكرانيف النخيل.

– سار متتبعًا خطوات شيطانه.

قالها أبو الحسن وهو يقلّب في لفافة أخرى كتلك التي عثروا عليها ملتحمة ببعض الكرانيف قبل أن يردف قائلًا:

– أهل الزمام قد سُحروا فعبدوه، لكنّ إيمانهم كان منتقصًا ضعيفًا فعندما مات الإله أحضروا أكثر مَن قاوم طغيانه وتوّجوه إلهًا جديدًا.

– هل لها ثمن مثل تلك الأشياء؟

تساءل صباغ منتزعًا أبا الحسن من توحّده العميق مع اكتشافه ليردّ عليه بانبهار:

– بالطبع؛ اكتشافٌ فريد من نوعه، وتاريخ للمكان سوف يُكتب من جديد، وإلّا ما حضرت إلى هنا قاطعًا كلّ تلك المسافة عندما أخبرني ابن عمّك بعثورك على شيء مدفون في الأرض لا تدري ما هو.

– حسنًا..

لم يبدِ صباغ ردّة فعل تُذكر، نهض متوجّهًا للباب، غابَ لبرهة ثمّ عاد حاملًا معه قربةَ ماء ناولها لأبي الحسن وهو يقول:

– مازلنا نحتفظ بطرقنا القديمة في ترطيب المياه عبْر تعليقها أمام ملقف هواء بارد.

نظر له أبو الحسن مبتسمًا، تجرّع بضع رشفات وعيناه لا تفارقان لفافة أخرى امتدت إليها يده، ليقول له صباغ:

– يبدو أنّ السماء على وشك أنْ تمطر.

ولم يكدْ ينتهي حتّى دوّت عاصفة مفاجئة في سماء الزّمام، رياح ورعود تبعتها أمطارٌ هطلت، اهتزّ المكان بعنف، وأضيئت السّماء بلا توقف حتّى ارتعشت من عنف الرّعود المستمرة، غضب الطبيعة عنيفٌ، وحبّات المطر ازدادت ثقلًا حتّى انهار جزءٌ من سقف الدار لينهض أبو الحسن والصباغ مفزوعين في محاولة سريعة لإصلاح ما ضربته العاصفة مُخربة إيّاه.

انتهوا مؤقتًا وقد أُنهكوا، عاد أبو الحسن يقلّب في لفائفه خشية أن يكون الماء قد طالها فيمحوها من ذاكرة التاريخ، وحين شعرَ بالرعب من تلك الفكرة همّ يلملمها على عجل، بينما رائحة الطين المختلط بالماء تملأ المكان وسط قطرات صارت غزيرة تسرّبت عبر ثقوب في مواضع شتى من الدار.

- ساعدني يا صباغ، لننقل تلك الأشياء لمكان جاف.

قالها أبو الحسن في هلع وخوف من ضرر قد يلحق بكشفه، لكنّه فوجئ به يقف دونَ حراك، نظر له متعجبًا لكنّ نظرته لم تدمْ طويلًا، أحسّ بدوار عنيف ضرب رأسه التي صارت تؤلمه، جسدُه تخدر، أطرافه لم يعدْ يشعر بها، حاول التماسك، لكنّ قدميه لم تسعفانه، سقط على وجهه، غطّى الطين وجهه لترى عيناه قدميْ صبّاغ تسيران أمامه، مال إليه قائلًا:

- ستفيق بعد يومين من الآن، الأمر لا يتعلّق بك، لكنّ تلك العاصفة سوف تجبرني على شراء نَورَج لحرث حقلي الذي أصبح على وشك أن ينضب، وتلك اللفائف حتمًا سيكون ثمنها معينًا لي.

تمّت بحمد الله

الفيوم ٢٠-٩-٢٠١٨

على هامش زمام الملاح

على غرار أستاذنا الكبير بهاء طاهر في رائعته الملحمية "واحة الغروب" أفردت الصفحة الأخيرة من رواياتي للحديث عن زمام الملّاح منذ أن بدأت كتابة أولى حروفها بتاريخ البداية:

٤-٣-٢٠١٦، وتوقّفت فيها لفترةٍ من الزمن تزيد عن التسعة أشهر لأقرّر أنْ أخرجها من غياهب النسيان، وأعود محاولًا نشرها وتقديمها للقارئ؛ فانتهيت منها بتاريخ ٢٠-٩-٢٠١٩.

أدينُ بالفضل في بدء تلك الرواية لحُلم روادني، فنهضت لأكتب أحداثه، فكان بذرة لتلك النبتة التي حاولت أنْ أرعاها، وأن أقدّم لها وقتي وجهدي وعنايتي.

استأنست في تلك الرواية بعددٍ من المراجع التّاريخية الهامّة والمقالات العلمية لأوثق الجانب التّاريخي والديني فيها، وعلى سبيل المثال واختيار الأشهر منها كانت:

- المختار من تاريخ الجبرتي، الجزء الأول.
- البغايا في مصر في عهد المماليك، د/ عماد هلال شمس الدين.
- معجم المصطلحات المملوكية، د/ محمد أحمد دهمان.

- علي بك الكبير، د/ محمد رفعت رمضان.
- البيوت التجارية المغربية في مصر في العصر العثمانى، أ.د/ حسام محمد عبد المعطي.
- الرحلات الحجازية المغاربية- المغاربة الأعلام في البلد الحرام: دراسة نقدية توثيقية ثقافية، أ.د/ حفناوي بعلي.
- المجتمع الإسلامي، د/ أحمد شلبي.
- شخصيات قلقة في الإسلام، د/ عبد الرحمن بدوى.
- صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي، د/ علي محمد محمد الصلابي.
- الأندلسيون وهجراتهم الى المغرب خلال القرنين ١٦-١٧، أفريقيا الشرق، د/ محمد رزوق.

وكذا عدد من المقالات في تاريخ المغرب، وبخاصّة مدينة فاس، والتي ساعدني فيها الصديق المغربي مهدي حميش، الصحفي بعددٍ من وسائل الإعلام المغربية، أعزّه الله.

حاولتُ أن أقوم بعملِ مزجٍ ما بين الواقع والأسطورة ليتسنّى لي أن أُخرج هذا العمل.

في ذكْر حادثة المغاربة، حاولت البحثَ كثيرًا في نهاية لَمن كانوا فيها، لكنّني لم أتوصّل لمعلومةٍ تقيني شرّ الجهل.

هناك الكثيرُ من ادّعاءات الألوهية، والعبادات التي سادت في عصورٍ مختلفة ما بين ادّعاء نبوة وادّعاء ألوهية كامل يعقبها انْدفاع الكثيرين خلفهم مصدّقين لهم، ومؤمنين بوحْيهم، وذلك قديمًا كالجيلاني التي دارت حوله الكثيرُ من الشبهات حول تأليهه لنفسه، أو حديثًا في مصر وغيرها، فكانت تلك الرواية محاولةً خجولة مني لأنْ أتقصّى بعض الحقائق حول هذا الشأن مبرزًا وجوده وحقيقة ما يحدث فيه.

البعثاتُ الأثرية التي كانت تعمل في مصر ساهمت بصورةٍ ضخمة في تحقيق العديد من الكشوفات الأثرية العظيمة، إلّا أنّها ساهمت أيضًا في خروج الكثير من القطع الأثرية الهامّة، والتي ظلّت بحوزتهم حتّى الآن، فحاولت أن أسلّط بعض الضوء عليه علّها تكون لبنة في جدار استعادة ما خرج دون وجْه حقّ.

اعتمدتُ كليًّا في المراجعة التّاريخية لتلك الرواية على الأستاذ الدكتور/ عماد هلال شمس الدين، أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بكلية الآداب، جامعة الملك فيصل، بالمملكة العربية السعودية، وقد قمتُ بعمل تغييرٍ طفيف على بعض الأحداث والتّواريخ وذلك حتى تلائم النّسق الدّرامي للرواية.

اعتمدتُ في أشعار تلك الرّواية على الشّاعرة نشوى الحسنين فأمدّتنى بأبيات الشّعر التي طعّمتُ بها بعض صفحاتها.

وأخيرًا، فتلك هي الرّواية الأولى لي في الكتابة، والثالثة في النّشر؛ لأنهي بها المرحلة الأولى من مشروع أدبي اعتزمتُ خوضَ غماره، مؤمنًا بأنّ الكلمة أمانة في عنق كلّ مَن استطاع أن يصلَ بها لأكبر قدرٍ من الناس فيغيّر فيهم بعضًا من أفكارهم فيحسنها، أو تسوء متحملًا وزرها في كلتا الحالتين.

بحيرة قارون، الفيـــوم